
إيڤان س. تورجنيف
رودين
ترجمة

رودين

رودين

تأليف

أ تورجنيف

ترجمة

إبراهيم زكي خورشيد



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع

مقدمة

عاش تورجنيف حياة مضطربة فى عصر حافل بأسباب القلق ، ملىء بالحركات الاجتماعية والسياسية والانتفاضات العقلية ، وقد عشق الحرية ورفع رايتها وكافح فى سبيلها ، وهو يحيا فى جو ساده العسف والطغيان والكبت والحرمان .

ولد تورجنيف سنة ١٨١٨ لأسرة من أعيان الريف ، وتزوج أبوه زواجاً مادياً من امرأة موسرة أكبر منه سناً . فساقتها العقد النفسية التى كانت تتملكها إلى معاملة أطفالها وعبيدها معاملة كلها طغيان فى طغيان . وتعلم تورجنيف فى وطنه روسيا ، ودرس فى جامعتى موسكو وسانت بطرسبرج ثم فى برلين أخيراً (١٨٣٩ - ١٨٤٠) وفيها اختلط بشباب الروس المثقفين وتطبع بطباع الغربيين . وفى سنة ١٨٤٣ نشر قصته المنظومة « باراشا » وقد عرض لها الناقد الكبير بلينسكى فأثنى عليها . وترك تورجنيف الخدمة المدنية واتجه إلى الأدب ، وتدله فى حب المغنية

المسهورة پولين جارسيا (مدام ڤياردو) فدبت القطيعة بينه وبين أمه من أجل ذلك . وتوقفت عن مده بالمال ، فعاش عيشة بوهيمية حتى وفاتها سنة ١٨٥٠ . وهنالك أصبح تورجنيف من الأغنياء . ولم تستجب مدام ڤياردو لحبه الذى شغله طوال حياته . وإن سمحت بلقائه . فترك ذلك أثراً عميقاً فى رواياته . وهجر تورجيف الشعر إلى المسرح . ثم ترك المسرح بعد عام ١٨٥٢ واتجه إلى الرواية . وكانت أول رواية كتبها ولقيت نجاحاً هى « صور قلمية لرياضى » ظهر فيها الفلاحون أكثر جاذبية من أسيادهم . وفى سنة ١٨٥٢ نفى إلى ضيعته وقضى فيها ردحاً من الزمن . فقد أخذ عليه رثاؤه لجوجول وثناؤه عليه . ومن روائع رواياته رودين ، والحب الأول . وآباء وأبناء . والدخان . والتربة العذراء .

كان تورجنيف ينتمى إلى فئة من الروس قليلة العدد جداً . فئة تلقت تعليماً أوربياً خالصاً لا يقل عما يتلقاه الإنكليزى أو الفرنسى أو الألمانى . واتفق أن كان عمه نيقولاس قد اشترك فى الحركة التى كانت ترمى إلى إقامة حكومة دستورية فى روسيا بقوة السلاح . وفشلت هذه الحركة ونجح نيقولاس فى الهرب من انتقام القيصر نيقولا الأول . واستقر به المقام فى فرنسا . ونشر فيها أول دفاع عن الثورة الروسية . وكان تورجنيف وهو يدرس الفلسفة فى برلين يزور عمه زيارات قصيرة فى فرنسا . وزرع فيه عمه أفكاراً عن الحرية لم يتخل عنها فى حياته كلها .

وفى الستينات أصدر ألكساندر هرتزن فى لندن صحيفة « كولكول » وكان هرتزن من أكثر كتاب الروس موهبة . لامعاً عاطفياً ذكياً .

١

وصحفيًا قديراً وكاتب مقالات مبدعاً . واتصفت صحيفته هذه بالثوريه والتطرف ، وأصبح لها فى روسيا سلطان كبير ، وقد اشترك تورجنيف فى تحريرها ، بل كان عضواً فى هيئة التحرير .

وقد ظهرت هذه الحقيقة مؤخراً وتكشفت من خلال الرسائل المتبادلة بين هرتزن وتورجنيف ، والحق أن هذه الرسائل قد ألقت ضوءاً جديداً على حياة كاتبنا . فقد بينت أن هذا الروائى العظيم كان أيضاً من أقوى المفكرين السياسيين فى عصره وأبعدهم بصراً وبصيرة . ولا شك أن هذا يتجلّى بأجلى بيان فى آثاره .

وبعد فما قيمة تورجنيف بين الروائيين الروس العظام ، بل بين أئمة الكتّاب فى العالم ؟ الواقع أن تورجنيف لم يعد كاتبا روسيًا وحسب ، بل هو قد كسب فى الخمسة عشر عاماً الأخيرة من حياته نفسها جمهوراً من القرّاء فى فرنسا ثم فى ألمانيا وأمريكا ، ثم فى إنكلترة .

وحسبنا أن نذكر ما قاله فى رثائه الفيلسوف والفنان العظيم رينان : « إنّ هذا المعلم الذى سحرت آثاره الرائعة القرن الذى نعيش فيه أصبح يُعدُّ أكثر من أى كاتب آخر تجسيداً لجنس بأسره . ذلك أن عالما كاملا يعيش فيه ويتكلم هو بلسانه » .

ولا جرم أن تورجيف بفضل خِصْبِ موهبته الخلاقة يقف على قدم المساواة مع أعظم الكتّاب فى جميع العصور . ونظرة واحدة إلى هذا المعرض الذى استحدثه من أناس يجيشون بالحياة ، رجالا بعامة ، ونساء بخاصة ، وكل منهم مختلف عن الآخر متفرد بشخصيته ، وجميعهم

مخلوقات منتزعة من واقع الحياة ، وذلك الحشد الحاشد من الحقائق النفسية الذى كشف عنه ، والظلال العميقة لمشاعر البشر التى يجلوها لنا جلاء لا يستطيعه إلا روائى عظيم بين روائيين عظماء – كل أولئك قد زودنا بتراث فنى يفخر به وطنه ، بل يفخر به العالم ويعتز .

أما عن أسلوبه فى تناول مادته والقالب الذى يصبها فيه فإن قدرته فى ذلك تفوق قدرة الكاتب المبدع وحسب . صحيح أن تولستوى أكثر منه قدرة على التشكيل ، كما أنه بلا شك لا يقل عن تورجنيف عمقاً وأصالة وقدرة على الخلق ، وكذلك دوستويفسكى فإنه أقوى منه عاطفة وأحرّ منه انفعالا وأعظم منه إثارة . إلا أن تورجنيف الفنان والأستاذ فى جمع التفصيلات فى كل واحد متناسق ، والمهندس البارع فى إقامة البناء من نسج الخيال – يفوق جميع كتّاب النثر فى بلاده ، وقلّ أن نجد له نظيراً بين الروائيين العظماء فى سائر البلاد . وشاهد ذلك أنه ما إن صدرت ترجمة فرنسية لقصته القصيرة « آسيا » حتى كتبت إليه الروائية الفرنسية العظيمة جورج ساند فى عز شهرتها تقول : « أيها المعلم إننا جميعا لا نملك إلا أن نسعى إليك لندرس فى مدرستك » .

والخبير بآثار تورجنيف يتبين له أنه يملك مفاتيح جميع مشاعر الإنسان وانفعالاته أجلّها وأحطّها ، النبيل منها والخسيس . وهو يرى من قمة عليائه الجميع ويفهم الجميع ، فلا الطبيعة ولا الناس لها أسرار تحتجب عن عينيه الهادئتين النفاذتين .

كان تورجنيف يحب الضياء والشمس المشرقة والشعر

الإنسانى الحى ، ويكره كل الكراهية القبح والغلظة والسوقية والنّشاز حتّى لقد أصبح شاعر الجانب اللطيف من الطبيعة الإنسانية . صحيح أنه فى الصور التّى يرسمها يكشف لنا عن الجرائم والآثام وضروب القسوة ويصور أوحال الحياة وأقذارها ، إلا أنه لا يلبث طويلا فى هذه الأجواء الكئيبة ، بل يعود مسرعاً إلى عوالم الشمس والأزهار والمناظر البهيجة والحزن الشاعرى الذى يضفيه نور القمر فى هدأة الليل وسكونه . وكان يتحاشى الغيرة والحسد والحقد الذى هو الظل الأسود للأحاسيس الإنسانية الشاعرة ، فقد كان فنانا دقيق الحس مرهف المشاعر . وما من روائى أفسح مجالا عريضاً لشعور الشباب الخالد بالحب مثلما أفسح تورجنيف ، أجل الحب فى شفافيته وصفائه حتّى ليحق لنا أن نقول إنه وصفه وصف الموكل به المكابد له العليم بمظاهره وعذاباته ومباهجه وصنوفه وألوانه . عرف الحب المستأنى المستوعب كما عرف الحب المفاجئ الذى يأخذ الغافل على غرّة منه فيزلزله زلزلة ويهز كيانه هزًّا كأنما هو المرض الملحّ لا خلاص منه ولا فكاك .

وصفوة القول أن تورجنيف كان أشعر الروائيين الواقعيين . على أنه يصدق فيه المثل المشهور لا كرامة لنبىّ فى وطنه ، فقد تنكر له قومه أول الأمر حتّى لقد فكر فى أن يعتزل الأدب ، ولكن هيهات كما قال الدكتور طه حسين ، ذلك أنه قد أدركته حرفة الأدب لا يستطيع أن يعيش إلا إذا كتب . وعلّة ذلك أن تورجنيف قد قصر رواياته على تصوير طبقة واحدة من الشعب الروسى ، ونحن لا نجد فيه تلك الصورة المترامية

الأطراف التى نجدها عند تولستوى الذى يستعرض أمام القرّاء روسيا كلها : فقد انصرف إلى الكتابة عن روسيا المتعلمة أو على المفكرين فيها الذين يعرفهم هو حق المعرفة فهو منهم وهم منه . ونحن لا نأسف لهذا فقد يقف الكيف أمام الكم أحياناً . والصفوة على قلتهم ، هم الخميرة التى تقلب العجين . ولهذا ذاع صيت تورجنيف فى الخارج أكثر من ذيوعه فى روسيا . وأخذت دائرة قرّائه تتسع يوماً بعد يوم .

فقد نشأ تورجنيف فى عصر ملىء بالكفاح السياسى والاجتماعى . وكان الناس فيه مستغرقين فى مصالحهم الخاصة ، لا يقدّرون الفن الخالص ولا يستمتعون به ، وهذا أمر مفجع بالنسبة لفنان يعيش فى عصر بعيد عن الفن . فقد كان أسمى طموحه وأنبل مساعيه يجرح أولئك القوم من مواطنيه الذين كان تورجنيف يخلص لهم أشد الإخلاص ويحبهم أصدق الحب . أجل لقد أعطى تورجنيف بلاده خير ما فى نفسه ، وخير ما انطوى عليه عقله وجاد به خياله الخلاق ، كان هو المعلم والنبىّ الذى يبشر بآراء جديدة ، والشاعر الذى يبدع والفنان الذى يصور فينطق الجماد ويشيع الحياة فى الحجر والصخر ، ولكنّ مواطنيه مجّدوا فيه المعلم وحسب ، وظلّوا أمداً طويلاً لا يدركون الصفات الأخرى .

كان الرجل فى فترة من أهم الفترات فى تاريخ بلاده القومى حامل علم روسيا الحرة المفكرة ، ومن آياته أنه جمع بين المفكر والفنان بلا تنافر ولا تعارض حتى لقد أصبحت رواياته خلاصة للحياة الفعلية فى روسيا الحديثة وأداة قوية فى تقدمها العلمى .

ورواية « رودين » هى أولى روايات تورجنيف الاجتماعية . وهى بمثابة المدخل الفنى لما سيأتى بعدها من روايات لأنها تتناول حقبة سابقة على الحقبة التى بدأت فيها الحركات الاجتماعية والسياسية .

وهذه الحقبة قد جرّ عليها النسيان أذياله . ولولا روايته (رودين) لكان من العسير أن ندرك هذه الفترة حق الإدراك ، وهى إلى ذلك جديرة بالنظر . لأننا نجد فيها جراثيم التقدم الذى حدث من بعد .

كانت حقبة كئيبة . فقد كان القيصر نيقولا الأول طاغية قد خلا قلبه من الشفقة أو الرحمة ، يجثم على صدر شعبه يبطش بكل كلمة وكل فكرة لا تتمشى مع سياسته المتعنتة الضيقة الأفق ، وكان لا يمثل روسيا التقدمية إلا عدد لا يتجاوز أصابع اليد يسبقون زمنهم بمراحل . ويحسون بأنهم يعيشون فى وطنهم معزولين لا حول لهم ولا قوة ، بعيدين عن الإحساس بحقائق الحياة حولهم ، كأنما هم غرباء بين قوم لا يمتّون إليهم بعاطفة ولا فكر . وكان لا بد لهؤلاء من متنفس تلوذ به طاقاتهم الروحية . فقد عجزوا عن مشاركة سائر مواطنيهم فى التفاهات والصغائر التى يعنون بها . فخلقوا لأنفسهم دنيا وأنشطة واهتمامات من صنعهم . وكان من الطبيعى أن تربطهم هذه العزلة بعضهم ببعض . وفى هذه الدائرة التى هى وسط بين النادى غير الرسمى والجماعة التى يتصل بينها النقاش أصبحت هى المفزع الذى يرضون فيه نوازع عقولهم ونبضات قلوبهم . صحيح أن هؤلاء الناس كانوا يلتقون ويتحدثون . وهذا هو كل ما يستطيعونه .

كان هؤلاء خير من أنجبتهم هذه الحقبة ، فقد امتلأت جوانحهم بالآمال العريضة والمعارف الواسعة ، وكان بحثهم المجرد عن الحق مطلباً نبيلا ، وكان من حقهم بلا نزاع أن ينظروا من علٍ إلى جيرانهم الذين يتمرغون فى وحل المادية الأنانية الدنيئة ، ولكن حياتهم فى ذلك الملاذ الروحى يداعبون فيه آمالهم وأحلامهم ويستغرقون فى تأملاتهم الفلسفية وتجريداتهم – أبعدتهم أكثر وأكثر عن المشاركة فى الحياة الحقيقية ، وأقصتهم إقصاءً شديداً عن الإحساس بالحياة فى وطنهم .

وكان ديمترى رودين بطل روايتنا يمثل هذا الجيل خير تمثيل ، فقد كان ضحية وبطلا لزمنه فى آنٍ ، أجل كان رجلا مارداً فى أقواله قزماً فى فعاله ، أوتى فصاحة سحبان ، ولدد المجادل الذى لا يُشقّ له غبار ، لا يقف أمام منطقه منطق ، ومع ذلك فإنه لم يكن دجّالا محتالا . كانت حماسته تعدى الآخرين لأنها حماسة صادقة لا زيف فيها ، وفصاحته مقنعة لأن إخلاصه لمُثُلِهِ كان عشقاً يأخذ عليه نفسه ويطغى على فؤاده ، ولا يحجم عن الموت فى سبيلها ولا يتزحزح عنها قيد أنمله مهما بذل له من غنم وما يمكن أن يلاقيه فى سبيلها من متاعب ومشقّات . وكان هذا العشق وتلك الحماسة نابعين من عقله فحسب . أما قلبه الذى يمكن أن ينطوى على أعمق المشاعر من حب ورحمة وشفقة ، فكان غافلا مستسلماً للنعاس . وأما الإنسانية التى كان خليقاً أن يبذل فى سبيلها آخر قطرة من دمه فكانت فى نظره طائفة من الأجانب الفرنسيين والإنكليز والألمان الذين درسهم فى الكتب أو لقيهم فى الفنادق فى

الخارج وهو طالب أو سائح .

وهذه الإنسانية المجردة العجيبة لا يمكن أن يحس المرء بحب حقيقى لها . فبرغم حماسة رودين فإنه كان فى أعماق قلبه بارداً كالثلج . أجل كانت حماسته تتوهج بلا حرارة وتتألق بلا لهيب .

ومع كل ما يؤخذ على رودين ومن هم على شاكلته من ضعف وقصور ، فإن جيله ، جيل سنة ١٨٤٠ قد أدى لبلاده خدمات جليلة ، فقد غرسوا فيها عقيدة الإيمان بالمثل ، ذلك أنه قد أتى بالبذور التى لم يبق إلا رميها فى أرض وطنهم الخصيبة حتى تؤتى ثمارها الوافرة فى المستقبل .

كان ضعف هؤلاء الناس وعمقهم يرجعان إلى أنه لم تكن لهم صلات عضوية بوطنهم ولا جذور تضرب فى التربة الروسية . كانوا لا يكادون يعرفون شيئاً عن الشعب الروسى الذى كان يبدو فى نظرهم حقيقة تاريخية مجردة وحسب . فقد كانت نزعتهم عالمية ، وكان تورجنيف صادقاً مع الحياة ومع الفن حين جعل بطل روايته يلقى مصرعه فى حاجز من الحواجز التى أقامها الفرنسيون . وقد ظل الشعب الروسى برغم حركة الإصلاح التى كانت فى الأجيال الثلاثة التى أعقبت ذلك ، يرسف فى آلاف من الحواجز والسدود التى وصفتها رواية رودين أصدق الوصف .

ولم يكن تورجنيف يعطينا بضربة واحدة من إزميله أشخاصاً قُدّت من كتلة واحدة من الحجر كما هو الأمر عند تولستوى ، وإنما كان فنه أقرب إلى فن المصوِّر أو الملحن الموسيقى منه إلى النحات . فعنده ألوان

أكثر ، ومنظور أعمق ، وطائفة متنوعة أكبر من الأضواء والظلال ، أو قل صورة أكمل وأشمل للإنسان الذى تغلب عليه الروح . وفرق فى ذلك بينه وبين تولستوى ، فالشخصيات التى أبدعها تولستوى تجيش بالحياة حتى نكاد نلمسها لمساً ونرى ملامحها ومشخصاتها ماثلة فى الناس نشاهدهم يسيرون فى الشوارع . أما شخصيات تورجنيف فإن اعترافاتهم الذاتية ورسائلهم الشخصية تكشف لنا أسرار حياتهم الروحية .

وكل مشهد من مشاهد روايات تورجنيف ، بل كل سطر فيها يكاد يفتح آفاقاً عميقة جديدة ويلقى على شخصياته ضوءاً جديداً غير منتظر ولا متوقع .

وشخصية بطل روايتنا معقدة غاية التعقيد عسيرة كل العسر ، وهى تبين لنا بأجلى بيان موهبة تورجنيف فى التغلغل فى أعماق النفس كما تكشف لنا عن تعدد جوانب هذه الموهبة . ذلك أن شخصية رودين تقوم على المتناقضات ، ولكننا لا نحس لحظة أنها بعدت عن الواقع أو اختلفت عن الحياة تكاد تلمسها لمساً .

وليست شخصية بطلة الرواية ناتاليا بأقل من ذلك ، فهى فتاة هادئة رصينة واقعية ، وإن كانت فى أعماقها متحمسة ذات طبيعة بطولية . على أنها كانت إلى ذلك « طفلة » تستجيب لجميع مؤثرات الحياة ، لم تنضج بعد النضج الكافى . ولو أنّ تورجنيف اتبع فى تصويرها الطريقة التحليلية الفاحصة لأفسد هذه المخلوقة الجميلة الرقيقة المشاعر . وإنما هو قد صوّرها تصويراً من صنعه فى سطور قليلة تنم عن أستاذيته ، فقد .

كشف لنا عن أسرار روحها . وأرانا ما هى ، وما يمكن أن تكون لو وضعت فى ظروف أخرى .

وتورجنيف أستاذ فى تصوير النساء ، وشخصية ناتاليا هى أول إلهام شعرى لحقيقة تسترعى النظر فى تاريخ روسيا الحديث . ذلك هو ظهور نساء لها من قوة العقل ما يفتقر إليه رجال هذا العصر .

أما الشخصيات الثانوية الأخرى فى رواية رودين فنجد أمامنا : لزنيف وبيجاسوف . ومدام لاسونسكايا ، وبندالفسكى ، وقد صورهم تورجنيف تصويراً دقيقاً لا نلمسه إلا فى روائع الصور المنمنمة .

وقد وفق تورجنيف فى هذه الرواية الواقعية ، فقد التزم الحقيقة والصدق والطبيعة . ولكنّهُ فى سعيه إلى الصدق الذى يصور الحياة تصويراً دقيقاً غاية الدقة لا يسمح لنفسه أن يكون مملاً ينصرف عنه القرّاء . فأوصافه لا يبهظها أبداً بالتفاصيل المتعبة . وحركته سريعة . وحوادثه لا يمكن توقعها قبل ورودها بصفحات كثيرة . وإنما هو يبقى قرّاءه فى حالة من التشوّف الدائم . وبذلك يمتاز على كثير من الكتّاب الواقعيين فى فرنسا أو إنكلترة أو أمريكا . ذلك أنه كان يرى أن الحياة ليست سمجة مملة ، بل هى مليئة بالمفاجآت ، حافلة بأسباب القلق والاضطراب .

وفكرة رواية رودين بسيطة كل البساطة حتى يكاد المرء أن يقول إنها خالية من الفكرة على الإطلاق ، ذلك أن تورجنيف كان يحتقر حيل الروائيين الذين يتعمدون الإثارة ، ويستعيض عن ذلك بسيطرته الفريدة

على قُرّائه وعواطفهم . وهو يشبه فى هذا المُوسيقى الذى يلعب بأعصاب مستمعيه وأفئدتهم دون أن يجعل للعقل دخلا فى ذلك ، أو قل إنه كان أشبه بالشاعر الذى يجمع بين قوة الكلمة وسحر الانسجام . فالمرء لا يقرأ روايات تورجنيف بل يعيشها .

إبراهيم زكى خورشيد

الفصل الأول

كان ذلك فى صباح يوم هادئ من أيام الصيف . وقد علت الشمس السماء الصافية ، إلا أن الحقول كانت لا تزال تتألق بقطرات الندى ، وتضوع من الأودية التى كانت قد نفضت عنها الكرى أو كادت ، أريج عذب منعش ، وانبعث الطير المبكر يغرد فرحاً مسروراً فى الغابات التى كانت لا تزال أيضاً ساكنة ندية ، وكنت ترى قرية صغيرة على قمة تل ينحدر انحداراً رفيقاً ، وقد غطاه من أعلاه إلى أسفله نبات الجويدار تفتق عن رأسه الزهر وشيكاً ، وسارت غادة فى طريق ضيق يؤدى إلى القرية ترتدى ثوباً من الموصلى الأبيض وقبعة مستديرة من القش وفى يدها مظلة ، وكان يتبعها غلام خادم على بعد يسير منها .

كانت تمشى الهوينى وكأنها تنعم بتنزهها ، ويحيط بها من كل جانب نبات الجويدار الطويل المتمايل ، يتثنى فى موجات لها حفيف ناعم متصل ، تتخذ حيناً اللون الأخضر الفضى ، وحيناً اللون الأحمر المتوهج ، والقنابر تغرد على علو شاهق منها . كانت قادمة من قريتها التى لم تكن تبعد عن الدسكرة التى تقصدها إلا نصف

ميل أو أكثر قليلا ، وكان اسمها ألكسندره بافلوفنا ليبينا ، وهى أرملة ثرية حرمت نعمة الولد ، تقيم مع أخيها سرجى بافلوفتش فولينتسف ، وهو صاغ متقاعد كان فى سلاح الفرسان ، وكان عزباً يدير أملاكها .

وبلغت السيدة ليبينا القرية . ووقفت عند أقرب أكواخها ، وكان كوخاً متداعياً منخفضاً أشد الانخفاض ، ونادت الغلام وأمرته أن يدخل الكوخ وأن يسأل عن صحة صاحبته ، وسرعان ما عاد الغلام وفى صحبته فلاح هرم أبيض اللحية .

وسألته ألكسندره بافلوفنا : « ما وراءك ؟ »

وغمغم الشيخ قائلا : « لا تزال على قيد الحياة »

« هل لى أن أدخل ؟ »

ولِمَ لا ؟ « لك ذلك »

ودلفت السيدة ليبينا إلى الكوخ . فألفته مكتظًّا خانقاً حافلا بالدخان . وكان ثمَّ شخص يتحرك ويئن على أريكة المدفأة . وتحولت السيدة ليبينا بنظرها إلى الأريكة فرأت فى الغبشة وجه امرأة عجوز قد علاه الشحوب والتجاعيد ، وربطت المرأة حول رأسها منديلا منقوشاً . وتدثرت حتّى صدرها بمعطف ثقيل ، وكانت تتنفس فى عسر ، وتحرك يديها النحيلتين فى ضعف ووهن .

وتقدمت السيدة ليبينا نحو السيدة العجوز ولمست جبينها ، فوجدته شديد الحرارة يكاد يلتهب . وسألتها وهى تنحنى على أريكة المدفأة ، قائلة : « كيف حالك يامتّريونا ؟ » .

وتبينت العجوز السيدة ليبينا فتوجعت قائلة : « أواه ! لقد ساءت حالتى .

ساءت جداً يا سيدتى العزيزة ! لقد دنت ساعتى الأخيرة ياحبيبتى ! » .

« إن الله رءوف بعباده يا متريونا . فقد تتحسن حالتك بالرغم مما بك . هل تناولت الدواء الذى بعثت به إليك ؟ » ، وتأوهت العجوز فى شقاء وبؤس ولم تحر جوابا . ذلك أنها لم تكن قد سمعت السؤال .

وقال الشيخ ، وكان واقفاً بالباب : « لقد تناولته » .

والتفتت إليه ألكسندره بافلوفنا وسألته : « أليس لها سواك يسهر عليها ويعنى بأمرها ؟ » .

« لها فتاة هى حفيدتها . ولكنها تقضى جل وقتها فى الخارج ولا تستطيع البقاء فى مكان واحد طويلا . إنها شديدة القلق . بل هى أكسل من أن تناول جدتها جرعة ماء . أما أنا فقد بلغت من الكبر عتياً . فأى نفع يرجى منى ؟ » .

« أو ينبغى لى أن أنقلها إلى مستشفاى ؟ » .

« كلا . ولم تنقلينها إليه ؟ إنها سوف تموت على كل حال . فقد انقضى عمرها وستحل بها مشيئة الله . ولن تبرح الأريكة أبداً . فما بالك تتحدثين عن المستشفى ؟ إنها سوف تقضى إذا حاولوا نقلها ! » .

وتوجعت العجوز قائلة : « أواه ! يا سيدتى الجميلة لا تتخلى عن اليتيمة الصغيرة التى سأتركها . إن سادتنا بعيدون جداً عن هذا المكان . أما أنت . . . »

وأخلدت العجوز إلى السكون . فقد أضناها التعب .

وقالت السيدة ليبينا : « خلى عنك القلق . فسنجيبك إلى كل ما تطلبين . وهأنذا قد أتيت ببعض الشاى والسكر . فاشربى شيئاً من الشاى إن شئت » . ثم التفتت إلى الشيخ وأردفت تقول :

« أفلا أجد عندكم وعاءً لغلى الشاى ؟ » .

« وعاء لغلى الشاى ؟ ليس لدينا شىء من هذا القبيل ، ولكننى أستطيع الحصول على وعاء »

« افعل ، وإلا أرسلت إليكم الوعاء الخاص بى ، ثم قل لحفيدتك أن تلزم الدار ، قل للفتاة إنها حرية أن تخجل من نفسها »

وتناول الشيخ بكلتا يديه الصرة التى اشتملت على الشاى والسكر ولم يجب !

وقالت السيدة ليبينا : « إلى اللقاء يا مترِيونا ! سآتى لزيارتك مرة أخرى ولا يهنْ منك العزم ، وتناولى دواءك بانتظام »

ورفعت العجوز رأسها وجاهدت لتدنو من المحسنة إليها ، وقالت بعد لأى : « هاتى يدك يا سيدتى »

ولم تفعل السيدة ليبينا ذلك الذى طلبته منها العجوز ، بل انحنت عليها وقبلتها فى جبينها .

وقالت السيدة للشيخ وهى تبارح الكوخ : « ألا فلتعن بإعطائها الدواء بانتظام كما هو موصوف ، وأعطها شيئا من الشاى تشربه »

ولم يحر الشيخ جواباً مرة أخرى ، واكتفى بأن حنى قامته .

ولم تسترد السيدة ليبينا أنفاسها إلا بعد أن خرجت إلى الهواء الطلق ، ثم فتحت مظلتها ، وكانت على وشك أن ترتد راجعة إلى منزلها عندما لاح لها فجأة ، حول منعطف الكوخ ، رجل فى نحو الثلاثين من عمره يسوق عربة سباق منخفضة ، ويرتدى سترة رمادية قديمة فى لون التراب ، وقبعة مستدقة الطرف . وما إن لمح الغادة حتى أوقف جواده فى الحال والتفت إليها ، وكان وجهه العريض الشاحب

ذو العينين الصغيرتين الرماديتين الفاتحتين والشارب السنجابي ، يلائم لون ملابسه .

وقال فى ابتسامة تنطوى على التهكم : « طاب صباحك ! هلى لى أن أسألك ماذا تفعلين هنا ؟ »

« كنت أزور مريضة ، ومن أين أتيت يا ميخائيل ميخائيلوفتش ؟

وحدق الرجل الذى وجهت إليه هذا القول النظر فيها ، وافتر ثغره عن ابتسامة أخرى .

ومضى يقول : « إنك تحسنين صنعاً بزيارة المريضة ، ولكن أليس من الأفضل أن تنقليها إلى مستشفاك ؟ »

« إنها غاية فى الضعف والوهن ولا يمكن نقلها » .

« وهل فى نيتك أن تتخلى عن المستشفى ؟ »

« أتخلى عنه ؟ ولِمَ ؟ »

« ولِمَ لا تتخلين عنه ؟ »

« يا للفكرة العجيبة ، ما الذى أوحى بها إليك ؟ »

« إنك لعلى علاقة وثيقة جداً بالسيدة لاسونسكايا ، ويبدو أنك واقعة تحت سلطانها ، وهى ترى أن المستشفيات والمدارس ليست إلا أوهاماً لا طائل تحتها ولا غناء فيها ، وأن الإحسان يجب أن يكون من خاصة الأمور ولا يتعدى ذلك أبداً ، وهكذا يجب أن يكون شأن التعليم ، من أجل خلاص روح الإنسان . هذه هى فيما أعتقد أقوالها ، ترى من أين تلتقط هذه الأفكار ؟ »

وضحكت السيدة ليبينا ثم قالت : « إن داريا ميخائيلوفنا امرأة ذكية وأنا أحبها أخلص الحب ، وأعجب بها غاية الإعجاب ، ولكنها هى أيضاً ليست منزهة عن

الخطأ ، وأنا لا أصدق كل كلمة تقولها ! »

وأجاب الرجل ، وكان لا يزال جالساً فى عربته : « وهذا ما ينبغى لك ، ذلك أنها هى نفسها لا تؤمن كل الإيمان بما تقول ، على أنه قد سرنى كثيراً أن ألقاك »

« لماذا ؟ »

« سؤال طريف ! وكأنما لقياك لا تكون دائما باعثة على السرور والانشراح ! إنك اليوم كالصبح نضرة وبهاء »

وعادت الغادة إلى الضحك .

« علام تضحكين ؟ »

« لا حيلة لى فى ذلك ! يا لها من لهجة باردة خالية من الحرارة تصطنعها لإطرائى ! وإنى لأعجب لأنك لم تتثاءب وأنت تنطق بالكلمة الأخيرة »

« باردة حقا ، إنك تريدين اللهيب ، ولكن ما جدواه ؟ إنه يتأجج ويلفظ الدخان ثم يخمد وهو يئز أزيزاً »

وأتمت له الغادة عبارته بقولها : « وهو يبعث الدفء »

« أجل . . . . ثم هو يحرق »

« وماذا لو أحرق ؟ ليس فى ذلك ضرر كبير ، بل إنه لأفضل على أية حال من . . . »

فقاطعها ميخائيل ميخائيلوفتش فى انفعال : « بودى أن أسمع ما تقولين عندما يحرقك اللهيب » ، ثم لطم الجواد بالعنان ، وقال لها : « إلى اللقاء ! »

وصاحت الغادة : « انتظر لحظة ! متى تأتى لزيارتنا ؟ »

« غداً ، وبلغى أخاك تحياتى »

ومضت العربة

وتابعت السيدة الرجل بعينيها . ثم حدثت نفسها قائلة : « ياله من « تليس » ! »

وكان منظره بظهره المحْدَوْدِب وجسمه الذى علاه الغبار وقبعته المنزلقة على مؤخر رأسه وخصلات شعره الأصفر المضطربة التى انتفشت من تحت القبعة يحاكى حقاً « التليس » وقد امتلأ بالدقيق .

وسارت السيدة ليبينا صوب المنزل فى خُطًى بطيئة وقد أرخت بصرها إلى الأرض . وطرق أذنيها وقع حوافر جواد فتوقفت ورفعت بصرها . فإذا بأخيها مقبل نحوها يمتطى صهوة جواد . ويسير بجانبه شاب قصير القامة . فى سترة للسهرة مفكوكة الأزرار زاهية اللون ، وربطة للعنق زاهية أيضاً ، وقد لبس قبعة ضاربة إلى اللون الرمادى وأمسك عصا تعينه على المسير . وراح يبتسم للغادة حيناً بالرغم من أنه رآها مستغرقة فى أفكارها ، ولا تعى شيئاً مما حولها . وما إن توقفت حتى هرع إليها وقال لها فى صوت تشيع فيه البهجة والسرور ويغلب عليه الحنان : « طاب صباحك يا ألكسندره بافلوفنا ! طاب صباحك ! »

فأجابت بقولها : « آه ! قسطنطين ديوميدوفيتش ! طاب صباحك ! أو قادم أنت من عند داريا ميخائيلوفنا ؟ »

فهتف الشاب وقد أشرق وجهه : « صدقت وايم الله يا سيدتى ، صدقت ! لقد أرسلتنى داريا ميخائيلوفنا إليك يا سيدتى ، وقد فضلت السير على الأقدام . فالصباح غاية فى الجمال . والمرحلة كلها لا تتعدى أربعة فيرسات[1] فحسب !

---

(١) الفيرست مقياس روسى = ١٫٠٦٧ من الكيلومتر.

ذهبت إلى دارك يا سيدتى ولكنك كنت فى الخارج ، وأبلغنى أخوك أنك مضيت إلى الدسكرة ، إلى سميونوفكا ، وكان هو نفسه على وشك الخروج إلى الحقول ، فصحبته حتى ألقاك ، أجل هذا هو الحق الصراح ! لشد ما يبعث هذا على السرور والانشراح ! »

وكان الشاب يتحدث بلغة روسية جيدة صحيحة ، وإن كانت تشوبها لكنة أجنبية . على أنه كان من العسير أن يعرف المرء على وجه اليقين كنه هذه اللكنة . وكانت تبدو على ملامحه مسحة آسيوية : فأنفه الأقنى الطويل ، وعيناه الجاحظتان الكبيرتان الجامدتان ، وشفتاه الحمراوان الغليظتان ، وجبهته المائلة ، وشعره الأسود اللامع ، وكل ما فيه كان ينطق بأنه من أرومة شرقية .

غير أن الشاب كان يطلق على نفسه اسم بندالفسكى ، ويزعم أنه ولد فى أوديسا ، بالرغم من أنه نشأ فى مكان ما من روسيا البيضاء على نفقة أرملة ثرية محسنة . وحصلت له أرملة أخرى على وظيفة فى خدمة الحكومة ، وقد جرت السيدات المتوسطات العمر على أن يشملن برعايتهن عن طيب خاطر قسطنطين ديوميدوفيتش بندالفسكى ، ذلك أنه كان يعلم كيف يجدهن وكيف يرقق قلوبهن ، وقد كان يقيم آنئذ فى منزل سيدة موسرة من ملاك الأرض تدعى السيدة لاسونسكايا . كان كَلاً عليها ، أو كان بالأحرى طفيليًّا يعيش على كرمها . وكان بندالفسكى ودوداً غاية الود ، كريماً من أصحاب الفضل ، رقيقاً جياش العاطفة ، ثم إنه كان فى السر شهوانيًّا منغمساً فى اللذات ، وكان له صوت شجى ، يعزف على البيان عزفاً لا بأس به ، وقد ألف أن يحدق بنظرات ثابتة فى عينى كل من يخاطبه ، وكان أنيقاً غاية الأناقة ، يبقى عليه ملابسه مدة طويلة جدًّا ، ويحلق ذقنه

العريض بعناية بالغة ، ويسوى كل شعرة من شعر رأسه .

وأنصتت إليه السيدة ليبينا حتى فرغ من حديثه ، ثم التفتت إلى أخيها وقالت : « ياله من يوم ، لقاء يأتى فى إثر لقاء ! لقد فرغت وشيكاً من حديث مع ليزنيف »

« آه ! ليزنيف ! أكان يسوق عربة فى هذه النواحى ؟ »

« أجل ، تصور . . . . إنه كان يسوق عربة سباق ، ويرتدى نوعا من الكتان الذى تصنع منه الأكياس ، وقد غطاه الغبار من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، يا له من رجل عجيب ! »

« أجل ، ربما كان كذلك ، ولكنه شاب ظريف » .

وسأل بندالفسكى فى لهجة تشوبها الريبة : « من ؟ السيد ليزنيف ؟ »

فتدخل فولينتسف فى الحديث قائلا : « أجل ، ميخائيل ميخائيلوفيتش ليزنيف ، والآن إلى اللقاء يا أختاه ، لقد حان موعد ذهابى إلى حقولك ، فقد بدءوا يبذرون حب الحنطة السوداء فيها ، وسيصحبك السيد بندالفسكى إلى المنزل » . وما إن أتم فولينتسف كلامه حتى سار بجواده خببا .

وصاح بندالسفكى قائلا : « بكل سرور » ، وقدم ذراعه إلى الغادة .

وشبكت ذراعها فى ذراعه ، وسارا فى الطريق المؤدى إلى ضيعتها .

* * *

وكان من الجلى أن سير بندالفسكى والسيدة ليبينا متعلقة بذراعه قد أفعم قلبه بالسرور ، وكان يخطو خطوات قصيرة مشرق الوجه ، بل إن عينيه اللتين كانت تتجلى فيهما سمة أهل الشرق قد تندتا بالدمع ، ولا بأس من القول بأن ذلك لم يكن شيئا لا ينتظر منه ، فقد كان من اليسير أن تثار دموعه ، ولا عليه ، فمن ذا الذى

لا يبهج قلبه أن يسير مع سيدة شابة فاتنة رشيقة وذراعها فى ذراعه ؟

لقد أجمع أهل ناحية « . . . آيا » كلهم على القول بأن السيدة ليبينا امرأة فاتنة . ولم يكونوا فى ذلك مخطئين ؛ فقد كان أنفها وحده . أنفها الصغير الأشم الجميل . خليقاً بأن يخرج أى إنسان عن طوره ؛ ناهيك بعينيها الناعستين العسليتين . وشعرها الذهبى الأشقر الداكن . وخديها المستديرين تزينهما نونتان . ثم مفاتنها الأخرى . ولكن خير هذه المفاتن جميعاً كان سيماء وجهها الجميل . وجه يوحى بالثقة والاطمئنان . لطيف . رقيق يؤثر فى النفوس ويجتذب القلوب . كانت تضحك فتبدو كالطفل . حتى لقد ظنت سيدات الناحية أن فيها شيئاً من البراءة والسذاجة . فأى شيء يمكن أن يتمناه المرء أكثر من ذلك ؟

وسألت السيدة – بندالفسكى : « تقول إن داريا ميخائيلوفنا قد بعثت بك إلى ؟ »

فقال وفى نطقه لثغة . إذ كان ينطق السين « ثاء » : « أجل . لقد بعثت بى إليك السيدة لاسونسكايا . إن السيدة لاسونسكايا تود من صميم قلبها أن تتناولى غداءك معها اليوم وترجو منك الحضور » . وكان بندالفسكى حريصاً أشد الحرص على ألا يستعمل أى نوع من الخطاب ترفع فيه الكلفة وخاصة إذا كان يشير فى حديثه إلى سيدة . ومضى يقول : « إن السيدة لاسونسكايا تنتظر ضيفاً جديداً تود مخلصة أن تلقيه » .

« ومن يكون ؟ »

« إنه البارون موفل من سانت بطرسبرج . وهو سيد من القائمين على مخدع جلالة القيصر . وقد تعرفت به السيدة لاسونسكايا حديثاً فى قصر الأمير جارين .

وهى تقدره أعظم التقدير فتقول إنه شاب رقيق الحاشية مهذب ، ثم إن سيدى البارون يهتم بالأدب بل . . . آه ! يا للفراشة الجميلة ! هلا تنظرين إليها . . . بل بالاقتصاد السياسى ، ولقد كتب بحثاً فى موضوع غاية فى العجب ويريد من سيدتى أن تدلى برأيها فيه » .

« بحث فى الاقتصاد السياسى ؟ »

« من حيث الأسلوب يا سيدتى – الأسلوب ، فإنك تعلمين بلا شك أن السيدة لاسونسكايا ، على ما تتصف به من مواهب أخرى حجة فى هذا الباب ، وقد ألف زوكوفسكى الشاعر أن يلتمس عندها الرأى ، وكذلك يفعل ذلك الذى كان يشملنى فيما مضى برعايته وإحسانه ، روكسولان مدياروفتش كساندريكا ، وهو رجل ولا كالرجال ، يقيم فى أوديسا – ولا شك أنك سمعت بهذا الاسم ! »

« كلا البتة فإنى لم أسمع به قط »

« ألم تسمعى قط باسم هذا السيد الموقر ؟ عجباً ! لقد كنت على وشك أن أقول إن السيد كساندريكا يؤمن أيضاً إيماناً عظيماً بامتلاك السيدة لاسونسكايا ناصية اللغة الروسية » .

« هل البارون متحذلق ؟ »

« كلا البتة ، بل إن السيدة لاسونسكايا تقول : إنه على خلاف ذلك ، فإن المرء ليدرك لأول وهلة أنه رجل خبر العالم ، وقد تحدث عن بيتهوفن بفصاحة خلبت لب الأمير العجوز نفسه ، ولا أنكر أننى كنت أود أن أسمع ذلك الحديث لأنه يتمشى مع هوايتى . أفلا تسمحين لى بأن أقدم إليك هذه الزهرة البرية الجميلة ؟ »

وتناولت الزهرة منه ، وتركتها تسقط فى الممشى بعد أن سارت بضع خطوات ، ولم يبق على بلوغ منزلها إلا مسيرة مائتى قدم ، وكان قد شيد منذ عهد قريب وبيض بالكلس ، وراح يخايل الناظرين بنوافذه العريضة المشرقة ويشوقهم إليه من خلال الأوراق الكثيفة لأشجار الزيزفون والإسفندان العتيقة .

وقال بندالفسكى ، وقد حزّ فى نفسه ما لاقته زهرته من مصير : « ماذا عساى أن أقول إذن للسيدة لاسونسكايا ؟ أو تتناولين الغداء معها ؟ إن السيدة لاسونسكايا تدعو أخاك أيضاً يا سيدتى » .

« أجل . سنذهب إليها بلا تقصير ، كيف حال ناتاليا ألكسييفنا ؟ »

« إن الآنسة بخير والحمد لله ، ولكننا قد تجاوزنا المنعطف الذى يؤدى إلى ضيعة السيدة لاسونسكايا ، أفلا تأذنين لى يا سيدتى بالمضى إليها ؟ »

ووقفت السيدة ليبينا ، وسألته فى تردد : « هل تتفضل بالدخول ؟ »

« لا شىء يسرنى أكثر من هذا ، ولكننى أخشى أن أتأخر ، فإن السيدة تريد أن تسمع تمريناً موسيقيًّا جديداً من وضع ثالبرج ، ولابد لى من التدرُّب عليه والاستعداد لعزفه ، وخليق بى أن أعترف بأننى أشك بأنك ستجدين متعة فى صحبتى »

« آه . كلا ! ما الذى يدعوك إلى هذا الشك . . . ؟ »

وتنهد بندالفسكى . وخفض بصره فى نظرة تغنى عن البيان .

ثم قال بعد لحظة من الصمت : « طاب صباحك يا سيدتى ! » . وانحنى وتراجع خطوة . ودارت ألكسندره بافلوفنا على عقبيها وسارت إلى منزلها .

وكذلك سار بندالفسكى إلى بيته . وسقط عن وجهه قناع الرقة الذى ألف

ن يصطنعه . وأصبح وجهه الآن يحمل أمارات الثقة بالنفس . وكاد يغلب عليه التجهم والعبوس . بل إن مشيته نفسها تغيرت . فقد طالت خطوته وثقلت وطأة أقدامه . وما إن قطع نحو فيرستين . وهو يلوح بعصاه ويديرها فى خفة حتى عادت شفتاه فانفرجتا بغتة عن ابتسامة . ذلك أنه رمق بجانب الطريق فلاحة صغيرة على شيء من الملاحة تسوق عجولها من حقل للشوفان كانت فيه . واقترب من الفتاة فى مثل حرص القط وحذره . وأخذ يتحدث إليها . والتزمت الفتاة الصمت أول الأمر . واحمرّ وجهها خجلا . وضحكت ضحكة مكبوتة . ثم غطت فمها بكمها وانصرفت عنه قائلة : « اذهب يا سيدى . اذهب . . . »

وهز بندالفسكى إصبعه مومئا إليها . وطلب منها أن تأتيه ببعض زهور الترنشان[1] . وقالت الفتاة فى احتشام : « فيم تريدها ؟ أو تصنع منها أكاليل ؟ اذهب . اذهب ! »

وأخذ بندالفسكى يلاطفها قائلا : « انظرى يا فتاتى الحسناء . . . »

وقاطعته الفتاة قائلة : « اغرب عنى . إن السيدين الصغيرين مقبلان علينا » .

والتفت بندالفسكى خلفه . فرأى حقاً « فانيا » و« بتيا » ولدى لاسونسكايا يعدوان نحوه . وقد سار خلفهما مؤدبهما باسيستوف . وهو شاب فى الثانية والعشرين تخرج لتوه من الجامعة . وكان باسيستوف شابًّا طويل القامة . قبيح الوجه . كبير الأنف . غليظ الشفتين . له عينان كعينى الخنزير . كان عاطلا من الحسن سَمِجاً . إلا أنه كان رءوفاً مستقيماً . أميناً . ولم يك يعنى بهندامه أو يقص شعره . ولا يفعل

---

(١) زهور مركبة تنمو فى حقول القمح .

ذلك عن تخذلق ولكن عن كسل . وكان يحب الأكلة الطيبة والنومة الطيبة . وإن كان يحب أيضاً الكتاب القيم والنقاش الحاد . ويكره بندالفسكى من كل قلبه .

وكان ولدا لاسونسكايا يوقران باسيستوف ولا يخشيانه قط . وكان الرجل على علاقة وثيقة ببقية أهل المنزل . ولم يكن هذا يرضى سيدته كل الرضا . بالرغم من كل ما كانت تحتج به من أنها بريئة من التحيز والهوى .

وهتف بندالفسكى : « طاب صباحكما ياولدىّ العزيزين . لكم بكرتما فى نزهتكما اليوم ! » . ثم أضاف موجهاً الخطاب إلى باسيستوف : « أما أنا فقد خرجت منذ وقت طويل . ذلك أننى مولع بأن أنعم بالطبيعة »

فغمغم باسيستوف قائلا : « لقد رأينا كيف تنعم بالطبيعة ! »

« إنك لمادىّ ! والله يعلم ما الذى يدور فى خلدك ! إننى أعرفك . »

وعندما كان بندالفسكى يخاطب قوماً من أمثال باسيستوف فإنه كان حريًّا بأن تهيج مشاعره فينطق حرف السين بوضوح فى شىء من الصفير .

وقال باسيستوف : « إنى لأظن أنك كنت تسأل تلك الفتاة عن الطريق »

وأخذت نظراته تتحول يميناً ويساراً . وقد أزعجه الشعور بأن بندالفسكى يتفرس فى وجهه من غير مواربة :

« فلأكرر عليك القول بأنك مادى ولا شىء غير هذا . إنك ترفض أن ترى من الأمور إلا جانبها العادى المألوف . . . »

وأصدر باسيستوف أمره فجأة قائلا : « يا ولدى » ! أتريان تلك الصفصافة التى فى المرج هناك ؟ من منكما يستطيع أن يصل إليها قبل أخيه ؟ واحد – اثنان - ثلاثة ! »

واندفع الولدان إلى شجرة الصفصاف بأسرع ما تستطيع سيقانهما حملهما . وعدا باسيستوف خلفهما .

وحدث بندالفسكي نفسه قائلا : « فلاّح » ! إنه سيفسد ذينك الطفلين . إنه فلاح ولا شيء غير هذا ! .

ونظر بندالفسكي في غرور إلى حسن بزته ورشاقته . ثم نفض الغبار عن كم سترته بأصابع مبسوطة . وعدَل بَنيقتَهْ واستأنف سيره . فلما بلغ غرفته ارتدى جلباباً حسن الهندام وجلس إلى البيان متخذاً هيئة من اعتزم أمراً .



الفصل الثانى

كان بيت داريا ميخائيلوفنا لاسونسكايا يعد من أحسن بيوت ناحية « . . . آيا » . كان منزلا ضخماً شيد بالحجارة ، ونقلت عمارته عن رسوم صنعها راسترلى على الطراز الذى كان سائدا فى القرن الثامن عشر ، وشمخ بأنفه على قمة تل يجرى فى سفحه نهر من أهم أنهار روسيا الوسطى . وكانت لاسونسكايا نفسها سيدة نبيلة موسرة ، وأرملة مستشار فى مجلس شورى القيصر ، وكان بندالفسكى يزعم أنها تعرف أوربا كلها ، وأن أوربا بأسرها تعرفها ، إلا أنها كانت فى الحق لا يكاد يعرفها أحد فى أوربا ، ولم يكن لها شأن فى سانت بطرسبرج ، بيد أن أهل موسكو جميعاً كانوا يعرفونها ويؤمون الاجتماعات التى كانت تعقدها . كانت من علية القوم ، وقد ذاع أن فيها شيئاً من غرابة الأطوار ، ولم تعرف بشدة الجود ، إلا أنها كانت امرأة بارعة جداً ، وكانت فى شبابها بديعة الحسن حتى لقد نظم الشعراء القصائد فى مديحها ، وجن الشباب غراماً بها ، وغازلها مشاهير القوم ، ولكن مضى على ذلك خمس وعشرون سنة أو ثلاثون لم تبق على شىء من مفاتنها الماضية . ولا يمتلك

كل من يراها اليوم للمرة الأولى إلا أن يسائل نفسه : « أحق أن هذه المرأة التى لم تطعن بعد فى السن – وإن بدت شاحبة متغضنة حادة الأنف – كانت يوماً غانية حسناء ؟ أحق أنها هى بعينها التى كانت تتغنى بها القيثارة . . . ؟ » ، وأخذ الناس جميعاً يعجبون بينهم وبين أنفسهم من تعرض كل شىء فى هذه الدنيا للتغير . صحيح أن بندالفسكى قد وجد أن عينى السيدة لاسونسكايا لم تفقدا شيئاً من بهائهما . ولكن بندالفسكى نفسه هو الذى قال إن أوربا كلها تعرفها !

وكانت السيدة لاسونسكايا تذهب كل صيف إلى منزلها الريفى وفى صحبتها أولادها (كان لها ثلاثة أولاد : ابنة تدعى ناتاليا فى السابعة عشرة من عمرها . وابنان أحدهما فى التاسعة والآخر فى العاشرة) . وتفتح أبواب منزلها للزائرين هنالك ، أى تستقبل فيه السادة ، وخاصة العزاب منهم . فقد كانت لا تطيق السيدات الريفيات . وكان يطيب لهن أن يقابلن ذلك منها بمثله ! فقد كانت لاسونسكايا فى قولهن متكبرة ، خليعة طاغية شنيعة . وكانت فوق ذلك كله تبيح لنفسها أن تتبذل فى الحديث تبذلا ! ويا لألفاظها التى تتقزز منها النفس !

صحيح أن لاسونسكايا لم تكن تأبه بالقيود التى تفرضها حياة الريف . وكان المرء يشعر أن فى سلوكها الذى يتميز بالبساطة والانطلاق ظلا خفيفاً من الاحتقار تنطوى عليه جوانح تلك اللبؤة الحضرية لمن حولها من المخلوقات الجاهلة التافهة . وكانت تعامل أيضا معارفها من أهل الحضر فى ألفة غير لائقة ، بل ساخرة ، ولكنها خالية من ذلك الظل من الاحتقار .

فهل اتفق لك أيها القارئ أن لاحظت أن من يرفع الكلفة مع مرءوسيه لا تكون هذه حاله البتة مع رؤسائه ؟ فما السبب فى ذلك ؟ ولكن . . . هذه

الأسئلة لا تؤدى إلى شيء .

وحفظ بندالفسكى آخر الأمر تمرين ثالبرج عن ظهر قلب . فهبط من غرفته النظيفة المشرقة إلى غرفة الاستقبال فألفى المدعوين قد اكتمل عقدهم . وأن الاستقبال قد بدأ فعلا . وكانت ربة الدار مستلقية على أريكة عريضة وقد طوت قدميها من تحتها . وأخذت تتصفح فى تكاسل نشرة فرنسية جديدة . وكانت ناتاليا لاسونسكايا . والآنسة بونكور المربية تجلسان بجوار النافذة وكل منهما على جانب من إطار منسج التطريز . وكانت هذه المربية سيدة عذراء فى الستين من عمرها علتها الغضون والتجاعيد . ووضعت على رأسها شعراً مستعاراً أسود مهوشاً تحت قبعة مزخرفة ملونة . وحشت أذنيها بالقطن . أما باسيستوف فكان يجلس فى ركن الغرفة قرب الباب يقرأ إحدى الصحف . وقد جلس إلى جواره بتيا وفانيا يلعبان الداما . ووقف سيد أميل إلى القصر مستنداً على مدفأة ويداه مشبكتان خلف ظهره . كان شعره أشيب أشعث ووجهه أسمر وعيناه سوداوين صغيرتين حائرتين . وهذا السيد هو أفريكان سميوفيتش بيجاسوف .

وكان بيجاسوف سيداً غريب الأطوار . يحمل ضغينة لكل شيء ولكل إنسان . وخاصة النساء . ويتأفف من الصباح إلى المساء . فيبدو فى تأففه مصيباً كل الصواب حيناً . سخيفا بعض السخف حيناً . إلا أنه كان يتسم بالحماسة دائماً . وكان نزقه أقرب إلى الحمق . وضحكه ولهجته . بل كيانه كله . يبدو غارقاً فى لجة من الغضب . وكانت لاسونسكايا تستقبل بيجاسوف عن رضا وإقبال . ذلك أنها كانت تجد فى نزواته تسلية لها . فقد كانت فى الحق أدنى إلى الهزل . وكان هو مولعا بالمبالغة إلى حد الإسراف : مثال ذلك أنه كان إذا بلغ مسامعه خبر بلية مهما كان

شأنها . سواء أكانت قرية احترقت بفعل صاعقة . أم سد طاحونة تصدع بفعل المياه . أم فلاحا قطع يده . عمد دائماً إلى السؤال فى لهجة تنم عن عناد لا يلين : « ومن تكون ؟ » . أى من تكون المرأة التى كانت السبب فى البلية . ذلك أنه يؤكد أن وراء كل بلية امرأة لا تظهر إلا إذا أنعمت النظر فى الأمر إنعاماً .

وقد جثا على ركبتيه يوماً أمام سيدة غريبة عنه تماماً أو تكاد . إذ كانت تلح عليه أن يتناول شيئاً من المرطبات . وراح يتوسل إليها . والدمع يترقرق فى عينيه والغضب مرتسم على وجهه . أن تعفيه من تناول شىء منها مؤكداً أنه لن يدخل منزلها من بعد . وقد جفل جواد مرة على سفح تل . وكانت تعتلى صهوته فتاة من الفتيات اللاتى كنّ يقمن بغسل الملابس للسيدة لاسونسكايا وألقى بها فى حفرة حتى أوشكت أن تهلك . ومن يومها وبيجاسوف لا يتحدث عن هذا الحيوان إلا بقوله : « ذلك الجواد الصغير البديع » . بل إن الأمر انتهى به إلى النظر إلى التل والحفرة كأنهما من أعظم البقاع فتنة وسحراً ! .

ولم يكن بيجاسوف قد وفق فى حياته . ومن هنا أدركته هذه اللوثة . فقد انحدر من أسرة فقيرة . وتقلد أبوه عدة مناصب تافهة الشأن . ولم يكن « يفك الخط » إلا بمشقة ، كما أنه لم يعن إلا عناية قليلة بتعليم ابنه . وحسبه أنه كان يطعمه ويكسوه . وقد دللته أمه ، ولكنها ماتت فى سن مبكرة ، فأخذ بيجاسوف يتولى أمره بنفسه . فالتحق بمدرسة الناحية من تلقاء ذاته ، ثم دخل المدرسة الثانوية واكتسب معرفة باللغتين الفرنسية والألمانية بل اللاتينية ، وتخرج من المدرسة الثانوية بعد أن نجح نجاحاً باهراً ، ثم التحق بجامعة دوربات حيث ظل يكافح الفقر كفاحاً متصلا . إلا أنه أفلح فى اجتياز منهج السنوات الثلاث ، ولم تكن مواهب

بيجاسوف لترتفع به فوق أوساط الناس . صحيح أن صبره ومثابرته كانا عجيبين ، إلا أن أقوى شيء كان يحفزه هو الطموح ، وشوقه إلى الدخول فى زمرة المجتمع الراق فلا يتخلف عن الآخرين مهما كان من سوء حظه . وكان الطموح هو الذى حمله على أن يجد فى التحصيل ودفعه إلى الالتحاق بجامعة دوربات ، وكان الفقر هو الذى أثار حميته وأذكى ملكتى الملاحظة والدهاء فيه . كان حديثه فريداً فى بابه . فقد اصطنع فى باكورة حياته أسلوباً خاصًّا فى الفصاحة فيه شيء من المشاكسة وشيء من الصغار ، ولم تكن أفكاره تسمو على مألوف الناس . إلا أنه كان فى مقدوره أن يصبغها بصبغة تجعله يبدو متوقد الذهن حاد الذكاء . .

وعزم بيجاسوف بعد أن نال إجازة « البكالوريوس » على أن يتخذ التعليم مهنة له . فقد أدرك أن لا أمل له فى اللحاق بزملائه فى أية صناعة أخرى (كان يحاول أن يختار هؤلاء من أرقى الأوساط . وكان يعرف كيف يسوسهم . فلا يتورع عن أن ينزل إلى حد الملق والمداهنة ، وإن ظل على سنته مشاغباً شكساً) ، إلا أن تلك المهنة كانت – إذا شئنا الصراحة – تتطلب رجلا من معدن أصلب من معدنه . أما بيجاسوف فقد علم نفسه بنفسه ، ولم يكن يحدوه إلى ذلك حب العلم ، ومن ثم كان علمه فى الحق قليلاً جدًّا . وقد فشل فشلا ذريعاً فى المناظرة ، فى حين أن شريكه فى غرفة النوم بالجامعة الذى كان بيجاسوف يسخر منه على الدوام نجح فيها نجاحاً باهراً . وكان شريكه هذا صغير العقل جدًّا ، ولكنه كان قد نشأ نشأة سليمة كل السلامة ، قويمة إلى أقصى حد ، وقد أخرج هذا الفشل بيجاسوف عن وعيه ، فألقى بمكتبه ومذكراته جميعاً إلى النار والتحق بخدمة الحكومة .

وبدا مستقبله فى أول الأمر باسماً مشرقاً ، فقد كان موظفا بالفطرة ، وكان

النقص فى كفايته يعوضه تعويضاً مجزياً بالجرأة والغرور . إلا أن تعجّله التقدم فى هذه الحياة قد أوقعه فى المتاعب . فخطا خطوة طائشة ألجأته إلى التقاعد . وأقام ثلاث سنوات فى قرية صغيرة كان قد اشتراها ثم تزوج فجأة سيدة ريفية موسرة نصف متعلمة كان قد استهواها بأسلوبه الذى ينطوى على السخرية وعدم الاكتراث . إلا أنه كان قد أصبح فظًّا نكداً قد نال منه ما نزل به من ظلم وإجحاف . وملّ حياته الزوجية وسئمها . وهربت زوجته إلى موسكو بعد أن أقامت معه بضع سنوات . وباعت هناك ضيعتها إلى مستثمر حاذق . وكان بيجاسوف قد شيد لتوه بيتاً فى هذه الضيعة . وهدت هذه الضربة الأخيرة كيانه . فشرع يقيم دعوى على زوجته ولكنه خسرها . وعاش من بعد وحيداً . وكثيراً ما كان يزور جيرانه . ولكنه كان يذمهم من وراء ظهورهم بل فى مواجهتهم . وكانوا يستقبلونه بشىء من الضحك المكتوم . ولو أنهم كانوا فى واقع الأمر لا يخافونه . ولم يعد إلى حمل كتاب قط . وكان يملك نحو مائة عبد من رقيق الأرض يعيشون عيشة لا بأس بها .

وما إن دخل بندالفسكى غرفة الاستقبال حتى هتفت السيدة لاسونسكايا قائلة : « آه ! قسطنطين ! هل ستأتى ألكسندرين ؟ »

فأجاب بندالفسكى : « طلبت منى السيدة ليبينا أن أعرب لك عن شكرها ، وقالت : إنه يسرها أن تلبى دعوتك » . وشرع ينحنى برقة ولطف ذات اليمين وذات اليسار ، وهو يمرّ مرًّا خفيفاً على شعره الممشط أحسن تمشيط بيده الغليظة الصغيرة البيضاء التى قلم أظفارها على هيئة المثلثات تقريباً .

« وهل سيأتى فوليتسف أيضا ؟ »

« أجل . والسيد فولينتسف »

وقالت السيدة لاسونسكايا وهى تلتفت إلى بيجاسوف : « إذن فأنت تؤكد أن السيدات الصغيرات السن متكلفات متصنعات ! »

وزم بيجاسوف شفتيه ولواهما جانباً . واختلج مرفقه فى عصبية .

وأنشأ يقول فى تأن : « أقول » (وكان يتكلم فى بطء ووضوح حتى فى أشد ثورات غضبه) . « أقول : إن السيدات الصغيرات بوجه عام . وأستثنى منهن الحاضرات . . . »

فقاطعته السيدة لاسونسكايا قائلة : « وهذا لا يمنعك من أن تشملهن أيضاً بحكمك »

فكرر بيجاسوف قوله : « إن الحاضرات مستثنيات دائماً . إن كل السيدات الصغيرات عامة متكلفات أشد التكلف . متكلفات فى الإعراب عن انفعالاتهن . فإذا روعت سيدة شابة مثلا أو حل بها السرور أو كربها شيء . اتخذت وضعاً رشيقاً – هكذا » ولوى بيجاسوف جسمه على أقبح صورة وأشدها نكراً وبسط يديه . ومضى يقول : « وعند ذلك فقط تصرخ قائلة : آه ! أو تقهقه . أو تنفجر باكية . على أننى استطعت مرة » وابتسم بيجاسوف مختالا ومضى يقول : « أن أخرج بتعبير صحيح صادق لعاطفة صدرت من سيدة شابة متصنعة أشد التصنع » .

« وكيف كان هذا ؟ »

وتألقت عينا بيجاسوف وقال : « لطمتها على جنبها من الخلف بوتد من الحور اللدن . فصرخت . وأردفت أنا قائلا : مرحى . مرحى ! . وقد كان ذلك صوت الطبيعة . بل كان صرخة طبيعية . وهذا هو ما فعلته ! »

وضحك كل من فى الغرفة .

وهتفت السيدة لاسونسكايا : « ياللهراء الذى تتشدق به يا أفريكان سيميونوفيتش ! أو تريد أن أصدق أنك ضربت فتاة على جنبها بوتد ؟ »

« أقسم أننى ضربتها بوتد ، وتد ضخم ، كتلك الأوتاد التى يستخدمونها فى الدفاع عن الحصون » .

وانفجرت الآنسة بونكور قائلة وهى تنظر فى تجهم وعبوس إلى الأطفال وكانوا قد استغرقوا فى الضحك : « ولكن ما تقوله فظيع يا سيدى ! »

وقالت السيدة لاسونسكايا : « يجب ألا تصدقيه : فأنت تعرفينه جيداً ! »

ولكن السيدة الفرنسية الحانقة ظلت تغلى مدة طويلة وهى تتمتم وتغمغم .

واستأنف بيجاسوف حديثه فى برود قائلا : « ربما لا تصدقيننى ، ولكنى أؤكد لك أن ما قلته هو الحق بعينه . ألست أنا الذى أعلم ذلك ؟ قد تقولين أيضاً إنك لا تصدقين أن جارتنا السيدة شيبوزوفا ، أى إيلينا أنطونوفا ، أبلغتنى شخصيًّا — ولا تنسى أنها أبلغتنى شخصيًّا — أنها تسببت فى قتل ابن أخيها بوسائل خبيثة ! » .

« يا لها من فكرة ! »

« اسمحى لى أن أتم حديثى . أنصتوا إلىّ حتى أنتهى ، ثم احكموا أنتم أنفسكم . واذكروا أننى لا أريد التشهير بها . بل إنها لتروق لى — على قدر ما تروق المرأة فى عين رجل : إن منزلها خال من الكتب إلا من تقويم ، وهى لا تستطيع أن تقرأ إلا بصوت مرتفع . حتى هذا التمرين على القراءة يجعلها تتصبب عرقا . ثم تشكو من أن عينيها قد جحظتا من مآقيها . وصفوة القول : إنها امرأة وخادماتها مرحات نضرات . فما الذى يحدونى إلى التشهير بها ؟ »

وعقبت السيدة لاسونسكايا على ذلك بقولها : « ها هو ذا قد بدأ الآن ! إن أفريكان سميونوفيتش قد امتطى صهوة جواده الخشبى ولن يترجل عنه حتى يجن الليل » .

« جوادى الخشبى ! إذن فالنساء عندهن مالا يقل عن ثلاثة جياد خشبية، وهن لا يترجلن عنها أبداً إلا إذا أدركهن النوم »

« وما هذه الجياد ؟ »

« أللوم . والتعنيف . والزجر ! »

وأنشأت السيدة لاسونسكايا تقول : « أقسم يا أفريكان سميونوفيتش أن لديك سبباً قوياً جداً يحملك على أن تسخط على النساء كل هذا السخط . ولا شك أن امرأة . . . »

« أكنت تنوين أن تقولى : نالتنى بأذى ؟ »

ولم ترتبك السيدة لاسونسكايا إلا قليلا . وكانت قد تذكرت زواج بيجاسوف الذى لم يكتب له التوفيق . فاكتفت بأن أومأت برأسها .

وقال بيجاسوف : « حقًّا لقد نالتنى امرأة ذات مرة بأذى بالرغم من أنها كانت رءوف رحيمة »

« ومن كانت ؟ »

فقال بيجاسوف فى همس يشبه التمثيل « أمى ! »

« أمك ؟ وكيف يمكن أن تكون قد نالتك بأذى ؟ »

« بولادتى ! . . . »

وقطبت السيدة لاسونسكايا حاجبيها وقالت : « أخشى أن يكون الحديث

قد بدأ يتحول تحولا تتقبض له النفس ويضيق به الصدر . هلا تتفضل يا قسطنطين فتعزف لنا تمرين ثالبرج الجديد . لعل الموسيقى تهدئ من ثائرة أفريكان سميونوفيتش ؟ ألم يروض الإله أورفيوس الوحش من الحيوان ؟ »

وجلس بندالفسكي إلى البيان وعزف المقطوعة على خير وجه . وأصغت ناتاليا أول الأمر فى انتباه . ثم استأنفت ماكانت مشغولة به .

وقالت السيدة لاسونسكايا : « شكراً . هذا بديع . وإنى لأحب ثالبرج . فهو ممتاز حقًّا . فيم تفكر يا أفريكان سميونوفيتش ؟ »

فأجاب بيجاسوف فى تمهل : «كنت أفكر فى أن « الأنانيين » ثلاثة : أنانيون يعيشون ويدعون غيرهم يعيش . وأنانيون يعيشون ولا يدعون غيرهم يعيش . ثم أنانيون لا يعيشون ولا يدعون غيرهم يعيش . والنساء عامة من الفريق الثالث ! »

« إن هذا لجميل منك حقًّا ! والشىء الوحيد الذى يحيرنى فيك يا أفريكان سميونوفيتش هو إيمانك بتنزه حكمك عن الخطأ حتى لكأنك لا تخطئ أبداً »

« عجبا . حاشى ! فإنى أنا أيضا أقع فى الخطأ . إن الرجل قد يخطئ . ولكن أتعرفين الفرق بين أخطائنا وأخطاء المرأة ؟ ألا تعرفينه ؟ الفرق هو أن الرجل قد يقول مثلا إن اثنين واثنين خمسة أو ثلاثة ونصف ولا يقول أربعة . فى حين أن المرأة حرية بأن تقول : إن حاصل اثنين واثنين شمعة ! »

« يلوح لى أننى سمعت منك هذا من قبل . ولكن هل لى أن أسألك عن العلاقة التى بين مذهبك فى أنواع الأنانيين الثلاثة والموسيقى التى كنت تسمعها ؟ »

« ليس ثم علاقة . فإنى لم أكن أنصت إلى الموسيقى »

فأجابت السيدة لاسونسكايا وهى تشرح قول جريبويدوف شرحاً يسيراً :

« حسناً ! أرى أن لا سبيل لتقويمك يا باتيوشكا » . وأردفت تقول : « ماذا تحب إذن إذا كنت لا تحب الموسيقى ؟ لعله الأدب »

« أجل . أحب الأدب . ولكنى لا أحب الأدب الحديث »

« ولماذا ؟ »

« لهذا السبب الذى سأذكره لك : فقد عبرت نهر أوكا منذ عهد قريب مع سيد فى معدية . ورست المعدية على ضفة وعرة المرتقى . ودعت الحال إلى جر العربات إلى أعلى باليد . وكان للسيد عربة ثقيلة جداً . وبينما كان رجال المعدية يحطمون ظهورهم فى سبيل رفع العربة إلى ضفة النهر . كان السيد يئن أنينا يدعو إلى الرثاء حتى شعرت بالأسف الشديد من أجله . وعندئذ فكرت فى أن ثم مجالا لتطبيق نظام تقسيم العمل تطبيقاً جديداً . وهذا يصدق على الأدب الحديث . فغيره يجرون الأثقال ويؤدون العمل . وهو يئن ويتوجع ! »

وافتر ثغر السيدة لاسونسكايا عن ابتسامة .

وأردف بيجاسوف الذى لا يكل ولا يمل : « ويصفونه بأنه تصوير للحياة الحاضرة . وتجاوب عميق مع المسائل الاجتماعية . وما أشبه ذلك من العبارات . إيه ! يا لتلك الكلمات الجميلة ! »

« إن أقل ما يقال : هو أن النساء اللاتى تهاجمهن لا يصطنعن الكلمات الجميلة » .

وهز بيجاسوف كتفيه وقال : « إنهن لا يصطنعنها لأنهن لا يستطعن ذلك » .

واحمر وجه السيدة لاسونسكايا قليلا . وقالت وهى تتكلف الابتسام : « لقد بدأت تصبح وقحاً يا أفريكان سميونوفيتش » .

وساد الغرفة سكون شامل

وسأل أحد الغلامين باسيستوف فجأة : « أين زولوتونوشا ؟ »

وتدخل بيجاسوف على عجل فى الحديث وأجابه قائلا : « فى ناحية بلتاوة يا بنى ، فى قلب « أوكرانيا » (وقد سره أن تهيأت له الفرصة ليحول دفة الحديث إلى وجهة أهدأ وأقل إثارة للخواطر) . ومضى يقول : « وعلى ذكر الأدب ، لو أن عندى فضلا من مال لغدوت من فورى شاعراً أوكرانياً »

وهتفت السيدة لاسونسكايا : « تالله إنى لن أكون . يا للشاعر الفحل الذى كنت خليقاً أن تكونه ، أولك علم باللغة ؟ »

« كلا البتة ، ولا حاجة بى إلى هذا »

« لا حاجة بك إلى هذا ؟ »

« لا حاجة بى ، وما عليك إلا أن تتناولى صفحة من الورق وتكتبى فى أعلاها من الوسط كلمة « مرثية » . وابدئى هكذا : « وى . يا لحظى . يا لحظى التعس » . أو « نااليفايكو القوزاق يجلس على قورغان » . ثم أضيفى إلى هذه العبارة : « تحت التل الأخضر . جراى . جراى فوروباى . اقفز . اقفز ! . أو شيئا من هذه القافية . فيتم لك ما تريدين ! وما عليك عندئذ إلا أن تذهبى وتنشرى قصيدتك . وسيقرؤها الأوكرانى ويعتمد ذقنه على يده . ثم ينفجر باكياً . ذلك أنه مرهف الحس قوى العاطفة ! »

وصاح باسيستوف قائلا : « بالله عليك ! ما هذا الذى تقوله ! إنه لسخف . فقد عشت فى أوكرانيا وأنا أحب تلك البلاد وأعرف لغتها . وقولك جراى . جراى . فوروباى ليس إلا هراء ! »

« قد يكون ما تقوله صحيحاً ، ولكن الأوكرانى سيبكى على كل حال . تقول إن لهم لغة . ولكن أين هى اللغة الأوكرانية ؟ لقد طلبت مرة من أوكرانى أن يترجم لى أول عبارة روسية طرأت على ذهنى . فكانت ترجمته أشبه بشقشقة الببغاء . أتسمى هذه لغة ؟ لغة مستقلة بنفسها ؟ وددت أن يسحق أصدق أصدقائى فى هاون فيستحيل تراباً ولا أسلم لك بهذا !

وكان من الجلى أن باسيستوف يميل إلى المضى فى الجدل .

فقالت السيدة لاسونسكايا : « دعه وشأنه فإنك بلا شك لا تتوقع أن تسمع منه إلا هذه السفسطة »

وابتسم بيجاسوف فى تهكم وسخرية . ودخل خادم وأعلن قدوم ألكسندره بافلوفنا ليبينا وأخيها . ونهضت السيدة لاسونسكايا لتستقبل ضيفيها .

وقالت وهى تتجه نحو ألكسندره : « كيف حالك يا ألكسندرين . إنه لجميل منك أن تأتى . كيف حالك يا سرجى بافلوفيتش » .

وصافح سرجى بافلوفيتش فوليتسيف السيدة لاسونسكايا ، وذهب إلى ناتاليا . وسأل بيجاسوف المضيفة : « أتسمحين بأن تخبرينى : هل سيحضر البارون الذى تعرفت به حديثاً إلى هنا اليوم ؟ »

« أجل سيحضر »

« تقول الشائعات : إنه متفلسف عظيم ، أو إنه فى نقاش حاد بعض الشىء مع هيجل »

ولزمت المضيفة الصمت . وأجلست ألكسندره بافلوفنا على الأريكة واتخذت مجلسها بجوارها . واستأنف بيجاسوف حديثه قائلاً : « الفلسفة هى أسمى النظرات

جميعاً . وهذه النظرات السامية ستوردنى مورد الهلاك ! فما الذى يستطيع الإنسان أن يراه تحته وهو محلق فى هذه الآفاق السامية ؟ ثم إنك إذا أردت أن تشترى جواداً فإنك بلا شك لا تتفحصه وأنت ماثل فوق برج عال »

وسألتها ألكسندره بافلوفنا : « أظن أن البارون كان ينوى أن يأتيك بمقال من إنشائه »

وأجابت السيدة لاسونسكايا وقد بالغت فى إظهار عدم الاهتمام : « أجل . مقال عن علاقة التجارة بالصناعة فى روسيا . لا تراعى ، فلن نقرأه هنا . ذلك أننى لم أدعك لهذا » . ثم قالت بالفرنسية : « إن البارون لطيف ظريف بقدر ما هو عالم . ثم إنه يتكلم الروسية بطلاقة وفصاحة أيضا » . وعادت تقول بالفرنسية : « إنه كالسيل الفياض وهو خليق بأن يخلب لبك » .

ودمدم بيجاسوف قائلا : « إنه يتكلم الروسية بطلاقة تستحق الإطراء على طريقة الفرنسيين ! »

وأجابت السيدة لاسونسكايا : « هلم يا أفريكان سميونوفيتش ، اهدر ودمدم حتى تهدأ ثائرتك . فإن ذلك يوائم شعرك الأشعث كل المواءمة ، على أننى يأخذنى العجب من عدم حضوره » . ثم أضافت وهى تجول بنظراتها حول الغرفة : « أفلا تعلمون ما سوف نفعل سيداتى وسادتى ؟ هلموا بنا إلى الحديقة . فلا يزال بيننا وبين الغداء ساعة أو بعض الساعة ، والجو بديع » .

ونهض الجميع وخرجوا إلى الحديقة .

وكانت حديقة السيدة لاسونسكايا تمتد حتى ضفة النهر . وقد كثرت فيها الطرق تحف بها أشجار الزيزفون العتيقة . بلونها الذهبى الداكن ورائحتها الذكية .

وتنحسر أطراف هذه الأشجار عن فرج بدت كهالات خضر زمردية . وحفلت الحديقة أيضاً بأشجار السنط والليلق .

ومضى فوليتسف . فى صحبة ناتاليا والآنسة بونكور . إلى أكثف مكان فى الحديقة . وسار فى سكون إلى جوار ناتاليا ، وتبعتهما الآنسة بونكور متخلفة بضع خطوات .

وسأل فوليتسف آخر الأمر . وهو يجذب طرف شاربه الأصهب الجميل :

« ماذا كنت تفعلين اليوم ؟ »

وكانت ملامحه تشبه ملامح أخته شبهاً عجيباً . إلا أنها كانت أقلّ حياة وتعبيراً . أما عيناه الجميلتان الرقيقتان فقد كانت تعلوهما مسحة من حزن .

وأجابت ناتاليا : « أوه . لا شيء . فقد أصغيت إلى زفرات بيجاسوف ، وقمت ببعض أشغال التطريز على قطعة من النسيج الخشن . وقرأت كتاباً »

« وأى كتاب كنت تقرئين ؟ »

فأجابت ناتاليا فى تردد : « كنت أقرأ . . . كتاباً فى تاريخ الحروب الصليبية »

ورمقها فوليتسف بنظرة . ثم قال آخر الأمر : « آه ! لابد أنه كان كتاباً ممتعاً »

وقطع غصناً وأخذ يلوح به فى الهواء . ثم سارا عشرين خطوة أخرى .

وسألها قائلا : « من هذا البارون الذى تعرفت به أمك » ؟

« إنه سيد من القائمين على مخدع جلالة القيصر . وقد جاء حديثاً إلى هذه الناحية . وأمى تثنى عليه ثناء عظيماً »

« من السهل التأثير على أمك »

فقالت ناتاليا : « هذا يدل على أن قلبها ما زال شابا »

« أجل . وسأعيد إليك فرسك عما قريب . فقد كاد تدريبها ينتهى . وإنى لأود أن أعلمها كيف تشرع فى العدو . وهذا ما انتويت أن أفعله »

« شكراً لك . ولكن القلق يساورنى فى هذا الشأن . فإنك تروضها بنفسك . . . ويقولون إن من الصعب جداً . . . »

« أنت تعلمين يا ناتاليا ألكسيفنا أننى مستعد لتلبية أقل رغبة تبدر منك . إننى مستعد . . . إننى . . . ولا يقتصر ذلك على هذه الأمور الهينة . . . »

وتهدج صوت فولينتسف فتوقف عن الكلام .

ورمقته ناتاليا بنظرة امتنان وعادت تقول له : « شكرا لك »

وقال فولينتسف بعد وقفة طويلة : « إنك تعلمين أننى لم أفعل شيئاً . . . ولكن لماذا أقول لك هذا ؟ أنت تعرفين كل شىء »

وفى تلك اللحظة دق جرس فى المنزل

وصاحت الآنسة بونكور قائلة : « آه ! جرس الغداء . فلنعد »

وحدثت السيدة الفرنسية العجوز نفسها وهى ترقى درج الشرفة فى أعقاب ناتاليا وفولينتسف : « واخسارتاه . واخسارتاه أن يكون معين هذا الغلام الظريف فى الحديث ناضباً إلى هذا الحد » . ويمكن أن تترجم هذه العبارة : « إنك لظريف يا عزيزى ولكنك تبعث فى نفسى الملالة والسأم » .

ولم يأت البارون لتناول الغداء . وانتظره الجميع نصف ساعة ، وفتر الحديث الذى كان دائراً حول المائدة . ولم يفعل فولينتسف شيئاً إلا أن يرمق ناتاليا بنظراته . وقد جلس إلى جوارها . وأخذ يملأ قدحها بالماء فى غيرة وحماسة . وحاول بندالفسكى من غير طائل أن يروح عن جارته ألكسندره بافلوفنا . وكاد يذوب

رقة وعذوبة ، على حين أخذ يستبد السأم بها حتى همت بأن تتثاءب .

وجلس باستوف يدحرج كريات الخبز . وقد خلا عقله . أما بيجاسوف نفسه فقد التزم الصمت . ولاحظت السيدة لاسونسكايا أنه لم يكن ذلك اليوم فى كامل أنسه . فأجابها فى خشونة : « وهل كنت دائما أبدو أنيساً ودوداً ؟ إن هذا ليس من طبعى . . . » . ثم أضاف فى تهكم لاذع : « صبراً قليلا . فما أنا إلا بعض الجعة . الجعة الروسية الرخيصة . أما السيد صديقك الذى يقوم على مخدع صاحب الجلالة . . . »

وصاحت السيدة لاسونسكايا قائلة : « مرحى ! إن بيجاسوف رجل غيور ! بل هو يغار مقدماً ! »

وقطب بيجاسوف حاجبيه ولم ينبس ببنت شفة .

ودقت الساعة معلنة السابعة . واكتمل عقد الجماعة فى غرفة الاستقبال مرة أخرى .

وقالت المضيفة : « أظن أنه لن يأتى »

على أنه ترامى إلى مسمعهم كركرة عربة . ودلفت إلى الساحة عربة صغيرة . ودخل خادم غرفة الاستقبال بعد بضع دقائق . وناول سيدته رسالة حملها على صفحة من فضة . فقرأتها ثم رفعت عينيها إلى الخادم وسألته : « أين السيد الذى جاء بهذه الرسالة ؟ »

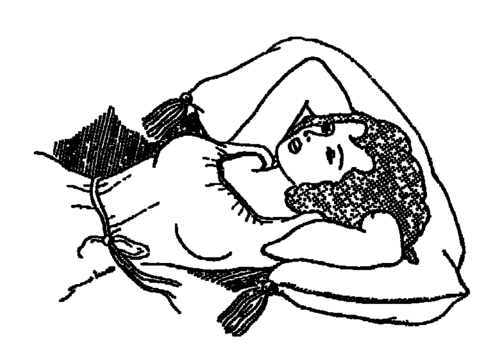
« إن السيد فى عربته . هل أدعوه إلى الدخول يا سيدتى ؟ »

« افعل »

وخرج الخادم

وقالت السيدة لاسونسكايا : « يا للخجل ! تصوروا أن البارون قد تلقى أمراً بأن يعود إلى بطرسبرج توًّا . وقد أرسل إليّ مقاله مع صديق . سيد يقال له رودين . كان البارون ينوى أن يقدمه إليّ . وقد أثنى عليه الثناء المستطاب . ولكن لشد ما يبعث هذا على المضايقة والحرج ، لقد كنت أرجو أن يبقى البارون هنا ردحاً من الزمن . . . »

وهتف الخادم معلناً : « دميترى نيقولايفتش رودين »



الفصل الثالث

ودخل غرفة الاستقبال رجل فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره . طويل القامة مجعد الشعر ، بشرته فى لون الزيتون ، وقد احدودب ظهره قليلا ، وكان وجهه غير متسق القسمات . إلا أنه كان معبّراً تبدو عليه مخايل الذكاء . أما عيناه فكانتا زرقاوين داكنتين حادتين يتجلى فيهما بريق مخضل ندى . وأنفه عريض مستقيم . وشفتاه قد سويتا فى نسق جميل . ولم تكن ملابسه جديدة بل كانت أحكم من أن تسعه ، حتى لكأنه قد كبر عليها فلم تعد تصلح له .

وخف الرجل إلى السيدة لاسونسكايا ، وانحنى قليلا . ثم قال لها : إنه ظل أمداً طويلا يتوق إلى شرف التعرف بها ، وإن صديقه البارون يأسف أشد الأسف لعدم استطاعته الحضور بنفسه يستأذنها فى الرحيل .

وكان صوت رودين الرفيع لا يتفق مع طول هامته وصدره العريض .

وقالت السيدة لاسونسكايا : « أرجوك أن تجلس . وإننى لجد مسرورة بمعرفتك » ثم قدمته إلى بقية الجماعة . وسألته هل هو من أهل ناحيتهم أو غريب عنها ؟ .

« وأجاب رودين وقد أمسك قبعته واضعاً لها على ركبتيه :

« إن ضيعتى فى ناحية « ت . . . آيا » ، ولم يمض علىّ هنا إلا مدة وجيزة . فقد جئت فى عمل وأنا أقيم الآن فى بلدتكم »

« فى بيت من ؟ »

« فى بيت الطبيب . فهو صديقى الحميم منذ كنا معاً فى الجامعة »

« آه الطبيب . إنهم يثنون عليه هنا أجمل الثناء . ويقولون إنه خبير بمهنته . أو تعرف البارون منذ أمد بعيد ؟ »

« تعرفت به فى موسكو فى الشتاء الماضى . وقضيت معه الآن نحواً من أسبوع »

« إن البارون رجل بارع جداً »

« أجل يا سيدتى »

وتشممت السيدة لاسونسكايا عقدة فى منديلها المعطر بماء الكولونيا .

وسألته قائلة : « أفى خدمة الحكومة أنت ؟ »

« من ؟ أنا ؟ »

« أجل »

« كلا . لقد اعتزلت الخدمة »

وعقب ذلك سكون دام برهة وجيزة . ثم استؤنف الحديث الذى كانت تتجاذبه الجماعة .

وبدأ بيجاسوف يقول موجهاً الخطاب إلى رودين : « هلا تسمح لى بأن أسألك ! أو تعرف شيئاً عن مضمون المقال الذى أرسله سيدى البارون ؟ »

« أجل »

« إن المقال يتناول علاقة التجارة . . . أو قل علاقة الصناعة بالتجارة فى بلادنا ، أليس هذا هو وصفك للمقال يا سيدى ؟ »

فأجابت السيدة لاسونسكايا واضعة يدها على جبينها : « بلى ، هذا هو موضوعها »

ومضى بيجاسوف قائلا : « لاشك فى أننى لا أجيد الحكم على هذه الأمور . ولكن لا مناص لى من الاعتراف بأن عنوان المقال نفسه يبدو لى – مع الترفق فى التعبير– غامضاً أشد الغموض يلتبس فهمه على الناس »

« وما الذى يجعله يبدو لك على ما وصفت ؟ »

وابتسم بيجاسوف فى تهكم وسخرية ، وألقى بنظرة من طرف عينه إلى السيدة لاسونسكايا ، ثم سأل رودين ، وهو يحول إليه وجهه الشبيه بوجه الثعلب مرة أخرى : « أويبدو لك واضحاً ؟ »

« إنه يبدو لى كذلك »

« هه . . . إنك بطبيعة الحال أعلم منى بهذا »

وسألت السيدة ليبينا المضيفة قائلة : « أوتشعرين بصداع ؟ »

« كلا ، إننى لا أشعر بشىء . . . ولكن هذا من شأنه أن يثير الأعصاب »

وعاد بيجاسوف يتكلم بصوت خارج من أنفه : « أوتسمح لى بأن أسألك : هل صديقك السيد البارون موفل – أظن أن هذا هو اسمه ؟ »

« تماما »

« ترى أيعد السيد البارون الاقتصاد السياسى مهنته ، أم تراه لا يكرس لهذا الموضوع الذى يستفرغ الجهد إلا ساعات الفراغ التى تبقى له بعد استمتاعه

بحياته الاجتماعية وأداء واجباته الرسمية ؟ »

ونظر رودين إلى بيجاسوف نظرة فاحصة .

فأجاب رودين وقد احمرّ وجهه قليلا : « إن البارون من المولعين بهذا الموضوع . ولكن مقاله فيه شيء كثير من الحقيقة والفائدة »

« لا أستطيع أن أناقشك فى هذا لأننى لم أقرأ المقال ، ولكننى أتجرأ فأسألك : ألا يحتمل أن يكون مقال صديقك البارون موفل قد اقتصر على عرض المقترحات العامة أكثر من اقتصاره على الحقائق ؟ »

« إن المقال يشمل حقائق ومقترحات قائمة على حقائق »

« ليكن ما تقول ، ولكن دعنى أنبئك بأن من رأيى — وأنا أستطيع أن أجاهر بهذا الرأى عند الاقتضاء لأننى قضيت ثلاث سنوات فى جامعة دوربات — أن كل هذه الأمور التى يسمونها مقترحات عامة ونظريات ونظماً وما إلى ذلك — وأرجو أن تلتمس لى العذر ، فإننى قروى ولا أحب أن أتأنق فى الحديث — ما هى إلا عبث فى عبث ، بل هى جميعاً ليست إلا سفسطة أريد بها الضحك على ذقون الناس لا أكثر ولا أقل . فلتذكروا لنا الحقائق المجردة أيها السادة ، ثم لتقفوا عندها ! »

وأجاب رودين : « حقًّا ؟ ألا يجب أن نذكر أيضاً مدلول هذه الحقائق ؟ »

واسترسل بيجاسوف قائلا : « مقترحات عامة ؟ إنها كفيلة بالقضاء علىّ : مقترحات ، وبحوث واستنتاجات ! إن ذلك جميعاً يقوم على المعتقدات . وكل امرئ يتحدث عن معتقداته ، ويطلب لها الاحترام ، ويثير ضجة حولها . . . . أف ، أف ، »

وهز بيجاسوف قبضته فى الهواء ، وضحك بندالفسكى ضحكة مكتومة .

وتمتم رودين : « حسن جداً ! إذن فأنت تؤكد أنه لا وجود للمعتقدات ؟ »

« نعم ليس لها وجود »

« هل هذا هو معتقدك ؟ »

« أجل »

« إذن كيف تقول : ألا وجود للمعتقدات ؟ هاك معتقداً ، ولنبدأ به »

وابتسم جميع من بالغرفة وتبادلوا النظرات .

وشرع بيجاسوف يقول : « مهلا ، مهلا ! اسمح لى . . . »

ولكن السيدة لاسونسكايا صفقت بيديها وصاحت : « مرحى ! مرحى ! لقد حلت الهزيمة ببيجاسوف ! » ، وتناولت قبعة رودين بلطف من بين يديه .

وقال بيجاسوف فى تبرم وضجر : « لا يستخفنك الطرب بهذه السرعة ، فليس يكفى النطق بالملحة فى استعلاء ، وإنما يجب على المرء أن يثبت ما يقول ويدحض الحجة بالحجة . . . لقد خرجنا عن الموضوع الذى يدور حوله النقاش »

فقال رودين ببرود : « إن الأمر هين يسير . فأنت لا تؤمن بفائدة المقترحات العامة ، ولا بالمعتقدات . . . »

« أجل ، فإنى لا أؤمن بشىء »

« حسن جداً ، إنك لمن الشكّاك »

« لا أرى داعياً لاستعمال هذا اللفظ الذى تعارف عليه أهل العلم ، وإنى إذ أمعن فى النظر . . . »

فتدخلت السيدة لاسونسكايا قائلة : « لا تقاطعه بعد »

وقال بندالفسكى فى هذه اللحظة محدثاً نفسه : « أمسك به ! ياله من

كلب أمين ! » ، وأشرق وجهه سروراً .

ومضى رودين يقول : « إن اللفظ يحمل المعنى الذى أريد ، وأنت تفهمه . فلماذا لا أستخدمه ؟ إنك لا تؤمن بشيء . فلم إذن تؤمن بالحقائق ؟ »

« عجبا ! يا له من سؤال ! إننا جميعاً نؤمن بالحقائق ، وكل إنسان يعلم : ما الحقائق ؟ إنى أحكم عليها بالتجربة ، وبحواسى »

« ولكن ألا يمكن أن تخدعك حواسك ؟ أتقول لك حواسك إن الشمس تدور حول الأرض ، أم تراك تخالف كوبرنيقوس ؟ ألا تصدقه هو أيضاً ؟ »

وعادت الابتسامة تعلو شفاه الحاضرين جميعاً ، وتعلقت الأنظار جميعاً برودين ، وكان كل فرد من الجماعة يقول فى نفسه « ها هو ذا الرجل من أهل الحجا »

وقال بيجاسوف : « أرى أنك ستفوز بملحتك ، وهى ملحة لا شك عندى فى أنها بلغت الغاية فى الأصالة والابتكار ، ولكنها خارجة عن الموضوع تماماً »

فأجاب رودين ، « ليس فى جميع ما قلته ، للأسف ، إلا شيء قليل جدًّا من الابتكار ، فهو معروف للكافة منذ أمد بعيد ، وقد ردده الناس من قبلى ألف مرة ، ولكن ليس هذا هو الموضوع . . »

فسأله بيجاسوف : « وما هو إذن ؟ » ، وقد شاب صوته شيء من القحة .

وكان بيجاسوف قد جرى على أن يبدأ مناقشته بلهجة تنم عن الفكاهة والهزل ، ثم ينقلب فظًّا وقحاً ، وينتهى به الأمر إلى الوجوم والإخلاد للصمت .

وقال رودين : « إنه ، ولا مناص لى من الاعتراف بأننى لا أستطيع أن أدفع ما يخامرنى من شعور صادق عندما أسمع رجلا ذكيًّا يهاجم . . . »

واعترض بيجاسوف قائلا : « النظم ؟ »

« أجل ، النظم أيضاً إن شئت ، فلماذا يروعك هذا اللفظ ؟ إن كل نظام يقوم على معرفة القوانين الأساسية ، بل المبادئ الجوهرية للحياة . . . »

« على أن هذه القوانين والمبادئ لا يمكن حقًّا إدراكها أو الكشف عنها »

« عفواً ، فإنها ليست بطبيعة الحال فى متناول كل إنسان ، ثم إن الخطأ من طبائع البشر . ولكنك بلا شك توافقنى على أن نيوتن قد كشف على الأقل عن بعض هذه القوانين الأساسية ، ولا جدال فى أنه كان عبقريًّا ، على أن ما يكشف عنه العباقرة يعظم أكثر وأكثر إذا قرب للأذهان وأصبح فى متناول الجميع . والسعى الحثيث إلى استنباط المبادئ الجوهرية من الظواهر الفردية ميزة من الميزات الأصيلة التى يتسم بها العقل البشرى . . ومع كل ما حصلناه من تعليم . . . »

وقاطعه بيجاسوف وهو يتغنغ قائلا : « إذن فهذا هو ما كنت تهدف إليه ! أنت رجل عملىّ ، ولا يعنينى الدخول فى كل هذه المعضلات الخاصة بما وراء الطبيعة »

« حسن جداً ، افعل ما يحلو لك ، ولكن لا يغيبن عنك هذا : إن رغبتك فى أن تكون رجلا عمليًّا فحسب هى فى حد ذاتها نظام ، بل نظرية . . . »

فاعترضه بيجاسوف قائلا : « لقد كنت تقول : التعليم ! شىء جميل — التعليم — يا لتعليمك الذى تباهى به من مصدر للخير الكثير ! إن تعليمك هذا لا يساوى عندى قلامة ظفر ! »

وقالت المضيفة . وقد سرت فى أعماق نفسها أعظم السرور لما بدا من رزانة صاحبها الجديد ودماثة خلقه : « ما هكذا يكون النقاش يا أفريكان سميونوفيتش ! »

وراحت تهتف بالفرنسية فيما بينها وبين نفسها ، وهى ترمق وجه رودين فى اهتمام شديد ممزوج بالعطف : « هكذا يكون الرجال » ثم أردفت بالروسية : « ويجب أن أعامله معاملة كريمة »

ومضى رودين يقول بعد أن لزم السكون برهة : « ليس فى نيتى أن أدافع عن التعليم ، وما هو بمحتاج إلى دفاعى . إنك تكرهه ، ولكل رأيه ، ثم إن الجدال فى هذا ينأى بنا كثيراً عن الموضوع ، ولكن اسمح لى أن أذكرك بالمثل القديم الذى يقول : « أى يوبيتر ، إنك غاضب فأنت إذن مذنب ! » ، لقد كان مرامى أن أقول : إن كل هذه الهجمات على النظم والمقترحات العامة وما إليها أمر يبعث على المزيد من الأسف ، لأن الناس عامة فى هجومهم على هذه النظم ينكرون المعرفة والعلم وينكرون الإيمان بهما . ومن ثم ينكرون الإيمان بأنفسهم وبما أوتوا من قدرة . والناس فى حاجة إلى هذا الإيمان لأنهم لا يستطيعون الحياة بأحاسيسهم وحدها . ومن الخطل أن ينفر الإنسان من الرأى ويتشكك فيه ، ذلك أن مذهب الشك قد اتسم دائما بالعقم والعجز »

وتمتم بيجاسوف : « ما هذا إلا مجرد كلمات تقال . . . »

« ربما ، ولكن اسمح لى بأن أبين لك بالرغم من ذلك أننا عندما نقول : مجرد كلمات ، فإننا نحاول فى كثير من الأحيان أن نتجنب الحاجة التى تدفعنا إلى الإدلاء بشىء أصلح من إلقاء كلمات فحسب »

وسأله بيجاسوف وهو يزم حاجبيه : « ماذا تقول ؟ »

فأجابه رودين وقد نفد صبره على غير إرادته ، وإن كان قد ضبط مشاعره فى الحال : « لقد فهمت ما أعنى ، وهأنذا أكرر القول بأنه إذا لم يكن

للمرء اعتقاد ثابت فيما يؤمن به ولا أرض راسخة يقف عليها ، فكيف يروض عقله على أن يظل مستعداً لتفهم حاجات قومه وطبائعهم ومستقبلهم ؟ وكيف يتأتى له أن يعرف ماذا ينبغي عليه أن يفعل إذاً . . . »

وقال بيجاسوف فى اقتضاب : « إنى أترك لك الميدان » ، ثم انحنى وابتعد دون أن ينظر إلى أحد .

ورمقه رودين بنظرة ، وعلت ثغره ابتسامة فاترة ، ولم ينبس ببنت شفة .

وقالت السيدة لاسونسكايا : « آه ! لقد ولى الأدبار ! ، لا عليك منه يا ديمترى » ، ثم أضافت فى ابتسامة أعربت عن ودها : « عفوا ، ما اسم أسرتك »

« نيقولايفتش »

« لا عليك منه يا عزيزى ديمترى نيقولايفتش ، فما من أحد منا قد انخدع به ، وهو يريد أن يوهمنا بأنه لا يرغب بعد فى المناقشة مع أنه يعلم أنه لا يستطيع أن يقارعك الحجة ، تعال ، ادن منى ودعنا نتجاذب أطراف الحديث »

فاقترب رودين بكرسيه منها .

ومضت السيدة لاسونسكايا تقول : « كيف لم نلتق من قبل ؟ . إن هذا يدهشنى . هل قرأت هذا الكتاب ؟ إنه لتوكفيل كما تعلم »

وناولت السيدة لاسونسكايا رودين الكراسة الفرنسية .

وأخذ رودين الكتيب الرفيع وقلب بعض صفحاته ثم وضعه على المائدة ، وقال إنه حقًّا لم يقرأ هذا الأثر بالذات من آثار السيد توكفيل ، ولكنه كثيراً ما فكر فى الموضوع الذى طرقه صاحبه ، ثم بدأ الحديث يدور بين الجماعة .

وقد بدا رودين أول الأمر متردداً لا يستطيع حمل نفسه على الحديث ، يتلمس الكلمات تلمساً ، ولكنه ما لبث أن استرد ناصية موضوعه وانطلق فى الحديث انطلاقاً ، وما إن انقضت نصف ساعة حتى كان صوته هو الصوت الوحيد الذى يرن فى الغرفة ، والتف حوله الحاضرون فى دائرة ، وظل بيجاسوف وحده مختبئاً فى ركن من الغرفة بجوار المدفأة .

وكان رودين يتكلم ببراعة وحرارة وفطنة فيكشف عن ذخيرة من المعرفة وسعة الاطلاع ، ولم يكن أحد يتوقع أن يجد فيه ذلك الرجل الممتاز النابه ، وأما ملابسه فكانت على خلاف ذلك تماما ، ولم يكن ثمّ شائعات سبقت قدومه ، وقد أخذ الكل بظهور هذا الرجل البارع بغتة ، ولا نستثنى من ذلك أهل الريف أيضاً ، وعدوه أمراً غريباً لا يمكن تعليله ، ومن ثم أدركتهم الدهشة وزادت فتنتهم به . وخاصة السيدة لاسونسكايا . فتاهت عجباً بأنها هى التى اكتشفته ، وكانت تفكر فعلا فى تقديمه إلى أرقى المجتمعات . ثم إنها كانت بالرغم من سنها أشبه بالطفل تستجيب لأول مؤثر يحرك نفسها . أما ليبينا فلم تفهم إلا القليل من أقوال رودين ، بيد أنها أخذت به وتملكها السرور ، وكذلك أخوها ، فقد بلغ به الإعجاب كل مبلغ . أما بندالفسكى فكان يرمق السيدة لاسونسكايا بعين الغيرة ، ويهتف بينه وبين نفسه : « إنى لأستطيع الحصول على بلبل أحسن منه لقاء خمسمائة روبل ! »

على أن باسيستوف وناتاليا كانا أشد الحاضرين تأثراً برودين ، فقد جلس باسيستوف مبهور الأنفاس ، فاغر الفم . جاحظ العينين ، ينصت إليه كما لم ينصت إلى أحد من قبل . فى حين غمرت حمرة الخجل وجه ناتاليا وازدهت

عيناها وتألقتا وهى تحدق النظر فى رودين لا تبغى عنه حولا .

وهمس فوليتتسف فى أذنها : « ما أجمل عينى الرجل ! »

« أجل ، أليس كذلك ؟ »

« ومن أسف أن تبلغ يداه من الكبر هذا المبلغ وتصطبغ عيناه بكل هذا الاحمرار »

ولم تحر ناتاليا جواباً .

وقدم الشاى ، وجرى الحديث فى موضوعات أعم ، على أن الحاضرين جميعاً كانوا يلتزمون الصمت فجأة كلما هم رودين بالكلام مما دل على مبلغ ما كان له فى نفوسهم من سلطان .

وتملكت المضيفة رغبة مفاجئة فى إغاظة بيجاسوف ، فمضت إليه وقالت له هامسة : « لِمَ لا تفعل شيئاً إلا أن تتهكم وتسخر؟ حاول أن تشتبك أنت وهو مرة أخرى » . ولم يحر بيجاسوف جواباً ، فأومأت إلى رودين وقالت له وهى تشير إلى بيجاسوف : « إن ثمّ شيئاً آخر لا تعرفه عنه . فهو من ألد أعداء المرأة لا ينى أبداً عن مهاجمتها ، فأرجوك أن تصلح من شأنه . . . »

وهبط رودين ببصره ملقياً نظرة على بيجاسوف ، أجل هبط ببصره بالمعنى الحرفى للعبارة ، ذلك أنه كان أطول منه رأساً وكتفين ، واهتز بيجاسوف أو كاد حنقاً وغيظاً ، وشحب وجهه الغضوب .

وبدأ حديثه متلعثماً : « إن داريا ميخائيلوفنا مخطئة ، فإنى لا أخص بهجومى النساء وحدهن ، بل إنى لا أحب البشر عامة » .

وسأله رودين : « وما الذى أوحى إليك بهذه الفكرة السيئة عن الجنس البشرى ؟ »

فحدق بيجاسوف النظر فى عينيه رأساً وقال : « الأرجح أن يكون مرد ذلك إلى ما أبصره فى قلبي الذى يتكشف لى فيه كل يوم مزيد من الحثالات والنفايات . وأنا أحكم على غيرى بما أراه فى نفسى ، وقد يكون فى ذلك بعد عن الإنصاف . وقد أكون أنا أسوأ كثيراً من غيرى ، ولكن لا حيلة لى فى ذلك ، إنه حكم العادة ! »

فأجابه رودين قائلا : « إنى لأدرك ما تقول ، وأشاركك فى عاطفتك ، وأى امرئ نبيل لم يتلهف شوقاً إلى إذلال نفسه ؟ ولكن لاصلاح فى أن يبقى المرء فى مثل هذا الموقف العسير»

فقال بيجاسوف : « أشكرك شكر العاجز على شهادة النبل التى أضفيتها على ، إلا أننى راض كل الرضا عن موقفى مهما بلغ من عسره ، ألا سحقاً له ! ، فإنى لن أسعى إلى تغييره »

« ولكن هذا معناه أنك تؤثر إشباع حب الذات فيك – وأرجو أن تغفر لى هذا التعبير – على الرغبة فى أن تحقق وجودك وأن تعيش فى عالم الحقيقة . . . »

وهتف بيجاسوف : « صدقت كل الصدق ! ، فحب الذات شىء أفهمه أنا – وأنت أيضاً فيما أرجو – بل نفهمه نحن جميعا ، فى حين أن الحقيقة . . . ما الحقيقة ؟ وأين تلك الحقيقة ؟ »

وقالت المضيفة : « لابد لى من أن أنبهك إلى أنك تكرر أقوالك »

ورفع بيجاسوف كتفيه وقال : « وماذا فى ذلك ؟ إنى لأتساءل أين

الحقيقة ؟ إن الفلاسفة أنفسهم لا يعرفون ما هي : فإن كانْت يقول : هذه هي الحقيقة ، وهيجل يقول : كلا ، لقد أخطأت بل هي تلك »

وسأله رودين في صوت رصين : « أتعرف ما يقول هيجل عن الحقيقة ؟ »

واندفع بيجاسوف يقول في انفعال : « أكرر لك القول بأنني لا أستطيع إدراك كنه الحقيقة ، وفي رأيي أن الحقيقة شيء لا وجود له ، أي أن الكلمة موجودة ، ولكن الحقيقة نفسها لا وجود لها » .

وصاحت السيدة لاسونسكايا ! « يا للعار ! يا للعار ، كيف يصدر منك مثل هذا القول أيها المذنب العريق ؟ لا وجود للحقيقة ! إذا كان الأمر كما تقول فما الذي يبقى للمرء حتى يعيش من أجله ؟ »

فأجابها بيجاسوف في ضيق : « إني لأعتقد حقًّا يا سيدتي أنك على كل حال سوف تؤثرين الاستغناء عن الحقيقة على الاستغناء عن طاهيك ستيبان الذي برع كل البراعة في طهو المرق . وأي نفع ترجينه من الحقيقة ؟ إنك لا تستطيعين أن تجعلي منها قبعة ! »

وقالت السيدة لاسونسكايا : « لا ينهض الهزل حجة . خصوصاً إذا فاحت منه رائحة القذف » .

وتمتم بيجاسوف : « لا علم لي بشيء عن الحقيقة الفلسفية في مفهومك . أما الحقيقة البسيطة فهي ، فيما أرى ، لا تستساغ دائماً » ثم تسلل غاضباً !

وراح رودين يتحدث عن الاعتزاز بالنفس حديثاً بارعاً . فقال : إن المرء لا يساوي شيئاً إذا خلا من هذه الصفة . ذلك أن الاعتزاز بالنفس هو رافعة أرشميدس التي تستطيع أن تزحزح الأرض عن محورها . على أن الرجل في

الوقت نفسه إنما يكون رجلا جديرا بهذا الاسم إذا استطاع أن يكبح جماح العزة والكبرياء فيه ، كما يكبح الفارس جماح جواده ، ويضحى بنفسه لخير الجميع .

وختم حديثه بقوله : « إن العزّة بالباطل هى الانتحار ، وضحيتها يذوى كما تذوى الشجرة العقيم ، على حين أن العزة إذا اتخذت صورة السعى الحثيث لإدراك الكمال كانت مصدر كل شىء عظيم . أجل ، يجب على المرء أن يقمع غريزة حب الذات فيه حتى يهيئ لها سبيل التعبير ! »

والتفت بيجاسوف إلى باسيستوف وقال : « هلا تعيرنى قلماً من الرصاص »

ولم يدرك باسيستوف أول الأمر ما يرمى إليه بيجاسوف . ثم سأله أخيراً : « وفيم تطلب القلم الرصاص ؟ »

« إنى حريص على تسجيل تلك العبارة الأخيرة التى فاه بها السيد رودين . فقد أنساها إن لم أسجلها ، ولا شك أنك تسلم معى بأن الفوز بمثل هذه العبارة كالفوز المبين فى لعبة (برالاش) سواء بسواء » .

وصاح باسيستوف يقول فى غيرة وحمية : « أى أفريكان سميونوفيتش ، إن ثمَّ أموراً من المخجل أن يأخذها المرء مأخذ التهكم والسخرية » ثم أولى بيجاسوف ظهره .

واتجه رودين فى الوقت نفسه صوب ناتاليا ، فنهضت ، وقد ارتسمت على وجهها الحيرة والارتباك ، ونهض فولينتسف أيضاً وكان يجلس بجوارها .

وأخذ رودين يقول فى صوت ناعم رقيق كأنه أمير على سفر : « أرى بياناً ، فهل تعزفين عليه ؟ »

فأجابت ناتاليا فى تلعثم : « أجل . . ولكننى لا أجيد العزف ، إن السيد

بندالفسكى يعزف عليه خيراً منى بكثير » .

ومد بندالفسكى وجهه إلى الأمام . وقد افتر ثغره عن ابتسامة كشفت عن أسنانه وقال : « لا تقولى هذا يا ناتاليا أليكسييفنا . فإنك بلا أدنى ريب تجيدين العزف مثلى »

وسأل رودين قائلا : « أو تعزف قصيدة (ملك الدردار) لشوبيرت ؟ »

فقالت المضيفة : « إنه يعزفها . هلا تجلس إلى البيان يا قسطنطين . أتحب الموسيقى يا ديمترى نيقولايفتش ؟ »

ومال رودين برأسه قليلا رداً على سؤالها . ومر بيده على شعره كأنه يتهيأ للسماع . وبدأ بندالفسكى العزف .

ووقفت ناتاليا بجانب البيان فى مواجهة رودين . وما إن انسابت أنغام اللحن الأولى حتى نم وجهه عن جمال هادئ رزين ، وكانت عيناه الزرقاوان الداكنتان تهيمان فى تؤدة ثم تستقران من حين إلى حين على ناتاليا .

وانتهى بندالفسكى من عزف المقطوعة ، ولم يعلق رودين أى تعليق . بل اتجه صوب النافذة المفتوحة . وكان الغسق الغامر العطر قد لف الحديقة بردائه الناعم . وانبعث من الأشجار الدانية أنفاس منعشة وسنانة يغشاها لألاء النجوم تتألق فى سكون يعمر القلوب بالدفء ، وكانت هذه الليلة من ليالى الصيف نشوى تهش لها النفوس وتطرب . وحدق رودين النظر فى الحديقة وقد طواها الليل . ثم التفت إلى الجماعة قائلا :

« لقد ذكرنى هذا النغم ، وهذه الليلة بأيام دراستى فى ألمانيا . ذكرنى باجتماعاتنا وأغانى الحب التى كنا ننشدها بليل » .

وسألته المضيفة : « هل كنت فى ألمانيا ؟ »

« قضيت سنة فى هيدلبرغ ، وسنة أو نحوها فى برلين »

« أوكنت تلبس لبس الطلبة ؟ لقد سمعت أن لهم فى تلك البلاد طريقة غريبة فى اللباس » .

« كنت أرتدى فى هيدلبرغ حذاءً طويلا بمهازين ، وسترة مزينة بالشرائط كسترة فرسان الجيش ، وأترك شعرى يسترسل حتى يبلغ كتفى ، أما فى برلين فالطلبة يرتدون من الملابس ما يرتديه سائر الناس » . . .

وتوسلت إليه السيدة ليبينا قائلة : « أرجوك أن تقص علينا شيئاً من حياتك وأنت طالب » . .

وكان حديث رودين فى أول الأمر مخيباً للآمال بعض الشيء ، فقد خلا وصفه من الطلاوة ، ولم يكن به ميل إلى ابتعاث المرح ، على أنه سرعان ما انتقل من سرد تجاربه وهو فى الخارج إلى الإدلاء بتعليقات شاملة عن أهمية التعليم والعلوم وعن الجامعات والحياة الجامعية عامة ، فرسم لذلك صورة رحبة بلمسات جريئة عريضة ، وتتبع مستمعوه كلماته مصغين إليه إصغاء المستغرقين ، وكان يتحدث حديث المتمكن القدير بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب يخالطه شيء من الغموض أضفى على كلماته سحراً من لون خاص .

وانطلقت الأفكار من رأس رودين كالفيض مما عاقه عن التعبير عما يجول بخاطره فى لغة محددة واضحة ، فكان يأتى بالصورة تلو الصورة ، والتشبيه فى إثر التشبيه ، وكلها تتسم بالجرأة النادرة والدقة العجيبة . . كان يرتجل الكلام ارتجال المشوق المتلهف فيجيء خلواً من التلطف المعهود فى المحدث المجرب المتمرس ،

ذلك أنه لم يكن يتعثر افتقاراً إلى الألفاظ ، بل كانت هذه الألفاظ تستبق إلى فيه طائعة مختارة ، حتى لقد بدا أن كل لفظ منها كان ينبعث من صميم قلبه فى يسر جياشاً بكل ما يفيض به الوجدان من عقيدة واقتناع . لقد كان رودين عليماً بسر لعله أعظم الأسرار جميعاً ، ألا وهو سحر البيان ، فكان يضرب على وتر واحد من أوتار القلب فيجعل جميع أوتاره الأخرى تدق وتهتز من حيث لا تدرى ، وربما كان بعض من يصغون إليه لا يدركون مغزى ما يقول ، ولكن صدورهم كانت تتنفس الصعداء ويخيل إليهم أن الحجب قد انزاحت عن عيونهم وتجلى على مرمى البصر منهم شىء متألق لا يعرفون له اسما ولا يستطيعون له وصفاً .

وكانت أفكار رودين جميعاً تبدو مصورة على مرآة المستقبل مما جعلها تتسم بسمة الاندفاع والشباب . كان يتكلم وهو واقف بجوار النافذة لا يخص أحداً بنظراته ، وقد ألهمه فى حديثه تجاوب الحاضرين جميعاً معه والتفاتهم إليه ، ووجود سيدات صغيرات السن ، وجمال تلك الليلة ، فانطلق فى غمرة من عواطفه الجياشة المتدفقة وبلغ أقصى درجات الفصاحة ، بل الشعر . . . وكان رنين صوته ، صوته الناعم الملىء بالحرارة يزيد كلماته فتنة على فتنة ، حتى لقد بدا أن روحاً علوياً كان يتحدث من خلال شفتيه على غير علم منه . وقد تحدث رودين عن ذلك الشىء الذى يكسب حياة الإنسان القصيرة تلك القيمة الخالدة .

وختم حديثه بقوله : إنى لأذكر أسطورة إسكندناوية تقول : إن ملكاً من الملوك كان يجلس فى ليلة قارسة البرد مع رجاله المحاربين ، حول نار فى مخزن طويل مظلم ، وعلى حين غرة نفذ طائر صغير من باب مفتوح وخرج من باب آخر . ولاحظ الملك أن هذا الطائر شأنه شأن الإنسان فى هذه الدنيا ، يخرج من الظلام

ويمضى لحظة عابرة فى الضوء والدفء ثم يعود إلى الظلام ! فأجابه أكبر رجاله سنا :

« أيها الملك ، لن يموت الطائر فى الظلام بل هو يلتمس فيه عشه . . . ، صحيح أن حياتنا قصيرة حقيرة ولكن الإنسان هو الذى يأتى بكل جليل . . . فإن إدراك المرء أنه أداة فى يد تلك القوى العلوية يجب أن يصرفه عن جميع مسراته الأخرى ، فيجد فى الموت نفسه حياته ، بل عشه » .

وسكت رودين عن الكلام وأرخى بصره وابتسم ابتسامة من يشعر بحيرة لا يدرى لها سبباً .

وتمتمت السيدة لاسونسكايا : « إنك لشاعر ! » .

ووافقها الكل على ذلك فى قرارة نفوسهم ، الكل فيما عدا بيجاسوف ، فقد تناول قبعته فى هدوء ، دون أن ينتظر سماع كلمة الختام من خطبة رودين المستفيضة ، ثم خرج وهمس إلى بندالفسكى الذى كان واقفاً بالقرب من الباب همساً كالفحيح ملؤه الخبث والحقد : « حسبى ! فإنى ذاهب أسعى إلى معاشرة الحمقى والبلهاء ! »

ولم يتحرك أحد أقل حركة للوقوف بينه وبين الخروج ، ولم يلحظ أحد غيابه .

وأقبل الخادم بالغداء ، وما إن انقضت نصف ساعة حتى كان الجميع قد غادروا الدار فى عرباتهم أو على الأقدام . وأقنعت المضيفة رودين بأن يبقى عندها ليلته . أما السيدة ليبينا فقد مضت هى وأخوها فى طريقهما إلى الدار . وأخذت تهتف المرة تلو المرة بعبارات التعجب الكثيرة مشيدة بذكاء رودين النادر . ووافقها فوليتسف على أقوالها . إلا أنه لاحظ أن رودين كان يعبر عما يجول بخاطره

أحياناً تعبيراً فيه شيء من الغموض ، وأضاف على سبيل الايضاح : أى بعبارات لا تفهم حق الفهم . على أن وجهه رانت عليه غشاوة وازدادت عيناه اللتان كانتا تحملقان فى ركن من أركان العربة حزناً على حزن .

وخلع بندالفسكى حمالة سراويله المطرزة بالحرير قبل أن يأوى إلى فراشه ، ثم قال بينه وبين نفسه : « إنه لشاب مندفع غاية الاندفاع » . ونظر إلى غلامه على حين بغتة نظرة صارمة وأمره بمغادرة الغرفة . ولم يغمض لباسيستوف جفن تلك الليلة ، بل لم يخلع ملابسه ، وجلس حتى الصباح يكتب خطاباً إلى صديق له فى موسكو . أما ناتاليا فبالرغم من أنها خلعت ملابسها وأوت إلى فراشها فإنها لم تنم هى أيضاً لحظة واحدة ، واستلقت على الفراش مفتوحة العينين ، وأسندت رأسها بيدها ، وحملقت فى الظلام لا تريم ، وكانت عروقها تنبض كالمحمومة ، وقد فاضت نفسها حسرات .



الفصل الرابع

ما إن انتهى رودين من ارتداء ملابسه فى صباح اليوم التالى حتى جاء خادم يحمل رسالة من السيدة لاسونسكايا تدعوه فيها إلى تناول الشاى معها فى غرفتها الخاصة ، وقد وجدها رودين وحدها ، واستقبلته بود ملحوظ ، وسألته : هل قضى ليلة طيبة ؟ ثم صبت له قدحاً من الشاى بيدها ، وسألته : أيكفيه ما حلى به القدح من سكر ؟ وقدمت له لفافة تبغ ، ثم عادت وأعربت له مرتين أخريين عن دهشتها من أنها لم تلقه قبل ذلك بزمن طويل . وكان رودين قد اتخذ مجلسه أول الأمر على مسافة منها ، إلا أنها أفصحت له عن رغبتها فى أن يتخذ مقعده إلى جوار كرسيها ذى المسندين ، ومالت عليه قليلا ، وراحت تسأله عن أقاربه وخططه ونواياه . وكانت السيدة لاسونسكايا تتحدث حديثاً عابراً ، وتنصت شاردة الذهن ، على أنه تبين لرودين بأجلى بيان أنها كانت تتلطف معه إلى حد الملق ، وأنها لم تكن بريئة من الغرض عندما دبرت هذا اللقاء بصبح ، وارتدت تلك الملابس البسيطة كل البساطة بل الأنيقة على الطراز الذى عرف عن السيدة ركامييه .

وسرعان ما كفت عن توجيه الأسئلة إليه ، وانصرفت عن ذلك إلى الحديث عن نفسها ، وعن أيام شبابها وعمن عرفت من الناس ، واستمع رودين إلى ثرثرتها بأذن واعية . ومن عجب أنها كانت وحدها تملأ رحاب الصورة التى ترسمها جميعاً بصرف النظر عن الأشخاص الذين تحدثت عنهم ، أما الشخص الذى كانت تتحدث إليه فقد دفعت به إلى أعماق الصورة حتى توارى عن الأنظار .

ومع هذا فقد عرف رودين بأدق تفصيل ما قالته السيدة لاسونسكايا لهذا الشخص أو ذلك من وجهاء القوم ، وتبين ما كان لها من أثر فى زيد وعمرو من الشعراء المجيدين . ولئن استمعت إلى السيدة لاسونسكايا لخيل إليك أن جميع الأعيان الذين عاشوا فى الربع الأخير من هذا القرن كانوا يجنون شوقاً إلى لقياها ونيل الحظوة عندها .

وكانت ترفع الكلفة فى الحديث عنهم كأنهم من أصدق أصدقائها ، ولا تمادى حتى يستخفها الفرح بهم أو تتغنى بفضائلهم ، بل كانت تصف بعضهم بأنهم أناس غريبو الأطوار . وكانت فى حديثها عن هؤلاء الأعلام تتساقط أسماؤهم من شفتيها كالهالة المتلألئة تلتف باسم هو شمسها ، بل هو اسم السيدة لاسونسكايا نفسها ، أو قل إن هذه الأسماء كانت كالرصيعة النفيسة تتوسطها جوهرة كريمة .

وكان رودين يستمع إليها ويدخن لفافات التبغ ، ولا يقول شيئاً إلا أن يدلى بين حين وآخر بملاحظة قصيرة يقطع بها حماسة هذه السيدة الثرثارة وإطنابها فى البيان . لقد كان رودين يجيد الحديث ويجد لذة فى الكلام ، بيد أنه كان لا يجيد المحادثة وإن كان مستمعاً كامل الصفات . وكان أولئك الذين لا يبعث رودين فى قلوبهم الرهبة من أول الأمر يفتحون له صدورهم فى ثقة واطمئنان ، يشجعهم على ذلك

ما كان يبديه من حسن الاستعداد والإقبال على متابعة خيوط رواية يقصها شخص آخر. وكانت عنده ذخيرة من طيبة النفس ، تلك الطيبة الفريدة التى نعدها فى أولئك الذين يشعرون بتفوقهم وامتيازهم .

وقلما كان يسمح لمناظره فى الجدل أن يغلبه على أمره ، بل كان يفحمه بحججه المنطقية الرصينة التى لا تدفع .

وكانت السيدة لاسونسكايا تتحدث بالروسية ، فتستعرض امتلاكها لناصية لغتها الأصلية ، ولو أن حديثها كانت تتخلله المصطلحات والعبارات المأثورة الفرنسية ، وكانت تتعمد الاستشهاد بالملح الشعبية البسيطة ، ولكنها لم تكن تسوقها دائماً فى الموضع المناسب ، على أن هذا الخليط العجيب من الحديث لم يقع فى نفس رودين موقعاً سيئاً ، ولو أنه كان حقا لا يلقى بالا إلى مثل هذه الأقوال إلا فى النادر .

وأدرك التعب السيدة لاسونسكايا آخر الأمر ، فأسندت رأسها إلى الوسادة الخلفية لكرسيها ذى المسندين ، والتفتت إلى رودين ، ثم لزمت الصمت .

وبدأ رودين الحديث متمهلا : « لقد أدركت الآن سبب مجيئك إلى الريف كل صيف . إنك فى حاجة إلى هذه الراحة ، فهذا الذى نجده فى الريف ، بعد الحياة فى العاصمة ، ينعش النفس ويقوى العزم ، وإنى لعلى يقين من أنك تأنسين أعظم الأنس بمفاتن الطبيعة » .

ورمقته السيدة لاسونسكايا بنظرة من طرف عينها .

« الطبيعة – أجل ، وبلا ريب . . . إنى مفتونة بها . . . ولكنك تعلم – أى ديمترى نيقولا يفتش – أن المرء حتى فى الريف لا غنى له عن صحبة ، وهو لا يكاد

يجد هنا رفيقاً ، وحسبك أن بيجاسوف هو أذكى شخص تجده فى هذه الناحية » .

« هل هو ذلك السيد العجوز الحاد الطبع الذى لقيته بالأمس ؟ » .

« هو بعينه ، فالناس حتى فى الريف يرحبون ببيجاسوف نفسه » — « فهو على الأقل يسليهم » .

فقال رودين : « إن الرجل ليس أبله ، ولكنه لا يسلك السبيل القويم . ربما لا توافقينى على هذا القول يا سيدتى ، ولكن الإنكار ، الإنكار الكامل المجرد شيء عقيم . . . لا جدوى منه ، أنكرى كل شيء يحسبك الناس فى يسر من الحكماء . وقد حدث هذا كثيراً من قبل ؛ ذلك أن البسطاء إنما هم على أتم استعداد للاعتقاد بأنك أسمى من الشيء الذى تنكرين ، وهذا غير صحيح فى معظم الأحيان ؛ لأنك أولا تستطيعين أن تلتمسى العيوب فى كل شيء ، ثم إنك لو كنت على حق فإنك لا تستطيعين التمسك بهذه العيوب فى سبيل الفوز ، فالعقل الذى طبع على الإنكار يصبح متبلداً عقيماً ، ذلك أن إشباع كبريائك يسلبك متعة التفكير الحق ، وتغيب الحياة ، بل يغيب جوهرها ، عن بصرك المحدود الذى يعميه الغضب ، وينتهى بك الأمر إلى أن تلعنى كل شيء وتجعلى من نفسك سخرية فى عين الناس ، وإنما المحب هو الذى يباح له النقد واللوم » .

وتمتمت السيدة لاسونسكايا : « ها هو ذا السيد بيجاسوف قد أهيل عليه التراب ؛ إنك لبارع فى الحكم على الناس ؛ وما كان بيجاسوف ليوافقك على ما تقول ، فهو لا يحب إلا نفسه » .

فأجاب رودين : « وهو ينتقد نفسه حتى يكون له الحق فى انتقاد الآخرين » .

وضحكت السيدة لاسونسكايا قائلة : « حتى يلقى اللوم . . . ترى ما نص ذلك

القول المأثور » ، وأخذت تبحث عبثاً عن نص ذلك القول ، ثم أردفت : « على أعتاب الآخرين ، وبهذه المناسبة ما رأيك فى البارون ؟ » .

« إن البارون رجل فذ ، رحيم القلب ، سليم المعرفة ، لكنه عديم الشخصية ، وسيظل طول عمره عالماً متوسط الحال ، ورجلا متوسط الخبرة بأمور الدنيا ، أى أنه من الهواة ، وإن شئت الإفصاح والوضوح فهو إمعة ، وهذا شىء يرثى له ! » .

فقالت السيدة لاسونسكايا : « وهذا هو الرأى الذى كونته عنه . لقد قرأت رسالته . . . وهى لا تقوم – بينى وبينك – على أساس متين » .

وسكت رودين برهة ثم سألها : « ألك جيران آخرون يثيرون الاهتمام ؟ » .

ونفضت رماد لفافتها الباجيلا بإصبعها الصغيرة وقالت :

« لا وجود لغير هؤلاء تقريباً ، فالسيدة ليبينا التى رأيتها بالأمس ، صديقة عزيزة علىّ ، ولكنها ليست أكثر من ذلك ، وأخوها أيضاً رجل من الأمجاد ، رجل صادق كل الصدق ، أما الأمير جارين فأنت تعرفه ، وهؤلاء هم كل جيرانى تقريباً ، وثم جاران أو ثلاثة آخرون ولكنهم قليلو الشأن ، فهم إما متصنعون يملأ جوانحهم التظاهر ، وإما زاهدون انصرفوا كل الانصراف عن أمور الدنيا ، وإما على خلاف ذلك قد أمعنوا فى الإقدام والجرأة ، وأنت تعلم أننى لا ألقى أحداً من السيدات ، وثم جار آخر يزعمون أنه ضرب فى الثقافة بسهم وافر حتى ليقال إنه عالم ، ولكنه بلغ الغاية فى غرابة الأطوار واستسلم لأعجب النزوات ، وإن إلكسندرين لتعرفه حق المعرفة ويبدو أنها تميل إليه ، وما أحراك ياديمترى نيقولايفتش أن تتودد إليها ، فإنها مخلوقة تهفو إليها القلوب ، وكل ما فى الأمر أنها فى حاجة إلى شىء من التهذيب ، وهذا حقيق بأن يعود عليها بالنفع الكبير » .

وقال رودين : « إنها امرأة فاتنة حقًّا » .

« إنها لطفلة بكل معانى الكلمة ياديمترى نيقولايفتش ، بل هى كالرضيع تحمله الأذرع ، لقد كانت متزوجة ، ولكن هذا كله يشبه أن . . . . لو أننى كنت رجلا ما أحببت إلا من هن على شاكلتها » .

« حقًّا ؟ »

« هذا ما كنت خليقة بأن أفعله ولاشك ، فإن مثيلاتها من النساء يمتزن على الأقل بالبراءة ، والبراءة شيء أصيل لا يقلد » .

فسألها رودين : « وهل ثم شيء غيرها يمكن تقليده ؟ » ثم ضحك ، وكان يندر أن يضحك ، فإذا ضحك علت وجهه سمة عجيبة ، فبدا كوجه الشيوخ أو هو أقرب ، وضاقت عيناه وتغضن أنفه .

ثم سألها : « ومن ذلك الشخص الغريب الأطوار ، على ما تقولين ، الذى تميل إليه السيدة ليبينا ؟ »

« هو سيد يقال له ميخائيل ميخائيلوفتش ليزنيف ، وهو من أصحاب الأراضى فى هذه الناحية » .

ورفع رودين رأسه فى دهشة وقال : « ليزنيف ؟ أتقولين إنه جارك ؟ »

« أجل ، أتعرفه ؟ »

وسكت رودين لحظة ، ثم قال : « كنت أعرفه . . . منذ زمن بعيد » ، ثم أضاف وهو يشد هدب كرسيه : « وهو إن لم أك مخطئاً رجل ثرى » .

« أجل ، إنه ثرى ، وإن كان قبيح اللباس ، يتجول راكباً عربة سباق كأنه ناظر ضيعة ، ولقد حاولت أن أحمله على القدوم إلى هنا ، فهم يقولون إنه رجل

ماهر ؛ وإن لدى بعض شئون أحب أن أتدبر فيها معه . . . وأنت تعلم أنى أدير ضيعتى بنفسى » .

وأمن رودين على كلامها بإيماءة من رأسه .

وكررت السيدة لاسونسكايا قولها : « أجل بنفسى ، فإنى لا آخذ بشىء من تلك البدع الأجنبية ، ذلك أنى أمينة على عاداتنا الروسية » ، ثم أضافت تقول : « وأنا كما ترى لا أسيئ التصرف » ، وأومأت بيدها فى حركة خاطفة .

وقال رودين متلطفاً : « لقد كنت أومن دائماً بأن أولئك الذين لا يسلمون بأن المرأة تدرك الأمور إدراكاً عملياً يظلمونها أشد الظلم » .

وابتسمت السيدة لاسونسكايا فى بهجة وسرور ، وتمتمت : « إنك لكريم حقًّا ، ثم . . . ماذا كنت أريد أن أقول ؟ وأين بلغ بنا الحديث ؟ آه ، نعم ؛ ليزنيف : إن لى شأنا معه يخص حداً من الحدود ، لقد طلبت إليه مراراً أن يحضر ، بل إنى فى انتظار قدومه اليوم ، ولكن الله يعلم : أيحضر أم لا يحضر؟ . . . فهو رجل غريب الأطوار كل الغرابة ! »

وأزيح ستر الباب فى هدوء ودخل رئيس الخدم ، وكان رجلا طويل القامة أبيض الشعر أصلع الرأس ، يرتدى سترة السهرة السوداء وربطة عنق بيضاء وصداراً أبيض .

وسألته سيدته : « ما الخبر؟ » ، ثم التفتت قليلا إلى رودين ، وأردفت فى صوت خفيض : « ألا يشبه كانتج حقًّا ؟ »

وقال رئيس الخدم معلناً : « لقد جاء السيد ليزنيف ، فهل تأذنين له بالدخول ؟ »

وهتفت السيدة لاسونسكايا : « ياإلهى ، من ذكر الشيطان ظهر له ، دعه يدخل ! »

وانسحب رئيس الخدم .

« ياله من شخص غريب الأطوار . لقد جاء آخر الأمر بل جاء فى وقت غير مناسب ، فقد قطع علينا حديثنا » .

ونهض رودين من مقعده ، ولكن السيدة لاسونسكايا حالت بينه وبين ما يريد .

« أرجوك ! ليس ثم ما يمنعنا من مناقشة الأمر فى حضورك ، فإنى أود أن تختبره كما اختبرت بيجاسوف ، ذلك أنك إذا تحدثت كنت فى حديثك كمن يصور بريشة ، أرجوك أن تبقى » .

وقد هم رودين أن يرفض سؤالها ولكنه أعمل فكره لحظة ثم بقى حيث هو .

ودخل الغرفة السيد ليزنيف ، الذى سبق أن قدمناه للقارئ ، وكان يرتدى السترة الرمادية نفسها التى يعلوها الغبار ويمسك بيديه اللتين لوحتهما الشمس تلك القبعة العتيقة عينها ، وانحنى فى سهولة ويسر محيياً السيدة لاسونسكايا واتجه صوب مائدة الشاى .

وقالت السيدة لاسونسكايا : « لقد شرفتنى بزيارتك أخيراً ياسيد ليزنيف ، هلا تجلس » ، ثم مضت تقول : « علمت أن كلا منكما يعرف الآخر » ، ولوحت بيدها فى اتجاه رودين .

ورمق ليزنيف رودين بنظرة وعلت شفتيه ابتسامة غريبة .

وتمتم وهو ينحنى انحناءة خفيفة : « إن لى هذا الشرف » .

وأمن رودين على قوله فى صوت خفيض وأرخى بصره : « لقد كنا معاً فى الجامعة »

فأجاب ليزنيف فى برود : « وتقابلنا بعد ذلك أيضاً » .

ونظرت السيدة لاسونسكايا إلى الرجلين نظرة الحيرة ، ودعت ليزنيف إلى الجلوس ففعل ، وقال : « لقد أردت مقابلتى فى شأن الحد ؟ »

« أجل ، الحد ، ولكنى أردت أيضاً أن أراك ضيفاً على ألا يجمع بيننا الحوار الوثيق . . . بل أكاد أقول القربى ؟ »

فأجاب ليزنيف : « شكراً جزيلا ، أما بخصوص الحد فقد سويت الأمر تماماً مع ناظر ضيعتك ، وقبلت جميع اقتراحاته » .

« علمت هذا »

« على أنه قال لى : إن الأوراق لا يمكن التوقيع عليها إلا إذا لقيتك شخصياً » .

« أجل هذه هى السنة التى أسير عليها ، وبهذه المناسبة اسمح لى أن أسألك . . . أو قد جرى عبيدك كافة على استئجار أراضيك بإيجار ثابت ؟ »

« بالضبط »

« ومع ذلك تلح فى تسوية مسألة الحدود ؟ إنه لكرم منك عظيم » .

والتزم ليزنيف الصمت لحظة ، ثم قال : « وهكذا جئت لألقاك شخصياً » .

وابتسمت السيدة لاسونسكايا فى تأفف وقالت : « إنى لأدرك ما ترمى إليه . . . ويستبين من لهجتك أنك بلا شك قد ترددت كثيراً فى زيارتى » .

وأجابها ليزنيف بفتور : « إنى لا أزور أحداً » .

« لا تزور أحداً ؟ ولكنك تزور ألكسندره بافلوفنا ! »

« إن أخاها من أصحابى القدامى »

« أخاها ! إننى لا أستطيع بطبيعة الحال أن أفرض صحبتى على أحد ، عفواً يا ميخائيل ميخائيلوفيتش ، اسمح لى بحكم تقدمى عليك فى السن أن عليك بشىء من اللائمة : ما الذى يدعوك إلى أن تعيش عيشة الناسك ؟ سبب ذلك أنك لا تحب منزلى ، أو أنك لا تحبنى ؟ .

« أنا لا أعرفك يا سيدتى حتى أبغضك ، وبيتك بيت رائع ، لا أكتمك أننى أكره أن أحمل نفسى ما لا تطيق ، ولايفوتك أننى لا أملك للسهرة ولاقفازاً ، ثم أننى لا أمت بصلة إلى جماعتك » .

« ولكنك تمت إليها بصلة ، تمت إليها بحسبك وتعليمك ! إنك واحد مـ

« ليس للحسب ولاللتعليم دخل فى هذا . . . » .

« إن على المرء أن يصاحب من هم على شاكلته ، أى متعة تجدها فى كديوجين إلى برميله ؟ »

« ذلك أنه كان ينعم فيه بالراحة التامة ، ثم ما الذى يدعوك إلى الظن أتجنب من هم على شاكلتى ؟ »

وعضت السيدة لاسونسكايا شفتها وقالت : « هذا أمر آخر ! ولم يبق لى أبدى أسفى لأننى لم أحظ بشرف الدخول فى زمرة من تشرفهم بصحبتك

وتدخل رودين فى الحديث قائلا : « يبدو لى أن السيد ليزنيف يغالى جنوحه إلى تلك العاطفة المحمودة المشكورة ألا وهى حب المرء لحريته الشخصية

ولم يعلق ليزنيف بحرف على ما قاله رودين ، واكتفى بأن رمقه بنظرة ، ثم ساد السكون لحظة .

وقال ليزنيف وهو ينهض من مقعده : « وهكذا يمكننى أن أعد موضوعنا منتهياً ، ولتأمرى ناظر ضيعتك بأن يرسل إلىّ الأوراق » .

« أجل يمكنك . . . ولو أنك بلغت من الخشونة ما يحملنى حقًّا على أن أرفض اقتراحك » .

« عجباً ، إن الحد الجديد يعود عليك بخير أكثر بكثير مما يعود على » .

وأنهت السيدة لاسونسكايا الكلام فى هذا الموضوع بهزة من كتفيها .

وسألته : « هلا تنتظر حتى تفطر معنا »

« شكراً جزيلا ، إنى لا أتناول الفطور أبداً ، ثم إننى أتعجل العودة إلى المنزل » .

ونهضت السيدة لاسونسكايا وقالت وهى تعبر الغرفة إلى النافذة : « لن أؤخرك بل إنى لا أجرؤ على تأخيرك » .

وشرع ليزنيف ينحنى متهيئاً للانصراف .

« إلى اللقاء ياسيد ليزنيف ! لا تؤاخذنى ، فقد أثقلت عليك » .

فقال ليزنيف : « حاشا » ، ثم غادر الغرفة .

وهتفت السيدة لاسونسكايا ملتفتة إلى رودين : « أرأيت ؟ لقد بلغنى أنه رجل غريب الأطوار ، ولكن ما بدا منه يجاوز الحد حقًّا ! » .

فقال رودين : « إنه هو وبيجاسوف مريضان بالمرض نفسه ، وهوالرغبة فى أن يكونا بدعاً بين الناس . فذاك يتظاهر بأنه إبليس ، وهذا متهكم ساخر لا يأبه

بشيء ، وفى موقف كل منهما كثير من « الأنانية » ، وكثير من الخيلاء ، وقليل من الصدق . وقليل من الحب . وهما فى الحق موقفان يقومان على خطة موضوعة وتدبير مرسوم ، فالقناع الذى يشف عن عدم الاكتراث والتراخى قد اتخذ لحمل الناس على الاعتقاد بأن الرجل لا محالة ينطوى على ذخيرة من المواهب . على أن النظرة الفاحصة خليقة بأن تكشف أنه عاطل من كل موهبة » .

وعلقت السيدة لاسونسكايا على ذلك قائلة : « وهذا يصدق على الاثنين ! لقد خلقت فيصلا فى الحكم على الناس ، وما من شيء يفوتك » .

فتمتم رودين : « أتظنين هذا ؟ » . ومضى يقول : « ومهما يكن من شيء فإنه يجدر بى حقًّا ألا أصدر حكماً على الرجل ، فقد كنت أحبه ، أحبه حب الصديق للصديق ، ولكن ما نشأ بيننا فيما بعد من سوء التفاهم . . . »

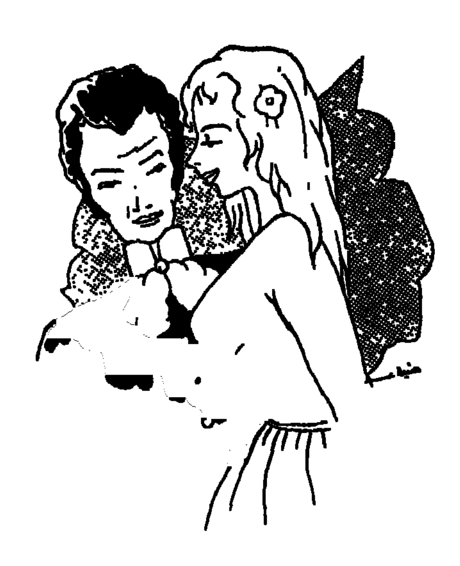
« هل تشاجرتما ؟ »

« لم نتشاجر بالمعنى الصحيح ، ولكننا افترقنا ، وأخشى أن يكون فراقنا إلى الأبد » .

« ولهذا لم تكن على سجيتك فى أثناء زيارته لى ! ، لا عليك ، وجدير بى أن أشكرك على ما أتحت لى من متعة عظيمة بقضاء هذا الصباح هنا ، فقد نعمت به حقًّا ، على أن الوقت يمضى بنا ، ولأتركك حرًّا تفعل ما تشاء حتى يحين موعد الفطور ، فلا مندوحة لى من أن أنصرف إلى شئونى ، ولاشك أن كاتب سرّى الذى رأيته ، كاتب سرى قسطنطين ينتظرنى ، وإنى لأوصيك به خيراً ، فهو شاب بارع من ذوى الفضل يقدرك أعظم تقدير . طاب صباحك ياعزيزى

ديمترى نيقولايفتش ، إنك لا تدرى مقدار ما أشعر به من امتنان للبارون لأنه كان السبب فى تعارفنا ! »

ومدت السيدة لاسونسكايا يدها إلى رودين ، فشد عليها ثم رفعها إلى شفتيه ، وخرج إلى غرفة الاستقبال ومنها إلى الشرفة ، وفيها لقى ناتاليا .



الفصل الخامس

لعل ناتاليا ، ابنة السيدة لاسونسكايا ، كانت تبدو للنظرة الأولى خالية من أمارات الملاحة والجمال ، فقد كانت نحيفة ، سمراء البشرة ، محدودبة الظهر قليلا ، ولم يكن قد اكتمل نضجها بعد ، على أن تقاطيعها كانت مليحة متناسقة بالرغم من أنها كانت أكبر مما يعهد فى فتاة بلغت السابعة عشرة من عمرها ، وكان مما يسر الناظر إليها خاصة جبين ناصع ناعم قد علا حاجبين بديعين تقوسا تقوساً حتى لاح أن الصلة قد انقطعت بينهما فى الوسط . كانت تتكلم قليلا ، وتنصت فى شغف وحماسة ، ترنو إلى المتحدث بعين المتسائل كأنها تزن كل لفظ من ألفاظه ، وكانت فى كثير من الأحيان تقف بلا حراك مستغرقة فى التفكير ويداها إلى جانبيها عاطلتان من الحركة . وكان وجهها يعكس فى مثل هذه اللحظات ما يعتمل فى عقلها ، وقد تتحير ابتسامة هينة على شفتيها فجأة ثم تختفى ، وترفع عينيها السوداوين الكبيرتين ، فتسألها الآنسة بونكور : « مابك ؟ » ، قائلة لها إنه لا يليق بفتاة فى مقتبل العمر أن تبدو مستغرقة فى التفكير شاردة اللب . ولم تكن ناتاليا شاردة اللب ، بل كانت

تدرس فى جدّ واجتهاد ، وتقرأ وتعمل بعزم وتصميم ، وكانت مشاعرها عميقة قوية وإن كانت تخفيها ، وقد بلغ من أمرها أنها كانت حتى فى طفولتها لا تصرخ إلا نادراً ، أما الآن فقلما تتنهد ، وإنما يعلو وجهها شىء من الشحوب إذا ألم بها ضيق ، وكانت أمها تعدها فتاة مؤدبة بصيرة ، وتسميها على سبيل الدعابة : « فتاتى الرجل الصادق الأمين ! » ، ولكنها لم تكن ترى أنها من أصحاب العقول النيِّرة الممتازة ، وقد جرت على أن تقول : « من حسن التوفيق أن ناتاليا ثابتة الجنان ، رابطة الجأش ، فهى لا تنزع منزعى ، وهذا خير لها غاية الخير ، ولسوف تكون سعيدة » .

ولكن السيدة لاسونسكايا كانت مخطئة ، وهيهات أن تعرف أم ابنتها إلا نادراً .

ولم تك ناتاليا تثق فى أمها كل الثقة على الرغم مما عرفت به من البر المعهود فى الأبناء نحو الوالدين .

وقالت لها السيدة لاسونسكايا مرة : « ليس لديك ما تخفينه عنى ، ولو كان عندك شىء من ذلك لأخفيته فى حنايا قلبك ، فاحتفظى برأسك لنفسك » .

ونظرت ناتاليا إلى أمها نظرة مستقيمة وحدثت نفسها قائلة : « وأى ضرر فى أن يحتفظ المرء بأفكاره لنفسه ؟ »

وعندما عثر بها رودين على الشرفة كانت ميممة صوب غرفتها بصحبة الآنسة بونكور لتضع القبعة على رأسها وتخرج إلى الحديقة ، ذلك أنها كانت قد انتهت من دروسها الصباحية ، ولم تعد تعامل معاملة الأطفال . وكانت الآنسة بونكور قد كفت منذ زمن بعيد عن تلقينها درساً فى الأساطير والجغرافيا ، ولكن ناتاليا كان مفروضاً عليها أن تقرأ كل صباح – بحضور الآنسة – كتباً فى التاريخ والرحلات

وغيرها من كتب الأدب التى يقصد بها التهذيب ، وكانت هذه الكتب جميعاً تختارها أمها التى كانت تزعم أن لها طريقة خاصة بها فى ذلك . والحق أن كل ما كانت تفعله هى أنها كانت تحيل إلى ناتاليا أى كتب تتلقاها من كتبىّ فرنسى فى بطرسبرج ، فيما عدا روايات دوماس الأصغر وأضرابه بطبيعة الحال ، لأن هذه الروايات كانت مما يسرها قراءته . وكانت نظرات الآنسة بونكور تزداد من خلف عويناتها صرامة وجموداً عن المألوف إذا رأت ناتاليا تقرأ كتب التاريخ ، فقد كانت الفرنسية العجوز تؤمن بأن التاريخ كله حافل بالشائنات ، ومن عجب أنها كانت لا تعرف من عظماء الرجال الأقدمين إلا واحداً هو قمبيز ، ولا تعرف من رجالات العصر الحديث إلا لويس الرابع عشر ، ثم نابليون الذى كانت تكرهه من صميم قلبها ، على أن ناتاليا كانت تقرأ كتباً لم تكن المربية العجوز لتشتبه حتى فى وجودها ، كما كانت تحفظ بوشكين عن ظهر قلب .

وما إن رأت ناتاليا رودين حتى علا وجهها شىء من حمرة الخجل .

وسألها قائلا : « أوخارجة أنت فى نزهة ؟ »

« نعم فى الحديقة »

« أفلا تسمحين بأن أصحبك ؟ »

فنظرت ناتاليا إلى الآنسة بونكور

وأجابت العانس العجوز فى خفة : « بكل تأكيد ياسيدى بكل سرور » .

وخلع رودين قبعته وتبعها إلى الحديقة .

وشعرت ناتاليا أول الأمر بالحرج ، وهى تسير مع رودين جنباً إلى جنب فى طول الممشى الضيق . ولكنها سرعان ما استعادت رباطة جأشها ، وسألها عن دروسها

وعن مقدار حبها للحياة فى الريف ، وكان يخالط ردودها خلجة من خلجات التهيب . ولكن هذه الردود كانت خالية من ذلك التهيب المثير للقلق الذى يتخذ فى كثير من الأحيان دليلا على الاحتشام ، أو قل إن هذا هو المقصود به حقًّا . وكان قلبها ينبض بشدة .

وسألها رودين ، وهو ينظر إليها من طرف عينيه نظرات شملتها كلها : « ألا تجدين الحياة كئيبة فى الريف ؟ »

« وكيف يمكن أن تكون كئيبة ؟ لشد ما يثلج فؤادى أن نقيم هنا . إننى لجد سعيدة هنا » .

« سعيدة . . هذا شىء عظيم ، ولكنه شعور طبيعى ، فما زلت فى مقتبل العمر » .

ونطق رودين هذه الكلمة الأخيرة نطقاً عجيباً – شابه شىء من الحسد أو من الرثاء – وقال : « آه ، الشباب ! إن الهدف الأخير للعلم هو أن يبلغ عن وعى ما وهب للشباب بلا مقابل » .

وتفرست ناتاليا فى رودين ولم تكن قد أدركت ما يرمى إليه .

ومضى يقول : « لقد قضيت هذا الصباح فى حديث مع أمك ، إنها امرأة لا نظير لها بين النساء ، وقد أدركت الآن السبب فى أن شعراءنا يعتزون بصداقتها » ، ثم أضاف بعد لحظة : « أو مغرمة أنت بالشعر؟ » .

وحدثت ناتاليا نفسها قائلة : « إنه يضعنى موضع الاختبار » . ثم قالت : « أجل ، إنى مغرمة به جداًّ » .

« إن الشعر لغة الآلهة ، وأنا شخصيًّا أحب النثر ، على أن الشعر لا يقتصر على

القصائد ، بل هو يحل فى كل مكان ويحيط بنا من كل جانب . . . انظرى إلى تلك الأشجار ، وإلى هذه السماء ، إن كل شىء ينطق بالجمال وينبض بالحياة ، وحيثما ان الجمال والحياة كان الشعر » .

واسترسل يقول : « هيا بنا نجلس هنا ، على هذه الأريكة . . . أجل ، إنى لأعتقد أنك كلما ازددت إلفاً لى . . . » ، واستقرت عيناه الباسمتان على وجهها ثم أتم حديثه . « . . . . غدونا صديقين ، ألا تعتقدين هذا ؟ »

وعادت ناتاليا تحدث نفسها قائلة : « إنه يعاملنى كما لو كنت تلميذة » ، ثم سألته دون أن تدرى ما تقوله : هل ينوى الإقامة فى الريف طويلا ؟ .

« طوال الصيف والخريف ، وربما الشتاء أيضاً ، فإنى كما تعلمين لست غنياً بحال من الأحوال ، وظروفى سيئة ، ثم إننى قد تعبت من التجول بين الأماكن المختلفة ، وآن لى أن أستريح » .

وتملكت الدهشة ناتاليا ، فسألته فى خجل : « أو تعتقد حقًّا أنه قد آن لك أن تستريح ؟ » .

وواجهها رودين قائلا : « ماذا تعنين بهذا السؤال ؟ »

فأجابت فى شىء من الارتباك : « أقصد أن غيرك قد يستريح ، أما أنت ... فينبغى لك أن تعمل وتحاول أن تكون نافعاً . عجباً ، إن لم تفعل ذلك فمن يفعله غيرك ؟ . . . » .

وقاطعها رودين قائلا : « شكراً لك على حسن ظنك ، أن يكون المرء نافعاً . . . أمر يسهل التحدث به ، ثم مر بيده على وجهه ، وكرر قوله : « أن يكون المرء نافعاً . . . إننى لو آمنت إيماناً راسخاً بأننى أستطيع أن أكون نافعاً على وجه من

الوجوه ، أو أوتيت الثقة بنفسى فأنى لى أن أجد القلوب المخلصة التى تتجاوب معى . . . ؟ » .

وأومأ رودين بيده إيماءة اليائس ، وبدا عليه ما يبدو على القانط المقهور ، حتى إن ناتاليا لم تجد بداً من أن تسائل نفسها ، أكانت الأحاديث الحماسية الزاخرة بالأمل التى صدرت عنه فى الليلة الماضية ، أحاديثه حقاً ؟ .

وهتف ، وهو يلقى إلى الوراء بجمته التى تشبه معرفة الأسد : « بل حاشا ! فإن ذلك كله هراء ، وإنك لعلى حق ، أشكرك يا ناتاليا ألكسيفنا . أشكرك من صميم قلبى » ، ولم تدر ناتاليا قط علام يشكرها . « إن كلمة منك قد ردتنى إلى واجبى ، وهدتنى الطريق الذى يجب على أن أسلكه ، أجل . ينبغى لى أن أعمل . ويجب ألا أخفى موهبتى ، إن كانت لى موهبة . يجب ألا أبدد جهدى فى الحديث وحده بل فى ثرثرة تافهة عقيم ، وكلمات لا تعدو أن تكون كلمات وحسب . . . » .

وتحدرت كلماته كالسيل ، وكان يتحدث عن خزيه من جبنه وكسله . وعن حاجته إلى العمل حديثاً بديعاً حاراً مقنعاً ، وقد انهال على نفسه باللائمة فوق اللائمة ، قائلا : « إن المرء إذا تحدث عما يفعل قبل أن يفعله جلب على نفسه الضر ، وكان مثله كمثل من يحز ثمرة على وشك النضج بدبوس . فإن فى ذلك مضيعة للجهد وعصير الحياة أية مضيعة ، وقد أقسم بأن الفكرة النبيلة خليقة بأن تجتذب القلوب . وأن أولئك الناس الذين لا يعرفون ماذا يريدون أو لا يستحقون أن يفهمهم أحد — هم وحدهم الذين لا يجدون من الناس إقبالا على تفهم ما يريدون .

وتحدث رودين فى ذلك حديثاً مفصلا ، ثم ختم حديثه بشكر ناتاليا مرة

أخرى ، ثم ضغط على يدها ضغطاً أخذها به على غرة تماماً ، وقال : « يالك من مخلوقة جميلة نبيلة ! »

وقد روعت هذه الحرية الآنسة بونكور ، فإنها بالرغم من السنين الأربعين الخاملة التي قضتها فى روسيا كان يتعذر عليها فهم اللغة الروسية ، وإنما كانت تعجب بذلاقة لسان رودين التي تخلب القلوب ، وطلاقة حديثه الأخاذ ، مما جعله يبدو فى نظرها كالمغنى الخبير بأصول الغناء أوكالممثل ، وكانت مقتنعة بأنه يتعذر على المرء أن يتوقع من قوم على شاكلة هؤلاء أن يراعوا مقتضيات الأدب والاحتشام .

ثم نهضت ، وأصلحت من شأن ثوبها بحركة مفاجئة ، وقالت لناتاليا : إن الوقت قد حان ليأووا إلى المنزل ، وخاصة أن السيد فولسوف (وهذا هو الاسم الذى كانت تطلقه على فولينتسف) قد وغد بتناول طعام الإفطار معهم .

وهتفت ، وهى تنظر إلى طريق من الطرق التي تؤدى من المنزل الى الحديقة : « عجباً ، ها هو ذا قد أقبل ! » .

والحق أن فولينتسف كان قد ظهر على بعد قليل منهم .

واقترب فولينتسف فى خُطًى مترددة وانحنى لهم عن بعد ، ثم التفت إلى ناتاليا وعلى وجهه أمارات الألم وقال : « آه ! إنك تتنزهين ! » .

وأجابت ناتاليا : « أجل ، وقد كنا على وشك العودة » .

فقال فولينتسف : « آه ! حسناً ، هلموا بنا إذن » ، ومضوا جميعاً صوب المنزل .

وسأل رودين فولينتسف ، وفى صوته نبرة عجيبة يشيع فيها الود : « كيف

حال أختك ؟ » ، وكان فى الليلة الماضية قد حدثه أيضاً حديثاً مفعماً بالود .

« شكراً ، إنها بخير ، وقد تحضر إلى هنا اليوم ، أظن أنكم كنتم تتناقشون فى أمر من الأمور عندما جئت » .

« أجل ، كنت أتحدث حديثاً غاية فى الإمتاع مع ناتاليا ألكسييفنا ، ولقد ذكرت شيئاً أثّر فىّ أثراً بليغاً » .

ولم يسأل فوليتتسف ما عسى أن يكون هذا الشيء ، وعاد الجميع إلى منزل السيدة لاسونسكايا فى سكون شامل .

* * *

واجتمع الضيوف مرة أخرى فى غرفة الاستقبال قبل الغداء ، إلا أن بيجاسوف لم يحضر ، ولم يكن رودين فى أحسن حالاته ، وراح يطلب من بندالفسكى أن يعزف شيئاً من ألحان بيتهوفن . وكان فوليتتسف يحملق فى الأرض فى صمت وسكون ، ولم تترك ناتاليا جانب أمها ، وكانت تستغرق فى التفكير حيناً ، وتطرز حيناً آخر ، ولم يستطع باسيستوف أن ينتزع نظراته المستقرة على رودين وكله انتظار لحكمة ينطق بها ، وهكذا انقضت ثلاث ساعات فى ملل لا يخفف من وقعه شيء ، ولم تأت السيدة ليبينا لتناول الغداء ، أما فوليتتسف فإنه لم يلبث أن أمر بإعداد عربته الصغيرة بمجرد أن تركت الجماعة مائدة الطعام ، وانطلق إلى الخارج دون أن يودع أحداً .

لقد أثقل الحزن قلبه لأنه كان يحب ناتاليا منذ أمد بعيد ، على أنه لم يستطع أن يحمل نفسه على التقدم إليها طالباً يدها . لقد كانت تنظر إليه بعين العطف والرعاية ولكن قلبها كان خالياً لا يعكر صفوه شيء : وكان هو يرى ذلك بجلاء ووضوح .

ولم يكن يراوده أمل فى أن يثير فى قلبها ما يزيد من حدبها عليه ، وإنما كان ينتظر الساعة التى تألفه فيها كل الألفة وتنجذب إليه بحكم العادة . وإذن ففيم كل هذا الانزعاج الذى أصابه ؟ وأى تغيير لاحظه فى ذينك اليومين ؟ إن ناتاليا تعامله كما كانت تعامله من قبل بلا تغيير ولانقصان . . .

وسواء كان قد ألمت به فكرة حملته على الظن بأنه لا يعرف شيئاً عن أخلاق الفتاة ، أو توهم أنها كانت غريبة عنه أكثر مما حسب ، أوكانت عقارب الغيرة قد دبت فى قلبه وتسلطت عليه هواجس غامضة ، فإن ذلك لم يغير من الواقع شيئاً ، فقد كان يتألم بصرف النظر عما بذله من جهد كبير فى تقليب الأمر بينه وبين نفسه .

ولحق بأخته فى غرفتها فوجدها مع ليزنيف .

وسألته : « لِمَ عدت مبكراً كل هذا التبكير؟ »

« إننى شعرت بالسأم فحسب » .

«وهل رودين هناك ؟ »

« أجل » .

وألقى فولينتسف بقبعته واتخذ لنفسه مقعداً ، والتفتت إليه أخته فى لهفة قائلة : « أرجوك أن تعاوننى يا سرجى على إقناع هذا الرجل العنيد . . . . » ، ثم أشارت إلى ليزنيف ، « . . . . بأن رودين على حظ عظيم من المهارة والفصاحة » .

وتمتم فولينتسف بشىء فى صوت متخافت .

وقال ليزنيف : « أنا لا أجادل فى هذا أبداً ، ولا . . يخالجنى أقل شك فى مهارة السيد رودين وفصاحته ، وكل ما أقوله إنه لا يروق لى » .

وسأله فولينتسف : « أو قد رأيته إذن ؟ »

« رأيته هذا الصباح فى منزل السيدة لاسونسكايا ، وأنت تعلم أنه الآن صاحب الحظوة الكبرى عندها ، ولسوف يأتى اليوم الذى تفترق فيه عنه أيضاً – ذلك أنها لن تفترق عن بندالفسكى وحده – ومع ذلك فهو الآن صاحب الحظوة إلى أن يحل ذلك اليوم . أجل رأيته ! لقد كان يجلس عندها وهى تعرضنى عليه . فتأمل ياسيدى الفاضل فيمن عندنا هنا من أشخاص غريبى الأطوار ! إننى لست حصان سباق ، ولم أتعود أن أحمل على السير متبختراً أمام الناس يستعرضوننى ، ولذلك غادرتهما من فورى » .

« وماالذى رمى بك إلى هناك ؟ » .

« ذهبت من أجل تلك المسألة الخاصة بالحد ، ولكن هذا كله كان شيئاً تافهاً لا غناء فيه ، وكل ما فى الأمر أن نفسها تاقت لرؤية سحنة وجهى ، وإن ذلك لنزوة تملكت كما تعلم نفس سيدة عظيمة » .

وهتفت السيدة ليبينا تقول فى لهجة تفيض بالحرارة : « إن تفوقه فحسب هو الذى يثيرك ، وهذا شىء لا تستطيع أن تغفره له ، وإنى لواثقة من أن قلبه يبلغ فى كماله ما يبلغه عقله ، انظر إلى عينيه عندما . . . » .

وقاطعها ليزنيف قائلا : « لقد بلغ من كمال الخلق ما هو حقيق بالإشادة والإطناب ! » .

« إنك تثير فىّ من الغضب والحنق ما يحملنى على البكاء ، ويؤسفنى حقًّا أن أظل فى صحبتك بدلا من أن أذهب إلى السيدة لاسونسكايا ، إنك لا تستحق منى ذلك » ، ثم مضت تقول فى صوت باك : « ألا فلتكف عن معاكستى وحدثنى عن شبابه » .

« عن شباب رودين ؟ »

« أى نعم ، ألم تخبرنى أنك تعرفه حق المعرفة ، وأن معرفتك به ترجع إلى سنوات طويلة ؟ »

ونهض ليزنيف وأخذ يذرع الغرفة ، ثم أنشأ يقول : « أجل ، أعرفه جيداً ، أتريدين منى أن أخبرك عن شبابه ؟ حسناً جداً إذن ، لقد ولد فى ت – ف ، وكان والده من ملاّك الأرض الرقيق الحال ، ولم يلبث أبوه أن توفى وتركه وحيداً مع أمه ، وكانت من أرحم الناس قلباً ، لقد كانت تعبده ، وكان معاشها كله على الشوفان فحسب ، وقد أنفقت عليه ما كان لديها من مال . وتعلم رودين فى موسكو ، على نفقة عم من أعمامه أول الأمر ، فلما ترعرع وبلغ أشده ، واصل تعليمه على نفقة أمير ثرىّ صغير السن نفذ إلى قلبه بختله ومكره – حسناً ، وإنى لأرجو عفوك ! – لقد فاز بصداقته ، ثم التحق بالجامعة ، ولقيته فيها وأصبحنا صديقين حميمين ، وسأحدثك فى وقت آخر عن حياتنا فى تلك الأيام ، أما الآن فلا أستطيع ذلك ، ثم سافر رودين إلى الخارج . . . » .

ومضى ليزنيف يذرع الغرفة ، وكانت السيدة ليبينا تتبعه بعينيها .

ثم أردف يقول : « ولم يكتب رودين إلى أمه وهو فى الخارج إلا فى الأقل النادر ، ولم يزرها إلا مرة واحدة زيارة استغرقت عشرة أيام أو نحوها ، وماتت السيدة العجوز فى غيبته بين يدى بعض الغرباء ، ولم تحول نظراتها عن صورته حتى لفظت أنفاسها الأخيرة ، وكثيراً ما زرتها وأنا أقيم فى ت – ف ، وكانت امرأة عجوزاً غاية فى الطيبة والكرم ، وقد ألفت أن تقدم لى مربى الكرز ، وكانت مشغوفة بابنها ديمترى ، ويحدثك السادة معشر بخوريتى أننا نحب دائماً أولئك

الذين يعجزون هم أنفسهم عن الحب ، ولكننى أعتقد أن جميع الأمهات يحببن أولادهن وخاصة إذا كانوا بعيدين عنهن .

ثم قابلت رودين فى الخارج بعد ذلك ، وقد وثقت صلتها به هناك سيدة متحذلقة عجوز من مواطناتنا قبيحة قبح الجورب القديم ، وأبقاها طوع أمره مدة طويلة جداً ، ثم هجرها . . . أو على الأصح ، وأرجو عفوك ، هجرته هى ، ثم هجرته أنا ، وهذه هى القصة كلها » .

والتزم ليزنيف الصمت ، ومر بيده على جبهته ، ثم غاص فى مقعد مريح كما يفعل المرء إذا حل به التعب .

وبدأت السيدة ليبينا حديثها قائلة : « هلا علمت ياسيد ليزنيف أنك رجل خبيث ، وأنك لا تفضل بيجاسوف فى شىء ، وإنى لأعتقد أن كل ما قلته صحيح ، وأنك لم تأت بشىء من عندك ، ولكن ما أقسى الأسلوب الذى اصطنعته فى روايتك هذه القصة ! ، فتصويرك للسيدة العجوز ، وتقديسها لابنها ، ولقاؤها الموت وحيدة ، ثم وصفك لتلك السيدة التى عرفها فى الخارج . . . ترى ما الذى دعاك إلى إلقاء هذا الضوء الكريه على هذه الصورة ؟ عجباً لك ! ألا فلتذكر أن حياة خير من عاش على ظهر البسيطة طرًّا يمكن تصويرها بمثل هذه الألوان حتى ليرتاع منها الناس أجمعين دون أن تضيف إليها شيئاً من عندك ، ولكن هذا أيضاً تجريح للناس وقذف فى حقهم ! » .

وانتصب ليزنيف واقفاً وعاد يذرع الغرفة قائلا : « إنى لأبعد ما يكون رغبة فى إيذاء شعورك ياسيدتى ، فليس من شيمتى أن أغتاب الناس أو أشهّر بهم » ، ثم فكر لحظة ومضى يقول : « لعمرى إن ما قلته فيه شىء من الحق . . . إننى لم أغتب

رودين ، ولكن من يدرى ؟ ، لعله تغير منذ ذلك الحين ، وربما كنت قد ظلمته » .

« آه ! لقد أدركت هذا الآن . . . عدنى إذن بأنك سوف تجدد صداقتك له . وتزداد معرفة به ، ثم أنبئنى برأيك الأخير فيه » .

« كما تشائين . . . ولكن فيما سكوتك ياسرجى بافلوفتش ؟ »

وفزع فولينتسف ورفع رأسه كأنما أوقظ من النوم لتوه .

« وماذا عساى أن أقول ؟ إننى لا أعرفه ، ثم إننى أشعر بصداع » .

وقالت أخته : « إنك لتبدو اليوم شاحب اللون حقًّا ، هل أنت مريض ؟ » .

فأجاب فولينتسف : « عندى صداع » ، ثم غادر الغرفة .

وشيعته السيدة ليبينا والسيدة ليزنيف بعيونهما ، وتبادلا النظرات ، ولكنهما لم يقولا شيئاً ، أما ماكان ينوء به قلب فولينتسف فلم يكن سرًّا عليهما .



الفصل السادس

وانقضى على ذلك أكثر من شهرين . وظل رودين طوال هذه المدة ملازماً منزل السيدة لاسونسكايا لا يكاد يبتعد عنه ، ولم تكن هى تستطيع شيئاً بدونه . فقد أصبح من الضرورات عندها أن تحدثه عن نفسها وأن تنصت إلى أحاديثه ؛ وأراد يوماً أن يرحل معتذرا بنفاد نقوده ، فأعطته خمسمائة روبل ، ثم اقترضت مائتى روبل أخرى من فولينتسف .

وعاد بيجاسوف لا يزور بيت السيدة لاسونسكايا إلا لماماً ، فقد كان وجود رودين يلغى وجوده . ولم يكن بيجاسوف هو وحده الذى يشعر بطغيان شخصية رودين .

لقد كان يقول مثلا : « إننى لا أحب ذلك الحكيم ، فهو يتكلف الحديث تكلف شخصية فى رواية تصور الحياة فى روسيا ، فيقول « أنا » ويتوقف عن الحديث فى وقار ، « أنا . . أجل أنا » ، ثم إن الكلمات التى يستعملها طويلة جداً ؛ فإذا أنت عطست داهمك بالحديث وشرح لك شرحاً دقيقاً لِمَ عطست ؟ ولِمَ

تسعل ؟ وإذا مدحك فعل ذلك كما لو كان يعلن ترقية رسمية ، وإذا شرع يعيب نفسه ، فعل ذلك فى سرور واستمتاع حتى لتخال أنه لن يجرؤ على مواجهة ضوء النهار ثانية ، ولكن شيئاً من هذا لا يحدث ، بل يبدو أن ذكره لمعايبه ينعشه كما لو كان قد تناول قدحا من الشراب الروسى اللاذع » .

وكان بندالفسكى يخشى رودين ويحرص على تلمس الطريق إلى مرضاته ، أما علاقة فولينتسف برودين فكانت غريبة ، ذلك أن رودين كان يدعوه الطاهر العفيف ويمتدحه فى حضوره وفى غيبته ، ولكن ذلك لم يكن يقربه من قلب فولينتسف الذى كان دائماً ينفد صبره ويتملكه الغيظ كلما شرع رودين يتغنى بخصاله فى حضرته ، وكان يحدث نفسه قائلا ، « أتراه يحاول خداعى ؟ » ويثور فى قلبه العداء له ، وكان بالرغم عنه يغار منه من أجل ناتاليا ؛ وكان رودين أيضا لا يكاد يشعر بالود نحوه على الرغم من أنه كان يفيض فى الترحيب به ويلتمس الطريق إلى قلبه بمدح طهره وعفته ويقترض المال منه ، وكان من العسير أن نصف حقيقة شعور الرجلين عندما كان كل منهما يشد على يد أخيه مصافحاً فى صداقة وود ، وينظر إلى عينيه نظرة فاحصة مستطلعة .

وظل باسستوف يعظم رودين ويتعلق بالكلمات التى تخرج من شفتيه ، وكان رودين لا يوليه من عنايته إلا القليل . وقد حدث يوماً أن قضى معه الصباح بطوله يناقش مهام الحياة ومشكلاتها العويصة ، وأثار فيه حمية وغيرة عظيمين ، إلا أنه تجاهله من بعد ، والظاهر أنه لم يكن يسعى إلى النفوس الطاهرة المخلصة إلا بالقول دون الفعل ، ولم يأخذ رودين قط فى مناقشته ليزنيف الذى كان قد بدأ فى زيارة السيدة لاسونسكايا ، ويبدو أنه كان يتجنب الاجتماع به . وكان ليزنيف من

ناحيته يعامله ببرود ، وإن كان قد امتنع عن إبداء رأيه الأخير فيه مما أغضب السيدة ليبينا كثيراً ؛ فقد كانت تعجب برودين وتؤمن بليزنيف .

وكان كل من فى بيت لاسونسكايا يلبى نزوات رودين ، ويجيبه إلى أقل رغبة يبديها ، وكان برنامج اليوم يتوقف عليه تماما ، فلم يكن القوم يخرجون فى نزهة طلباً للمتعة بدونه ، إلا أنه لم يكن ممن يميلون كثيراً إلى النزهات والمسرات التى تأتى عفواً ، فكان يشترك فيها اشتراك البالغين فى ألعاب الأطفال ، متخذا سمة التواضع اللطيف يشوبه شىء من السأم . على أنه كان يهتم بجميع الأمور العملية ، فكان يباحث السيدة لاسونسكايا فى إدارتها لأملاكها وفى تنشئة أطفالها وفى مشكلاتها المنزلية وفى شئونها عامة ، وكان ينصت إلى خططها ويناقشها فى كل تفصيل من تفصيلاتها وإن هان ، ويقترح ما يراه من وجوه الإصلاح والتجديد ، وكانت هى تثنى عليه بالكلام فحسب ، ولا تخطو بعد ذلك خطوة ، فقد كانت فى المسائل المتعلقة بالعمل تأخذ بنصح ناظر زراعتها ، وكان خادماً أوكرانيًّا كهلا أعور طيب السريرة وإن كان صاحب مكر ودهاء ، وقد ألف أن يقول وهو يبتسم ويزر عينه الواحدة : « إن عجائز الجياد هى خير من يعمل » .

ولم يكن رودين يكثر الحديث أو يطيله مع أحد بعد السيدة لاسونسكايا إلا الآنسة ناتاليا ، فقد كان يدفع إلى ناتاليا بالكتب سرًّا ، وينفض إليها مطامحه فى ثقة واطمئنان ، ويقرأ لها الصحف الأولى من مقالاته وكتبه التى يزمع نشرها ، وكثيراً ما كانت ناتاليا تعجز عن إدراك معناها ، على أن رودين لم يكن فيما يظهر يعنيه أن تفهم عنه أو لا تفهم ، طالما أنها كانت تصغى إليه ، ولم تكن صداقته الوثيقة بناتاليا بالشىء الذى ترتاح له السيدة لاسونسكايا كل الارتياح ، فقد

كانت تحدث نفسها قائلة « آه ، لا بأس . ولندعها تثرثر معه قليلا وهى فى الريف .
فإن الطفلة تسليه . وليس فى هذا من ضير كبير ، فإنها بلا شك ستفيد منه . أما فى
بطرسبرج فإن الأمر يختلف عن ذلك كل الاختلاف . . » .

وقد أخطأت السيدة لاسونسكايا ، لأن ذلك لم يكن ثرثرة طفلة ؛ فقد كانت
ناتاليا تنصت فى نهم إلى كلمات رودين وتحاول أن تتبين مراميها ، وكانت تخضع
أفكارها وشكوكها لحكمه ؛ كان مشيرها وهاديها ، ولم يكن قد استيقظ فيها حتّى
ذلك الحين إلا رأسها ، إلا أن الرأس الصغير لا يظل يتحرك من تلقاء نفسه مدة
طويلة ، فما أحلى تلك اللحظات التى كانت تقضيها ناتاليا جالسة على أريكة من
أرائك الحديقة فى ظل شجرة الدردار اللطيف النسمات تنصت إلى رودين وهو يقرأ
لها « فاوست » لجوته ، أو يقرأ لها هوفمان أو « رسائل » بتينا ، أو يقرأ لها نوفالس ،
ثم لا يلبث أن يتوقف ليشرح بعض الفقرات التى كانت فيما يبدو غامضة عليها !
وكانت ناتاليا تتكلم الألمانية بصعوبة ، كما هو شأن معظم سيداتنا الشابات . ولكنها
كانت تفهمها جيداً . وقد عمد رودين ، وهو البصير بالشعر الألمانى الخبير
بالرومانتيكية عند الألمان المحيط بفلسفتهم ، إلى الانطلاق بها إلى تلك العوالم المصونة
المكنونة ، فأخذت تتكشف أمام نظراتها المتطلعة جميلة يحف بها الغموض .
وفاضت من بين صفحات الكتاب الذى كان رودين يحمله بين يديه صور رائعة ،
وأفكار جديدة مشرقة انسابت إلى نفسها انسياب الغدير يشدو بالنغم العذب ،
وومض فى قلبها الذى هزه الفرح السامى بالمشاعر العظيمة قبس النشوة المقدسة هيناً
رفيقاً ، ثم لم يلبث أن غدا شعلة تتوهج .

* * *

وسألته ناتاليا مرة ، وهى تجلس بجوار النافذة إلى منسج تطريزها « خبرنى : أوقد عزمت على قضاء الشتاء فى بطرسبرج ؟ أليس هذا ما عولت عليه ؟ »

فأجابها رودين وقد أرخى الكتاب الذى كان يتصفحه حتّى استقر على ركبتيه : « لست أدرى شيئاً عن ذلك ، وسأفعل إذا تهيأت لى الوسيلة »

وكان يتحدث حديث من فترت همته ، فقد كان متعباً ، ولم يك قد أدى عملا منذ الصباح .

« يخيل إلى أنك لن تعجز عن التماس الوسيلة »

وهز رودين رأسه قائلا : « هذا ما يخيل إليك » ، ثم التفت التفاتة ذات مغزى ، وكانت ناتاليا تريد أن تقول شيئا ولكنها أمسكت .

ثم بدأ رودين الحديث مشيراً صوب النافذة : « انظرى ، أترين شجرة التفاح القائمة هناك ؟ لقد ناءت بثقل ما تحمل من ثمارها ووفرته ، وإنها رمز للعبقرية الحق » .

وأجابت ناتاليا : « بل ناءت بما تحمل لأنه لم يكن لها معين » .

« إنى لأدرك ما ترمين إليه ياناتاليا ألكسييفنا ، ولكن ليس من اليسير على المرء أن يجد له معيناً » .

« يخيل إلى أن عطف الآخرين . . إن الوحدة على كل حال . . » وتلعثمت ناتاليا فى حديثها ، واحمر وجهها خجلا ، ثم أردفت متعجلة : « وما الذى سوف تفعله فى الريف فى الشتاء ؟ »

« ما الذى سوف أفعله ؟ أتم مقالى الطويل ، وإنك لتذكرينه ، فهو يدور

حول الجانب المفجع فى الحياة وفى الفن ، وقد أطلعتك على خطته ذلك اليوم ، بل بعثت به إليك » .

« أوقد عزمت على نشره ؟ »

« كلا »

« كلا ؟ فمن أجل من إذن بذلت فيه جهدك ؟ »

« فلنقل إنه من أجلك »

وخفضت ناتاليا بصرها وقالت : « إن ذلك يكون تضحية بالغة منك »

وسأله باسستوف فى حياء وكان يجلس على مبعدة منه : « ما موضوع المقال فيما قلت ؟ »

وكرر رودين قوله : « الجانب المفجع فى الحياة وفى الفن ، وسيقرؤه أيضا السيد باسستوف ، ولكنى لم أستوعب فكرتى الرئيسية بعد ، ذلك أننى لم أستطع حتى الآن أن أستبين المدلول المفجع للحب »

وكان رودين يتحدث عن الحب حديثا منطلقاً مراراً وتكراراً ، وكانت الآنسة بونكور تفزع بادئ الأمر عند سماعها لفظ « الحب » وترهف السمع كما يفعل جواد الحرب العجوز عند سماعه النفير ، ثم ألفت سماعه فأصبحت تكتفى بزم شفتيها وتتعاطى السعوط فى فترات منظمة .

وقالت ناتاليا فى تهيب : « يلوح لى أن الجانب المفجع فى الحب هو الحب من طرف واحد »

فأجاب رودين : « كلا البتة ! فإن ذلك هو الجانب المضحك فى الحب ، ويجب أن يوضع السؤال وضعاً يختلف عن هذا الوضع بالمرة . . يجب أن يتعمق

المرء أكثر من هذا . . الحب ! » ثم مضى يقول « إنه لسر من أوله إلى آخره ، فى إقباله ونموه وزواله ، فهو يقبل تارة ثابت الخُطَى على حين غرة ، مشرقاً كمطلع الصبح ، ويخبو تارة مدة طويلة ، كالنار تحت الرماد ، ليشتعل فى الفؤاد حين يبدو أن كل أثر له قد ضاع ، وينساب تارة إلى القلب كالأفعى ، ثم ينسل منه فجأة ، أجل ، أجل إنه لموضوع خطير ، ولكن من ذا الذى يحب فى زماننا هذا ؟ ومن ذا الذى يجسر على أن يحب ؟ » .

ثم استغرق رودين فى تأملاته .

وسأل فجأة : « لِمَ لَمْ نر السيد فولينتسف منذ أمد بعيد ؟ » واصطبغت وجنتا ناتاليا بحمرة قانية وطأطأت رأسها منحنية على منسج تطريزها .

وأجابت هامسة : « لست أدرى » .

وهتف رودين وقد تهيأ للنهوض « ياله من رجل عظيم نبيل ! لعله خير مثل للسيد الروسى الحقيقى »

ورمقته الآنسة بونكور من طرف عينيها الفرنسيتين الصغيرتين .

وراح رودين يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً ، ثم دار على عقبه فجأة وقال : « هل لاحظت ذلك فى شجرة البلوط ؟ ثم إن شجرة البلوط شجرة عظيمة لا تسقط أوراقها إلا عندما تبدأ الأوراق الجديدة فى النبت »

وأجابت ناتاليا فى تمهل : « أجل ، لقد لاحظت ذلك »

« وذلك هو عين ما يحدث للحب القديم فى قلب قوى ، فهو وإن كان قد ذوى فعلا لا يفتأ يتلبث حتى يدهمه حب جديد فيقتلعه من جذوره »

ولم تعلق ناتاليا على قوله بشىء .

وساءلت نفسها : « ترى ما الذى يعنيه ؟ »

ووقف رودين لحظة لا ينبس ببنت شفة ، ثم ألقى بشعره إلى الوراء ، وغادر الغرفة .

ومضت ناتاليا إلى غرفتها ، وجلست طويلا على فراشها حيرى تتأمل فى كلمات رودين الأخيرة ، ثم شبكت يديها فجأة وأخذت تبكى بكاءً مرًّا – أما لماذا بكت . . فالله يعلم ! بل إنها هى نفسها لم تستطع أن تعرف سبباً لانهمار الدموع فجأة من عينيها . كانت تكفكف عبراتها مرة بعد مرة ، ولكنها كانت تنهمر من جديد ، كالماء يتدفق من عين طال احتباس الماء فيها .

* * *

وتحدثت السيدة ليبينا فى اليوم نفسه مع ليزنيف عن رودين ، ورفض ليزنيف أن يستجيب لها أول الأمر ، بيد أنها كانت قد نوت أن تحمله على ذلك حملا .

وقالت له : « أرى أنك ما زلت تكره رودين كما كنت تكرهه من قبل ، وقد امتنعت عن قصد أن أسألك فى ذلك حتى الآن ، على أنه لا شك فى أنك استيقنت بعد : هل تغير أو لم يتغير؟ وأنا أريد أن أقف على سبب كراهيتك له »

وتشدق ليزنيف بالقول فى لهجته الباردة : « على رسلك ، ما دمت لا تستطيعين حمل نفسك على الصبر ، ولكن لا تغضبى منى ! »

« لا بأس ، وأرجو أن تبدأ فى الحديث ! »

« دعينى أقل ما أريد . . . »

« حسناً جداً ، ولتبدأ »

وقال ليزنيف وقد شرع يجلس فى تمهل على الأريكة : « وهكذا أجد لزاماً

عليَّ أن أنبئك بأنني أكره رودين فعلا ، إنه رجل بارع . . . »

« لا مناص لى من القول بذلك ! »

« إنه رجل بارع جداً ، وإن كان فى جوهره سطحىّ التفكير . »

« ليس هذا إلا مجرد كلام ! »

وعاد لنزنيف يقول : « إنه فى جوهره سطحى التفكير ، ولكن ليس فى هذا ضير كبير ، فكلنا هذا الرجل ، ثم إنى لآخذ عليه أنه مستبد فى الصميم ، كسول ، لم ينل قسطاً كافياً من التعليم . . »

فهتفت ليبينا : « رودين . . . لم ينل قسطا كافياً من التعليم ! »

وكرر ليزنيف قوله بالنغمة نفسها : « لم ينل قسطاً كافياً من التعليم ، ذلك أنه يحب التطفل على غيره من الناس ، ويحب أن يكون له شأن ، وما إلى ذلك ، وكل هذا من الأمور الطبيعية ، أما أسوأ ما فى الأمر فهو أنه بارد كالثلج »

« بارد ؟ تلك الروح المتأججة ؟ »

« أجل ، إنه بارد كالثلج ، وهو يعلم هذا ويتظاهر بأنه متأجج العاطفة » ، وكانت الحمية قد أخذت تستولى على ليزنيف شيئاً فشيئاً ، فأردف يقول : « وأسوأ ما فى الأمر أنه يلعب لعبة خطيرة ولو أنها فى الحق ليست خطيرة عليه ؛ فهو لا يخاطر بفلس أو بشعرة على تلك اللعبة ، فى حين أن غيره يخاطرون فيها بأرواحهم . . » .

« عم . . عمن . . . تتحدث ؟ إنى لا أفهمك »

« أسوأ ما فى الأمر أنه رجل مخادع ، فقد كان من الحرى برجل بارع مثله أن يعرف قيمة كلماته ؛ ومع ذلك فإنه ينطق بها كما لو كانت تكلفه حقًّا شيئاً ما ، وإنى لأسلم بأنه محدث ماهر ، إلا أن فصاحته ليست من نوع الفصاحة التى عرف

بها الروس ، ثم إن الكلمات المنمقة تغتفر إذا صدرت من فتى ، أما بالنسبة لرجل فى سنه فإن من العار أن يستمتع المرء برنين صوته هو ويتباهى بذلك ! »

« يخيل إلىّ أنه يستوى لدى السامعين أن يكون المتحدث من المتباهين أو لا يكون . »

« عفواً يا سيدتى ، ليس الأمر كما ذكرت ، فقد يحدثنى أحد الناس بكلمة فتتأجج منى العاطفة ، وقد يحدثنى آخر بالكلمة نفسها أو بأجمل منها فلا أكاد ألقى بسمعى إليه ، فما السر فى ذلك ؟ »

وأجابت السيدة ليبينا : « أنت وحدك الذى لا تلقى بسمعك »

فقال ليزنيف : « أجل ، لا ألقى بسمعى ، ولو أن أذنىَّ فيما يظن كبيرتان بما فيه الكفاية ، وحقيقة الأمر أن ثم كلمات تظل هى هى مجرد كلمات ، ولا يمكن أبداً أن تخرج إلى حيز الأفعال . ومع ذلك فإن هذه الكلمات نفسها قد تفتن قلباً فتيًّا وتلحق به الدمار »

« ولكن عمن تتحدث ؟ عمن ؟ »

والتزم ليزنيف الصمت لحظة ثم قال : تريدين أن تعرفى عمن أتحدث ؟ أتحدث عن ناتاليا » .

وتملك الذهول السيدة ليبينا لحظة ، ثم ابتسمت ، وأنشأت تقول « يا إلهى ، ما أعجب ما يساورك دائماً من أفكار ؛ إن ناتاليا ليست إلا طفلة أو هى أكبر قليلا ، ثم إنه لو فرض أن كان كلامك صحيحاً فكيف يذهبنّ بك الظن إلى أن أمها . . . »

« إن أمها امرأة تغلب عليها « الأنانية » ولا هم لها إلا نفسها ، ثم إنها مؤمنة

كل الإيمان بقدرتها على تنشئة الأطفال ، فلا يساورها أبداً أى قلق من ناحيتهم . . . ياللعار ! ويالها من فكرة ! وحسبها أن تنطق بكلمة أو تلقى بنظرة مهيبة حتى يستوى كل شىء فى مجراه الصحيح . وذلك هو ما تظنه هذه السيدة التى تتوهم أنها نصيرة المواهب ، وأنها أوتيت الحكمة وما إلى ذلك مما لا يعلمه إلا الله ، مع أنها فى حقيقة الأمر لا تعدو أن تكون أرملة عجوزاً حمقاء ؛ إن ناتاليا لم تعد طفلة ، وصدقينى أنها تفكر أكثر منى ومنك ، بل أعمق منى ومنك ، وإن من العار أن يلقى بفتاة فى مثل استقامتها ورقة عواطفها وحميتها فى أحضان ممثل ، بل فى أحضان عيهور ؛ على أن هذا أيضاً لا ينافى طبيعة الأشياء » .

« عيهور ؛ أتقول : إنه عيهور ؟ »

« أجل ، وإلا فخبرينى يا سيدتى ماذا يكون وصفه فى بيت السيدة لاسونسكايا ؟ أو يليق برجل أن يكون معبوداً فى بيت وصاحب الوحى فيه ، يتدخل فى شئونه وفى مهاترات الأسرة ومنازعاتها ؟ »

ونظرت إليه السيدة ليبينا فى ذهول ثم قالت : « إنى لا أطمئن لك يا ميخائيل ميخائيلوفتش ، فقد احمر وجهك وثارت أعصابك ، ولا شك أن وراء كل هذا شيئاً آخر . . . »

« هذا ما توقعته ؛ فإنك إذا حاولت أن تحدثى امرأة عن وعى وإدراك بما استقر فى نفسك من يقين فإنها لا تهدأ إلا إذا انتحلت سبباً وحجة لا تمت للموضوع بصلة تتذرع بهما لسؤالك : لِمَ صورت الأمر على هذا الوجه ولم تصوريه على الوجه الآخر ؟ »

وأثار ذلك غضب السيدة ليبينا فقالت : « مرحى يا سيد ليزنيف ؛ إنك الآن

فى سبيلك إلى أن تكون عدوًّا لدوداً للمرأة مثل السيد بيجاسوف ، فعلى رسلك .
ولكننى على الرغم من كل ما عرفت به من حدة الذكاء فأجد من العسير أن أصدق أنك قد توصلت إلى معرفة كل إنسان وكل شىء فى مثل هذا الوقت القصير ، إن من يستمع إليك يظن أن رودين رجل من طراز طرطوف . . . »

« العجيب فى الأمر أنه لم يبلغ مبلغ طرطوف نفسه . فقد كان طرطوف على الأقل يعرف ما يسعى إليه . أما هذا الرجل فعلى الرغم من كل ما اتصف به من ذكاء . . . »

« ماذا تريد أن تقول عنه ؟ أفصح أيها الرجل الظالم البشع ! »

وانتصب ليزنيف واقفاً ، وأنشأ يقول : « على رسلك يا سيدتى إنما أنت الظالمة لا أنا ، لقد ساءك منى حكمى القاسى على رودين ، ومن حقى أن أقسو فى الكلام عنه ؛ وربما أكون قد دفعت ثمناً غالياً فى سبيل هذا الحق ، وإنما أنا أعرفه حق المعرفة وحسبى ما عشت معه من زمن . وإنك لتذكرين أننى وعدتك أن أقص عليك فى يوم من الأيام قصة حياتنا فى موسكو ، ويخيل إلى أن ذلك ما لابد أن أفعله الآن . فهل تصبرين على سماع قصتى ؟ »

« تكلم ، تكلم . »

« ليكن ما تريدين »

وأخذ ليزنيف يذرع الغرفة متمهلا روحة وجيئة . ويقف فى الحين بعد الحين ويحنى رأسه ، ثم شرع يقول :

« لعلك تعلمين أننى فقدت والدى فى مطلع حياتى ، ولم يكن لى من الإخوة من يكبرنى منذ بلغت السابعة عشرة من عمرى ، وأقمت فى منزل عمتى بموسكو .

أفعل ما يحلو لى . لقد كنت شاباً فىّ من سطحية التفكير والغرور الشىء الكثير .
أحب التظاهر والمباهاة ، والتحقت بالجامعة وسلكت مسلك الطالب ، وسرعان ما وقعت فى مأزق ، ولن أخبرك عن كنه هذا المأزق فإنه غير جدير بأن يروى . لقد كذبت ، وكانت كذبة فاحشة ، وانكشف أمرى ، وثبت جرمى ، وعنفت علناً ، فذهلت وبكيت كما يبكى الطفل ؛ حدث هذا فى غرفة صديق وبحضور كثيرين من زملائى الطلبة . فشرعوا جميعاً يضحكون منى ، يضحكون جميعاً اللهم إلا طالباً واحداً ، كان هو ، على ما أحب أن أوجه إليه نظرك ، أشد الطلبة استهجاناً لمسلكى عندما أمعنت فى كذبى ، ولا شك أنه رثى لحالى ، ومهما يكن من شىء فقد أخذنى من ذراعى وقادنى إلى غرفته »

وسألته السيدة ليبينا : « هل كان هذا الطالب هو رودين ؟ »

« كلا لم يكن رودين . بل كان رجلا يندر أن يجد المرء مثله بين الرجال . وهو الآن فى عداد الأموات . وكان اسمه بوكورسكى . ولا أستطيع أن أصفه فى بضع كلمات . ولو أننى شرعت أتحدث عنه فلن يطاوعنى قلبى على الحديث عن سواه . كان صافى القلب سامى النفس يمتاز بذكاء لم أصادفه فى أحد قط . وكان يقيم فى غرفة صغيرة منخفضة السقف فى قمة منزل من المنازل الخشبية . وكان فقيراً معدماً يتحايل على العيش بإعطاء الدروس . وكانت تمر به أوقات لا يستطيع فيها أن يقدم قدحاً من الشاى لزائر يلم به ، أما الأريكة الوحيدة التى كانت عنده فقد تهاوت من الوسط حتى بدت فى هيئة القارب . ومع ذلك كان يزوره الكثيرون على الرغم من كل هذه المنغصات ، ويحبه الجميع . فقد كان يجذب إليه قلوب الناس كافة . وهيهات أن تتصورى مقدار ما ينعم به الجالس فى غرفته الصغيرة فى لطف وأنس

يغمر قلبه بالدفء ، وهناك لقيت رودين ، وكان قد افترق لتوه عن أميره الصغير »

وسألته السيدة ليبينا « وما الذى كان يمتاز به بوكورسكى هذا عن سائر الناس ؟ »

« ليس من اليسير أن أصف لك ذلك فى كلمات ، إن طبيعته الشاعرية الصادقة هى التى كانت تجذبنا جميعاً إليه ؛ لقد كان ظريفا أنيساً مسلياً كالطفل على الرغم من صفاء عقله وسعة مداركه ، وما زال يتردد فى أذنى رنين ضحكته الدالة على الطفولة ، ولكنه كان فى الوقت نفسه ، يشعل صورة مصباح فى محراب الله ، على حد قول شاعرٍ حبيب من زمرتنا كانت به جِنَّة » .

وعادت السيدة ليبينا تسأله : « وكيف كان حديثه ؟ »

« كان جيد الحديث إذا تهيأت له نفسه ، لكنه لم يكن فى ذلك من المحدثين الذين لا يشق لهم غبار ، حتى لقد كان رودين آنئذ أفصح منه بمراحل » .

وتوقف ليزنيف عن الحديث وشبك ذراعيه على صدره ثم قال : « لم يكن بوكورسكى ورودين يتفقان إلا فى القليل ؛ فقد كان رودين أقوى بادرة وأشد اندفاعاً وعبارته أكثر رنيناً ، بل لعله كان أكثر حماسة وغيرة ، والظاهر أنه كان أعظم موهبة من بوكورسكى بكثير ، إلا أنه كان فى حقيقة الأمر يبدو ضئيلا هزيلا إذا ما قورن ببوكورسكى ، وكان رودين بارعاً فى بسط فكرة من الأفكار ؛ فقد كان أستاذاً فى فن الجدل ، على أن الأفكار لم تكن وليدة عقله هو ، بل كان ينتحل أفكار الآخرين وخاصة أفكار بوكورسكى ؛ وإنك إذا نظرت إلى بوكورسكى وجدته هادئاً وديعاً بل ضعيفاً ، إلا أنه كان مفتونا بالنساء يحب المرح ويستطيع أن يثبت لأى إنسان ، أما رودين فكان فيما يظهر ممتلئاً بالحمية والبسالة والحيوية ؛

ولكنه كان فى قرارة نفسه بارد العاطفة يكاد يكون رعديداً حتى تخدش كبرياؤه فتثور حميته كلها . وقد بذل رودين غاية ما فى وسعه لكى يأسر قلوب الناس . على أنه كان يتوصل إلى ذلك بالمبادئ والأفكار العامة . وكان له – حقًّا – نفوذ عظيم على الكثيرين . ومع ذلك لم يكن يحبه أحد ، ولعلنى كنت الشخص الوحيد الوثيق الصلة به . ذلك أن الناس كانوا يقاسون من نيره واستبداده ، أما بوكورسكى فقد كان الجميع يذعنون له طائعين مختارين ، ويجدر بى أن أذكر عن رودين أنه ما كان ليرفض قط أن يتحدث مع أى إنسان أو يناقشه ، ولم يكن واسع الاطلاع ، ولكن مما لا شك فيه أنه كان قد قرأ أكثر من بوكورسكى ومنا جميعاً بكثير . ثم إن عقله كان مرتباً وذاكرته عارمة . وهذا هو الشىء الذى يؤثر فى الشباب بالذات . فهم يتصايحون فى طلب الاستنتاجات والنتائج ، النتائج بأى ثمن . ولو كانت زيفاً وبهتاناً ! والإنسان ذو الضمير الحى الذى لا يتلون ولا يتقلب لا يفعل ذلك . وحسب المرء أن ينبئ هؤلاء الشباب بأنه عاجز عن أن يقول لهم الحق كاملا ، لأنه هو نفسه لا يعرفه حتى يصموا آذانهم عنه ولا يعودوا يستمعون إليه . وكذلك لا يستطيع المرء أن يخدعهم ، لأنه إذا شاء أن يفعل اقتضاه ذلك أن يكون على شىء من الإيمان بأنه يعرف هذا الحق . وهذا بعينه هو السبب الذى جعل لرودين مثل هذا السلطان العظيم علينا . ذلك أنه لم يكن على ما بينت لك وشيكاً ، عظيم الحظ من القراءة ، ولكنه قرأ كتباً فلسفية ، وقد تهيأ عقله لها إلى حد أنه كان يدرك مغزى أى شىء يقرؤه وينفذ من فوره إلى أعماق الموضوع ويفصل من كل ناحية ما يصل إليه من نتائج نيرة بارعة كاشفاً عن آفاق عقلية جديدة . والحق أن زمرتنا كانت فى ذلك الوقت من الشباب الغريرين ، أو قل من أنصاف المتعلمين من

الشباب . وكانت الفلسفة والفن والتعليم بل الحياة نفسها فى نظرنا ليست فى واقع الأمر إلا عدداً من الكلمات . أو لعلها كانت نظرات جذابة جميلة . ولكنها مبعثرة لا رابط لها . ولم نكن ندرك أو نحس الصلة التى تربط هذه النظرات بعضها ببعض أو الناموس الأكبر الذى يسير عليه الكون . ولو أننا كنا نناقشها مناقشة مبهمة ونحاول جاهدين أن نفهمها . وكنا إذا أصغينا إلى رودين خيل إلينا أننا قد اهتدينا آخر الأمر إلى تلك الصلة التى كانت تراوغنا . وأن النقاب قد رفع عنها . ولعل رودين لم يكن فى ذلك مبتكراً . ولكن ماذا يهمنا من هذا الأمر ؛ إنما يهمنا أن كل شىء قد ردّ إلى وضعه الطبيعى وارتبطت فجأة حلقات ما كان مبعثراً . ونهض أمامنا كأنه الصرح . وغمر الضوء كل شىء . وشاع الحق فى أوصاله ولم يبق شىء بلا حس . ولم يبق شىء عارض . وساد كل شىء تدبير وجمال يتمشيان مع العقل . واتخذ كل شىء معنى واضحاً وخفياً فى آن واحد . وارتبطت كل ظاهرة من ظواهر الحياة بغيرها فى نهج واحد . وغشى نفوسنا لون من ألوان الخشية التى يصاب بها أهل التقى ، ومست قلوبنا هزة حلوة إذ أحسسنا بأننا أصبحنا شرايين حية للحقيقة السرمدية أو سبيلا إلى غاية أكبر . . وبعد أفلا يبدو لك كل هذا سخيفاً ؟ »

فأجابت السيدة ليبينا فى بطء وتمهل : « كلا ألبتة ، ولِمَ يبدو لى كذلك ؟ إننى لا أفهم كل ما تقول ، ولكنى لا أظنه سخيفاً »

ومضى ليزنيف يقول : « لا شك فى أننا ازددنا حكمة منذ ذلك الحين . وقد يبدو لنا ذلك كله مضحكاً الآن ، ولكننى أعود فأقول : إننا كنا مدينين بالكثير لرودين فى تلك الأيام ، وكان بوكورسكى بلا أدنى ريب أنبل نفساً . يبث فينا

الحمية والقوة ، على أنه كانت تمر به أوقات تفتر فيها همته ويلتزم الصمت . فقد كان سريع التأثر معتل الصحة . إلا أنه كان إذا نشر جناحيه فالله يعلم مدى ما يبلغ فى تحليقه ! لقد كان يضرب فى كبد السماء ! أما رودين . ذلك الفتى الوسيم الرشيق ، فقد كان مليئاً بالصغار . بل كان قد أمعن فى الثرثرة وأولع بالتدخل فى كل صغيرة أو كبيرة وتعريف كل شيء وشرح كل شيء . والظاهر أنه لم يكن ثم حد لفضوله . فقد كان سياسياً بطبعه ! إنى لأتحدث عنه كما عرفته وقتئذ . ولكنه لم يتغير مع الأسف . ثم إن مثله لا يتغير أبداً . ويصدق هذا عليه وهو فى سن الخامسة والثلاثين ، وقل من الناس من يستطيع أن يقول عن نفسه قدر ما قلت »

وقالت السيدة ليبينا « اجلس ، فإنك تصيبنى بالدوار بغدوك ورواحك » .

وأجاب ليزنيف متلعثماً : « ذاك ديدنى . ثم إننى بعد أن تهيأت لى فرصة الدخول فى زمرة بوكورسكى ، كنت كالرجل يولد من جديد ، ولا أخفى عليك . أننى أصبحت متواضعاً ، محباً للاستطلاع ، مقبلا على التحصيل . تتملكنى نشوة ويعلونى وقار حتى كأننى وهبت نفسى لخدمة الله ، والحق أننى عندما أفكر فى اجتماعاتنا . لا أجد مناصاً من الاعتراف بأنه كان فيها خير كثير ، بل كان فيها ما يهز القلوب ، فلتتخيلى اجتماعاً يعقده خمسة أو ستة من الشبان حول شمعة واحدة . ويشربون الشاى الكريه بالكعك اليابس . ألا ليتك شهدت تلك الوجوه جميعاً وسمعت الأحاديث التى كنا نتبادلها ، لقد كانت العيون تلتمع بنار الحماسة . والخدود تتوهج والقلوب تنبض ونحن نتحدث عن الله . وعن الحقيقة وعن مستقبل الإنسان ، وعن الشعر . وماذا علينا لو تحدثنا أحيانا حديثاً باطلا فاستبدت بنا النشوة بلا مسوغ ولا داع ؟ كان بوركوسكى يجلس وقد وضع ساقاً على

ساق ، وأسند خده الشاحب إلى يده وتألقت عيناه ؛ وكان رودين يقف فى وسط الغرفة ويتحدث ، يتحدث ببراعة فيدو فى أعين الجميع كأنه ديموستين فى شبابه وقد وقف يخاطب البحر العجاج ، وكان سبوتين الشاعر الأشعث يهتف فجأة من حين إلى حين ، كما يهتف المرء وهو مستغرق فى نومه ، وكان شيلر الطالب ابن القس الألمانى ، شيلر الطالب الجامعى الذى يبلغ من العمر أربعين سنة قد اشتّهر بالفكر العميق لإخلاده الدائم للسكوت ، لا يفتح شفتيه ، ولا تخرج من فيه كلمة إلا بوقار عظيم يزداد باطراد ، أما سيتوف المرح ، ،أو قل أرستوفان مجتمعاتنا ، فقد كان خفيض الجناح باسم الثغر ، وكان ثمّ تلميذان أو ثلاثة من حديثى العهد ينصتون مفتونين وقد خلبت الأحاديث لبهم ؛ وكان الليل يمر هادئا رفيقاً كأنه يطير طيراناً . ثم يبزغ الفجر فنفترق مهتاجى العاطفة سعداء محافظين على استقامتنا (ذلك أننا لم نكن نفكر فى الخمر وقتئذ) يغشانا شىء من الكلال الرضى الهنىء . . . وإنى لأستطيع أن أتمثل نفسى سائراً خلال الطرقات وقد خلت من المارة أرقب النجوم بشعور من الثقة جديد كأنما هى قد زادت قرباً وأصبحت أدنى إلى الفهم . . . آه ؛ لقد كانت أياماً عجيبة ، وإنى لا أومن أبداً بأنها ذهبت هباء ! كلا إنها لم تذهب هباء حتى بالنسبة لأولئك الذين أذلّهم الحياة من بعد . . . وكم من مرة قابلت مصادفة أولئك الرجال ، زملائى القدماء ! وقد يبدو لك أن أحدهم انحط فغدا وحشاً من الوحوش ، فإذا ذكر اسم بوكورسكى فى حضرته استيقظ فى نفسه كل ما بقى فيها من عواطف نبيلة كأنك رفعت السدادة عن قنينة منسية من العطر فى غرفة قذرة مظلمة » .

وسكت ليزنيف ، وقد احمر وجهه « الباهت » .

وسألته السيدة ليبينا وهى تحملق فيه مدهوشة : « ولكن لماذا ؟ بل متى تشاجرت أنت وورودين ؟ » .

« إننى لم أتشاجر معه . بل قطعت علاقتى به عندما استبانت لى فى الخارج حقيقة أمره ، ولو أنه حدث قبل هذا فى موسكو أن تهيأت لى الأسباب لمخاصمته ، ذلك أنه كان قد خدعنى خدعة دنيئة » .

« وما هى ؟ »

« هى هذه ، كنت . . . . ماذا عساى أن أقول ، إننى لم أخلق للحب . . . . ولكننى كنت دائما سريع التأثر به »

« أنت ؟ »

« أجل ، أليس هذا غريباً ؟ ولكن هذا هو ما حدث ، لقد وقعت فى حب فتاة لطيفة جداً . . . ما بالك تنظرين إلى هكذا ؟ إنى لمستطيع أن أحدثك عن نفسى بشىء أكثر إثارة لعجبك من ذلك »

« أو أستطيع أن أسألك ما هو ؟ »

« إليك هذا النبأ مثلا : لقد دأبت فى تلك الأيام التى قضيتها فى موسكو أن ألتى . . . من فيمَ تظنين ؟ . . . شجرة زيزفون صغيرة فى أسفل حديقتى كنت أحتضن جذعها النحيل الرشيق ، فيخيل إلى أننى أحتضن الطبيعة بأسرها . وكان قلبى يمتلئ ويزفزف كأن الطبيعة تنسكب فيه حقًّا ، كنت ذلك الرجل ، ولم يكن هذا كل ما فى الأمر ! ولعلك تظنين أننى ما كنت أقرض الشعر ؟ ولكن رويدك ، لقد نظمته ، بل كتبت مأساة أقلد بها « ما نفريد » ، وكان من أشخاصها طيف تلطخ صدره بالدم ، ولا تحسبى أن هذا الدم كان دمه بل كان دم البشرية . . .

أجل لا تعجبى . . . على أننى كنت قد بدأت أروى لك قصة حبى ، لقد تعرفت بفتاة . . . »

« ونسيت مواعيدك مع شجرة الزيزفون ؟ »

« نعم ، كانت الفتاة غاية فى طيبة القلب واللطف ، تتلألأ عيناها وتتألق ، وينساب صوتها كرنين الفضة » .

وقالت السيدة ليبينا وقد افترّ ثغرها عن ابتسامة تنم عن الدعابة : « إنك لبارع فى الوصف »

فأجابها ليزنيف : « وإنك لناقدة غاية فى القسوة . ثم إن الفتاة كانت تقيم مع أبيها ، وكان رجلا مسنًّا ، ولكننى لن أدخل فى التفصيلات ، وحسبى أن أقول لك : إنها كانت حقًّا طيبة القلب جدًّا ، كانت تصب لك من الشاى ما يبلغ ثلاثة أرباع القدح إذا طلبت النصف فقط ! وفى اليوم الثالث للقائى لها أول مرة أحسست بنار الحب تشتعل فى جسمى كله ، وفى اليوم السابع لم أقدر على إخفاء حالى فبحت بما فى قلبى لرودين . وهيهات أن يكتم شاب حبه بين ضلوعه ! . . قد كنت دائماً أفضى بأسرارى إلى رودين . وكنت فى ذلك الحين تحت تأثيره اماً . وأنا لا أنكر أن هذا كان مفيداً لى من عدة وجوه ؛ ذلك أنه كان أول خص عاملنى معاملة لا تنطوى على الاحتقار والازدراء ، بل حاول أن يجعل منى حلا . لقد كنت أعظِّم بوكورسكى وتغشانى رهبة من طهارة نفسه . على حين ن التجاوب بينى وبين رودين أقوى وأشد . وعلم رودين بأمر حبى فقابل ذلك منى سة تفوق الوصف ؛ ذلك أنه هنأنى . وضمنى إلى صدره . ولم يلبث أن بادر شادى وتبصيرى . وبث فى أن أقدر الأهمية الكاملة لموقفى الجديد . وكنت

أستمع بأذن مرهفة واعية ؛ وهل يخفى عنك مقدار براعته فى الحديث ؟ كان لكلماته وقع عجيب فى نفسى . فقد ارتفع قدرى فى عينى . واتخذت سمة الجد . وأمسكت عن الضحك . وإنى لأذكر أنه قد بلغ من أمرى أننى ازددت حرصاً فى مشيتى . فكنت أسير مترفقاً كأننى أحمل فى طيات نفسى آنية مملوءة بسائل نفيس أخشى عليه أن ينسكب . كنت سعيداً كل السعادة منذ علمت أننى نلت رضاها . وأراد رودين أن يلقى حبيبتى . وإنى لأظن أننى ألححت فى أن أقدم بنفسى كلا منهما إلى الآخر »

وقاطعته السيدة ليبينا قائلة : « آه ! لقد فهمت ! فهمت كل شىء الآن ؛ إن رودين قد سرق منك حبيبتك . وأنت لا تستطيع أن تصفح عنه حتى الآن . . . إننى لمستعدة بأن أراهن بأننى على صواب »

« لو أنك راهنت لخسرت رهانك . فأنت مخطئة . إن رودين لم يسرق حبيبتى . ولم يكن فى نيته أن يفعل هذا . على أنه بالرغم من ذلك وضع حداً للنعيم الذى كنت فيه . ولو أننى مستعد الآن أن أشكره بعد أن ثبت إلى رشدى . أما فى ذلك الوقت فقد كدت أجن ؛ إن رودين لم يكن يميل قط إلى إلحاق الأذى بى . بل إن الأمر على النقيض من ذلك تماماً ؛ ولكنه انقاد لتلك العادة الملعونة التى درج عليها . ألا وهى تقويض كل ما فى الحياة من بواعث . سواء أكانت حياته هو أم حياة غيره من الناس . شأنه فى ذلك شأن من يقضى على الفراشة بتثبيتها بدبوس . فراح يكشف لنا عن خبيئة نفوسنا . ويشرح لنا علاقاتنا بالناس . وما الذى ينبغى أن يكون عليه مسلكنا . وأوصانا وصية من يفرض رأيه فرضاً بأن نحلل أفكارنا ومشاعرنا . وطفق يمتدحنا وينتقدنا . بل شرع يراسلنا . . . تصورى

هذا ! لقد بلبل أفكارنا بلبلة كاملة ! ولم يكن فى الحسبان أن أتزوج حبيبتى (فقد بقى لى شىء من العقل يحول بينى وبين ذلك) على أننا على أية حال كنا خليقين بأن نقضى معاً بضعة أشهر مجيدة على نحو ما فعل « بول وفرجينى » إلا أننا بدلا من ذلك وجدنا أنفسنا نعانى من الحيرة والتوتر أشكالا وألواناً ، ويا للمأزق الحرج الذى وقعنا فيه ! وقصارى الأمر أن رودين أقنع نفسه فى صباح يوم مشرق بأن واجب الصداقة المقدس يقتضيه بأن يزف النبأ إلى أبيها ، وقد فعل » .

وصاحت السيدة ليبينا : « حقا ؟ »

« أجل . ولتعلمى أنه فعل هذا بموافقتى ، وكان ذلك أعجب شىء فى الموضوع . وإنى لأذكر مقدار ما أصاب عقلى من اضطراب ؛ لقد كانت الدنيا من حولى تدور وتتغير كما يحدث فى آلة التصوير المظلمة ، وبدا لى الأبيض أسود ، والأسود أبيض ، والباطل حقًّا ، والوهم واجباً ، آه ! إن ذكرى ذلك تحز فى نفسى حتى الآن ! أما رودين فلم يأبه لذلك ، وهيهات أن يأبه لشىء ! فقد كان ينفلت من شباك سوء التفاهم كأنه عصفور الجنة يمرق من فوق غدير » .

وسألته السيدة ليبينا فى دلال ، وهى تميل برأسها الصغير جانباً وترفع حاجبيها :

« وهكذا افترقت عن حبيبتك ؟ »

« أجل افترقنا . . . وكان فراقاً مؤلماً ثقيلا كريهاً ، سافراً ، بل مفضوحاً فى غير مقتض . وبكيت وبكت هى أيضاً والشيطان يعلم ماذا قال كلٌ منا للآخر ، لقد كان الأمر أشبه بقطع أنشوطة معقدة ، مؤلماً ، ولكن لا حيلة فيما لا حيلة فيه ، على أن كل شىء فى العالم ينتهى إلى الخير . فقد تزوجت رجلا جديراً بها ، وهى الآن سعيدة » .

وشرعت السيدة ليبينا تقول : « ومع ذلك تسلم بأنك لم تستطع الصفح عن رودين . . . » .

فقاطعها ليزنيف قائلا : « وى ، لا ! ، لقد بلغ بى الأمر أن بكيت كالطفل عندما ودعته فى رحيله إلى الخارج . والحق أن البذور قد رسبت فى قلبى . فلما لقيته من بعد فى الخارج . . . أجل لما لقيته كانت السن قد تقدمت بى . . . ورأيت رودين فى صورته الحقيقية » .

« وما الذى اكتشفته فيه ؟ »

« ذلك الذى قلته لك منذ ساعة بلا زيادة ولا نقصان ، ولكن كفانا حديث عن رودين ، ولعل كل شىء ينتهى إلى الخير ، وغاية ما فى الأمر أنى أردت أن أبين لك أننى إذا قسوت فى الحكم عليه فلا يرجع ذلك إلى أننى لا أعرفه . أما ناتاليا فلن أزيد على ما قلته حرفاً ، ولكن يجب أن تعنى بأمر أخيك » .

« أخى ! لماذا ؟ »

« انظرى إليه جيداً ، ألم تلاحظى عليه شيئاً ؟ »

وأرخت السيدة ليبينا بصرها وغمغمت : « إنك لعلى حق . . . أجل . . . أخى . . . إنه قد تغير منذ حين . . . ولكن أتعنى حقًّا . . . ؟ »

فقال ليزنيف هامساً : « صه ، أظن أنه قادم ، وصدقينى إذا قلت لك : إن ناتاليا ليست طفلة ، وإن كانت مع الأسف كالطفلة فى قلة خبرتها ونقص تجاربها ؛ واذكرى كلماتى ، فإن هذه الفتاة سوف تدهشنا جميعاً فى يوم من الأيام » .

« وكيف ؟ »

« ألا تعلمين أن الفتيات من أمثالها هن اللاتى يهلكن أنفسهن غرقاً ويتجرعن

السم وما إلى ذلك ؟ فلا تغترى بنظراتها الهادئة فإن من شيمتها شدة الانفعال وتأجج العاطفة »

« إيه ، هات ما عندك ! فإنك فيما يبدو لى ترق وتمضى فى الخيال ، وإنى لا أستبعد أن أبدو فى نظر شخص بارد مثلك كالبركان »

فقال ليزنيف وهو يبتسم : « أف ، أف ، أما عن الخلق فأحمد الله على أنك لا تتحلين منه بما يستحق الذكر ! » .

« أتحاول أن تكون وقحاً ؟ » .

« كلا والله ! فإن هذا لأعظم آيات المديح » .

ودخل فولينتسف الغرفة ورمق أخته هى وليزنيف بنظرة يشوبها الشك . وكان قد ازداد نحولا فى الأيام الأخيرة ووجه كلاهما إليه الحديث فى آن واحد ، ولكنه لم يكد يبتسم لحديثهما ، وبدا على ما وصفه بيجاسوف مرة ، كالأرنب البرى الحزين ، ومع ذلك فقل أن تجد فى العالم رجلا لا يبدو فى أتعس حالاته مرة واحدة على الأقل فى حياته ؛ لقد كان فولينتسف يشعر بأن ناتاليا تفلت من يده . وكان فى صحبتها يبدو كأن الأرض تميد من تحت قدميه .

الفصل السابع

كان اليوم التالى يوم أحد . وقد نهضت ناتاليا من نومها متأخرة ، وكانت قد صدت عن الكلام صدوداً فى اليوم الذى قبله ، وخجلت فى دخيلة نفسها من دموعها ، ونامت نوماً مضطرباً . وجلست ناتاليا إلى بيانها الصغير ولم يكن عليها من الثياب إلا قليل ، وعزفت بعض الأنغام فى صوت لا يكاد يسمع خشية أن توقظ الآنسة بونكور ، ثم أسندت جبهتها إلى مفاتيح البيان الباردة وظلت ساكنة وقتاً طويلا . وراحت تفكر وتنعم التفكير لا فى رودين نفسه ، بل فيما صدر عنه من أقوال ، وكانت صورة فوليتسف تمر بمخيلتها لماماً . كانت تعلم أنه يحبها ، ولكنها كانت تقصى صورته فى الحال . . . لقد كانت واقعة فى قبضة نوع عجيب من ثورة المشاعر .

وانقضى الشطر الأكبر من الصباح ، فارتدت ملابسها على عجل ، وهبطت الدرج ثم حيت أمها وخرجت إلى الحديقة وحدها بأسرع ما تستطيع .

وكان اليوم حاراً مشرقاً مشمساً بالرغم مما غشيه من مطر بين الفينة والفينة .

وكانت بعض السحب المسفة الغائمة تنساب سريعة عابرة السماء الصافية دون أن تحجب الشمس ، ويفيض منها على الحقول أحياناً شؤبوب من المطر ينهمر فجأة ثم لا يلبث أن يكف ؛ وكانت قطرات المطر الكبيرة المتألقة تتساقط فى صوت حادّ كأنها قطع من الماس ؛ وكانت الشمس تتألق من خلال غاشية المطر المنهمر ، وقد سكن العشب ، ولم يعد يتمايل بفعل الريح ، وراح يروى غلته من الماء ، وكانت أوراق الشجر التى غسلها المطر تهتز فى وهن وفتور ، والطيور تغرد وتغرد بلا توقف ولا انقطاع ، ولم يكن ثم أمتع للنفس من أن تنصت إلى سقسقتها الصادرة من قلب خلى تطغى على ذلك الشؤبوب العابر وخريره ، وتصاعد الغبار من الطرق المتربة واختلطت بفعل ضربات المطر المتدارك النازلة عليها ثم تنقشع السحابة وتخفق الريح ويتألق العشب بلون من الزمرد والذهب ، وتتعانق أوراق الشجر ويشرق الضوء من خلال الغصون ، ويشيع فى الجو شذا قوى . . .

ودخلت ناتاليا الحديقة وقد صفت السماء أوكادت ، وكانت الحديقة تشف عن النضارة والاطمئنان ، ذلك الاطمئنان الهنىء السعيد الذى يستجيب له قلب الإنسان فى استرخاء لذيذ ينبعث من العاطفة المكنونة والرغبة المبهمة .

وسارت ناتاليا على طول حافة البركة مجتازة طريقاً طويلا من الحور الفضى ، وعلى حين بغتة وقف أمامها رودين وكأن الأرض قد انشقت عنه .

وتملكتها الدهشة ، ونظر هو فى وجهها .

وسألها : « هل أنت وحدك ؟ »

فأجابت ناتاليا : « أجل ، أنا وحدى . . . وإنما خرجت لأستنشق الهواء برهة ، وينبغى لى أن أعود الآن » .

« سأصحبك »

وعدل من خطوته بحيث تماشى خطوتها ، وسار إلى جوارها .

غمغم : « إنك لتبدين حزينة » .

« حقًّا ؟ لقد كنت أوشك أن أقول بأنك تبدو فاتر الهمة »

« ربما كان هذا هو حالى . . . وكثيراً ما تنتابنى هذه الحالة وعذرى فى ذلك أوجه من عذرك »

« لماذا ؟ أتظن أنه لا يكون عندى أبداً ما يحزننى ؟» .

« إن من هن فى مثل سنك حريات بأن ينعمن بالحياة » .

وسارت ناتاليا بضع خطوات فى صمت ثم قالت : « ديمترى نيقولا يفتش ! »

« نعم » ؟

« أتذكر . . . . المقارنة التى عقدتها بالأمس . . . . تلك المقارنة الخاصة بشجرة البلوط ؟ »

« أجل ، أذكرها حقًّا ، وما شأنها ؟ »

واختلست ناتاليا النظر إليه وقالت : « لماذا . . . . بل ما الذى عنيته بذلك ؟ »

وحنى رودين رأسه وحملق فى الفضاء

وشرع يقول فى لهجته العجيبة المتحفظة الحافلة بالمعانى التى كانت تحمل السامع على الظن بأنه لم يكن يزيح عن صدره إلا عشر معشار ما كان يثقل عليه : « ناتاليا ، لعلك لاحظت أننى قلما أتحدث عن ماضىّ ، فإن ثمّ شئوناً لا أمسها أبداً ، وقلبى – ولكن من ذا الذى يحب أن يعرف ما عاناه ؟ لقد كان يخيل إلى دائما أن الكشف عن خباياه أمام الناس جميعاً فيه انتهاك لحرمته ، ولكننى أستطيع أن

أكون صريحاً معك . . . فإنك توحين إلى بالثقة . وأنا لا أستطيع أن أخفى عنك أننى أيضاً قد أحببت وشقيت كسائر الناس . أما متى كان هذا ؟ وكيف ؟ فإن ذلك لا يعنى أحداً ! إلا أن قلبى قد عرف الفرح كثيراً وكابد الحزن كثيراً »

والتزم رودين الصمت لحظة ثم مضى فى حديثه : « إن ما قلته بالأمس يمكن أن ينطبق علىّ إلى حدٍّ ما ، أى على موقفى الحالى ، ولكن هذا أيضاً لا يهم ، فإن ذلك الجانب من الحياة لم يعد له وجود بالنسبة إلى ، وكل ما بقى لى هو أن أضرب فى طريق مغبر لفحته الشمس ، من مرحلة إلى مرحلة فى عربة خضخاضة ؛ ولكن متى أستقر فى مكان ؟ وهل لى أن أستقر فى مكان ؟ الله وحده يعلم ! والخير لنا أن نتحدث عنك » .

وقاطعته ناتاليا قائلة : « أيمكن يا ديمترى نيقولايفتش أن يكون السبب أنك لا تنتظر شيئاً من الحياة ؟ »

« آه ، كلا ! إننى أنتظر الكثير ، ولكنى لا أنتظره لنفسى ، ولن أتخلى عن نشاطى وما يجلبه من سعادة ، على أننى نبذت أسباب اللهو والمتعة . إن آمالى وأحلامى لا تمت إلى سعادتى بأى سبب ، أما الحب . . . » وهز كتفيه عندما نطق بهذا اللفظ ، « . . . . فلم يخلق لى ، إنى غير جدير به ، ذلك أن المرأة التى تحب من حقها أن تقتضى من الرجل نفسه كلها ، وأنا لا أستطيع بعد أن أهب نفسى كلها ، ثم إن الجاذبية من شيم الشباب ، وقد تجاوزت سن الشباب بكثير ، فكيف أدير رأس أية امرأة ؟ إنى لأبتهل إلى الله أن يحفظ رأسى قائماً على كتفى » .

وغمغمت ناتاليا : « لقد فهمت ما ترمى إليه ؛ إن الذى يسعى إلى غاية جليلة يجب أن ينقطع عن التفكير فى نفسه ، ولكن أليست المرأة بمستطيعة أن تقدر مثل

هذا الرجل ؟ إنى لأظن أن احتقارها للشخص « الأنانى » أقرب إلى طبيعتها . فإن أولئك الشباب جميعاً ، الشباب الذين تحدثت عنهم ، « أنانيون » ، قد شغلوا بأمر أنفسهم ولو كانوا من المحبين ، وصدقنى إذا قلت لك : إن المرأة ليست بمستطيعة أن تقدر التضحية فحسب ، بل هى تستطيع التضحية أيضاً »

وتوردت وجنتا ناتاليا ولمعت عيناها ، ولم يؤثر عنها قط إلقاء مثل هذا الخطاب الحماسى الطويل قبل أن تعرف رودين .

وقال رودين وهو يبتسم متلطفاً : « لقد سمعت فى أكثر من مناسبة رأيى فى وظيفة المرأة ، وأنت تعلمين أن من رأيى أنه ما من أحد كان يستطيع إنقاذ فرنسا إلا جان دارك . . . ، ولكن ليس هذا بيت القصيد . فقد كنت أريد التحدث عنك ، إنك فى مستهل حياتك ، والمناقشة فى أمر مستقبلك خليقة بأن تكون ممتعة ومثمرة ، فأصغى إلى : إنك لتعلمين أنى صديقك ، وأنى أعنى بأمرك عناية تبلغ عناية الأخ بأخته أو تكاد ، أرجوك ألا ترى فى سؤالى فضولا أو بعداً عن الفطنة ؟ خبرينى ، أو قلبك خالٍ خلوًّا تامًّا ؟ »

وفاض وجه ناتاليا بدم الخجل حتّى بلغ منابت شعرها ، ولم تنبس ببنت شفة .

وتوقف رودين وتوقفت هى أيضاً ، ثم سألها : « أتراك قد غضبت منى ؟ »

فأجابته قائلة : « كلا ، ولكنى لم أكن أنتظر هذا السؤال قط . . . »

وأردف يقول : « ومع ذلك فليس ثمّ ما يدعوك إلى إجابتى ، فإنى أعرف سرك » .

ونظرت إليه ناتاليا فى رعب .

« أجل أجل ، إننى أعرف من هو ، ولا مناص لى من القول بأنك ما كنت

بمستطيعة أن تختارى رجلا أفضل منه ، إنه لفتى ولا كالفتيان ، ولسوف يستطيع أن يقدرك ، ثم إن الحياة لم تنل منه ، وهو ذكى نقى السريرة . . وهو خليق بأن يسعدك » .

« من تعنى يا ديمترى نيقولايفتش ؟ »

« كأنك لاتعلمين ! أعنى فولينتسف طبعاً ، وى ! ألست مصيباً ؟ »

وأشاحت ناتاليا بوجهها ، وقد أخذت منها الحيرة كل مأخذ .

« ألايحبك ؟ أفصحى ، أفصحى ؛ فإنه لايرفع عينيه عنك ويتتبع كل حركة من حركاتك ، وهل يستطيع المرء أن يخفى حبه ؟ إن جميع الظواهر تدل على أن أمك أيضاً تؤثره . ثم إن اختيارك . . »

وقاطعته ناتاليا مادة يدها إلى شجيرة قريبة لتخفى ارتباكها وقالت : « إن من العسير علىّ حقًّا أن أناقش هذا الموضوع ياديمترى ميخائيلوفتش ، ولكنى أؤكد لك . . أنك مخطئ »

فردد رودين قولها : « هل تقولين « مخطئ » ؟ لا أظن ذلك ، فإنى أعرفك حق المعرفة وإن كنا حديثى العهد بالصداقة ، فما السر إذن فى هذا التغير العجيب الذى ألاحظه عليك ؟ إنك لست ناتاليا التى لقيتها منذ ستة أسابيع ، كلا ياناتاليا ؛ إن قلبك ليس خالياً » .

وقالت ناتاليا فى صوت خافت لايكاد يسمع : « ربما ، ولكنك مع ذلك مخطئ » .

فسألها رودين : « وكيف ذلك ؟ »

« أرجوك أن تدعنى وشأنى ، ولا تسألنى أى سؤال ! » ثم انثنت ميممة شطر

المنزل فى خُطًى سريعة ، فقد أفزعتها الأحاسيس التى انبعثت فجأة فى قلبها .

ولحق بها رودين واستوقفها ، وقال لها جاداً : « ناتاليا ! إن هذا الحديث لايمكن أن ينتهى على هذه الصورة ، فإنه عظيم الأهمية بالنسبة لى أيضاً ، بربك كيف أفهمك ؟ »

وعادت ناتاليا تقول : « دعنى وشأنى ! »

« ناتاليا ، بالله عليك ! » ، وبانت الحيرة والقلق على وجه رودين ، وشحب لونه .

وقالت ناتاليا : « إنك تفهم كل شىء ، فينبغى لك أن تفهمنى أيضاً ! » ، وانتزعت يدها من يده ومضت فى طريقها لاتلوى على شىء .

وصاح رودين خلفها قائلا : «كلمة واحدة » !

وتوقفت ولكنها لم تلتفت إلى الوراء .

« لقد سألتنى ماذا عنيت بالمقارنة التى عقدتها بالأمس ، وإنى لمخبرك ، ولاتجعلى سوء التفاهم يدب بيننا ، لقد كنت أتكلم عن نفسى . . . وعنك » .

« عجباً ! عنى ؟ »

« نعم عنك ، وأكرر لك أننى لا أحب أن يحدث بيننا خطأ فى الفهم ، وإنك لتعلمين الآن مبلغ ذلك الشعور ، أجل ، الشعور الجديد الذى كنت أتحدث عنه وقتئذ ، وما كنت لأجرؤ قط حتى اليوم . . »

وغطت ناتاليا وجهها بيديها فجأة وركضت صوب المنزل .

واستبد الذهول بناتاليا مما بلغ إليه حديثها مع رودين من غاية مفاجئة ، ومرت بفولينتسف وهى تركض فلم تقع عليه عيناها قط ، وكان يقف ساكناً بلا حراك

وظهره مسند إلى جذع شجرة . ذلك أنه كان قد وصل إلى ضيعة السيدة لاسونسكايا قبل ذلك بربع ساعة . فوجد ربة الدار فى غرفة الاستقبال . فتبادلا بضع كلمات ثم انسل إلى الخارج باحثاً عن ناتاليا . وهدته غريزة العشاق فمضى إلى الحديقة لايلوى على شىء . وفاجأهما فى اللحظة التى كانت تنتزع فيها يدها من يد رودين . فاسودت الدنيا فى عينيه . وراح يرقب ناتاليا ثم تخلى عن الشجرة وخطا بضع خطوات على غير هدى . ورفع رودين بصره فوجد فولينتسف يقف بجواره . والتقت نظراتهما . فانحنى كل منهما إلى الآخر وافترقا فى سكون .

ودار فى خلد كل منهما : « إن الرواية لم تتم فصولا » .

وانطلق فولينتسف يجوب الحديقة حتى بلغ قرارها ، وغشيه شعور بالمرارة والشقاء ، وجثم على صدره حمل ثقيل ، وكان دمه يغلى أحياناً من الحنق والغضب ، وعادت السماء مرة أخرى تمطر رذاذاً . وأوى رودين إلى غرفته . فقد كان هو أيضاً مضطرباً . وكان عقله فى دوامة . ذلك أن الناس حتى غلاظ القلوب منهم تهتز مشاعرهم إذا رأوا شباباً غضًّا صادقاً يكشف عما فى نفسه فجأة فى ثقة واطمئنان .

وجرى كل شىء على مائدة العشاء بخلاف ما ألف القوم . فقد تعذر على ناتاليا أو كاد أن تجلس على مقعدها وهى فى مثل شحوب الموتى . ولم ترفع عينيها . أما فولينتسف فقد جلس كشأنه بجوارها . وكان من حين إلى حين يحمل نفسه على توجيه ملحوظة إليها . وقد اتفق أن كان بيجاسوف يتناول العشاء فى منزل السيدة لاسونسكايا فى ذلك اليوم . فراح يتحدث أكثر من أى شخص آخر . وقال فيما قال : إن الناس كالكلاب يمكن تصنيفهم صنفين : مقطوعى الذيل وطوال

الذيل . ثم قال إن مقطوعى الذيل إما أن يكون ذيلهم قد خلق هكذا عند مولدهم . وإما أن يكون نتيجة لخطأ ارتكبوه . ومقطوعو الذيل قوم أشقياء . لاينجحون أبداً ؛ إذ تعوزهم الثقة بأنفسهم . أما من أوتى ذيلا كثًّا طويلا فهو الذى يحالفه الحظ . وقد يكون أسوأ أو أضعف من صاحب الذنب المقطوع ، ولكنه أوتى الثقة بنفسه . فإذا نشر ذيله بهر كل من رآه . وإنكم لتوافقوننى على أن هذا أمر عجيب . فالذيل عضو من أعضاء الجسم لانفع فيه أبداً . فأى خير يرجى من الذيل . إلا أن كل إنسان يعرف مقدارك بذيلك ؟

ثم أردف يقول وهو يتنهد : « وأنا نفسى من رهط مقطوعى الذيل . على أن الشىء الذى يذهل فى هذا الأمر هو أننى أنا الذى قطعت ذيلى بيدى » .

وقال رودين عرضاً : « أى أنك تريد بعبارة أخرى أن تقول ماقاله لاروشفوكو من قبلك بزمن طويل : ثق بنفسك يثق بك الناس . ولست أدرى مكان الذيل فى ذلك » .

وأجاب فولينتسف بحدة وقد ومضت عيناه : « إن كل إنسان . أجل . إن كل إنسان . له الحق فى أن يعبر عما فى نفسه كما يشاء . تتحدثون عن الاستبداد . . إنكم إذا سألتمونى الرأى فى ذلك قلت : ليس ثمّ استبداد أسوأ من استبداد أولئك الذين يعرفون بأهل البراعة . ألا لعنة الله عليهم ! » .

وخيم السكون على القوم جميعاً . وانعقدت ألسنتهم من جراء ثورة فولينتسف ، ولقيت عينا رودين عينيه ولكنه لم يستطع الثبات أمامهما . فأدار رأسه وابتسم ولم ينبس ببنت شفة .

وقال بيجاسوف بينه وبين نفسه : « ها ! إذن فأنت مقطوع الذيل أيضاً ! »

وقفز قلب ناتاليا إلى فمها ، وحملقت السيدة لاسونسكايا فى فولينتسف فى حيرة وذهول ، وكانت أول من قطع حبل السكون ، فأخذت تصف كلباً عجيباً يملكه صديقها الوزير « ن » .

وغادر فولينتسف الدار بعد الغداء بقليل ، ولم يملك نفسه وهو يستأذن ناتاليا فى الانصراف من أن يقول لها : « لماذا تبدين مرتبكة كل هذا الارتباك كأنك مذنبة ؟ هيهات أن تكونى مذنبة أمام أى مخلوق ! »

ولم تدرك ناتاليا مايرمى إليه ، فاكتفت بأن شيعته بنظرة حائرة .

وقصد رودين إليها قبل تناول الشاى ، وانحنى على المائدة كما لو كان يبحث فى الجرائد ، وقال هامساً : « لقد كان الأمر كله كالحلم ، أليس كذلك ؟ لامناص لى من مقابلتك وحدك — ولو لحظة » .

والتفت إلى الآنسة بونكور قائلا : « هاك ، أليست هذه صحيفة الأدب التى كنت تبحثين عنها ؟ » ، ثم انحنى مرة أخرى صوب ناتاليا وأردف يقول هامساً : « حاولى أن توافينى إلى خميلة الليلق قرب الشرفة حوالى الساعة العاشرة . . سأكون فى انتظارك » .

وأسلم رودين الميدان لبيجاسوف ، فقد كان بطل السهرة وروح عن السيدة لاسونسكايا كثيراً . ذلك أنه قص عليها أولا قصة جار له استكان لامرأته ثلاثين عاماً فتطبع بطباع النساء حتى لقد رفع أطراف سترته يوماً وهو يجتاز وشلا فى حضور بيجاسوف كما تفعل النساء بنقباتهن ، ثم وصف سيداً آخر من سادة الريف كان فى أول أمره ماسونيًّا ثم غدا متطيراً ، وقرر آخر الأمر أن يكون صيرفيًّا ، وسأله

بيجاسوف « وماذا فعلت عندما كنت ماسونيًّا » فأجاب : « ما أفعله عادة : لقد أطلت ظفر إصبعى الخنصر » وازداد ضحك السيدة لاسونسكايا مرحاً وحبوراً عندما شرع بيجاسوف يفصح عن آرائه فى الحب . ويزعم أنه هو أيضاً قد أثار هذه العاطفة الرقيقة فى النساء . بل إن سيدة ألمانية ملتّهبة العاطفة قد بلغ بها الأمر أنها كانت تناديه يا « أفريكان الصغير اللذيذ » . وضحكت السيدة لاسونسكايا . ولكن بيجاسوف لم يكن يكذب . فقد كان حريًّا به حقًّا أن يفخر بغزواته ؛ ذلك أنه قال على سبيل التأكيد : إنه مامن شىء أيسر من إيقاع امرأة . أيًّا كانت . فى حبائل حبك . وحسبك أن تظل عشرة أيام متصلة تكرر على سمعها أن شفتيها هما الفردوس وأن عينيها هما النعيم وأن سائر النساء بالقياس إليها كالدمى المصنوعة من الخرق ! فإذا جاء اليوم الحادى عشر حدثت نفسها بأن شفتيها هما الفردوس وأن عينيها هما النعيم . ثم تقع فى حبك . وهذه الأمور جائزة الحدوث . ومن يدرى ؟ لعل بيجاسوف قد أصاب شاكلة الصواب . وما إن انتصفت العاشرة حتى كان رودين قد بلغ الخميلة بالفعل . وكانت الكواكب الصغيرة قد أخذت لتوها تلوح فى أعماق السماء الشاحبة . وكان الأفق الغربى لايزال يتوهج بالضوء القرمزى . وبدت السماء هنالك أكثر تألقاً وصفاءً . وكان القمر فى ربعه الأول يرسل ضوءه الذهبى فينفذ من غمار شجرة التامول المهدلة . وقامت الأشجار الأخرى كأنها العمالقة السود تتخللها آلاف من الفجوات الشبيهة بالعيون . أو تضرب فى الجو كالهياكل الشاهقة الكئيبة . وسكتت أوراق الشجر لاتريم منها ورقة واحدة . فكانت قمم أشجار الليلق والسنط تنتصب فى الجو الحار خفيفة متيقظة . والمنزل يلوح عن قرب معتماً مظلماً . وقد بدت نوافذه الطويلة المضاءة كالبقع الحمراء المتوهجة . كانت أمسية

ناعمة هادئة ، حتى لكأن المرء يسمع فى هدأة السكون زفرة تند عن عاطفة مكبوتة .

ووقف رودين وذراعاه مشبكتان على صدره ، وراح يرهف السمع فى قلق واهتمام ، وكان قلبه ينبض بشدة وقد كتم أنفاسه ، وطرق أذنيه آخر الأمر وقع أقدام خفيفة سريعة ودخلت ناتاليا الجميلة .

وقفز رودين منطلقاً إليها ، وأخذ يديها بين يديه ، وكانتا باردتين كالثلج ، وهمس فى صوت مختلج : « أى ناتاليا ! لقد أردت أن أراك . . وما كنت أستطيع الانتظار حتى الغد ، إذ لابد لى أن أقول لك شيئاً لم أكن أتوهمه قط ، بل شيئاً لم أتبينه حتى هذا الصباح — إنى أحبك ! » وارتجفت يدا ناتاليا قليلا فى يديه .

وعاد يقول : « أحبك ! كيف غشى منى البصر كل هذا الوقت ، فلم أتبين منذ أمد طويل أننى أحبك ! . . وأنت ؟ ! . . وأنت ياناتاليا ؟ » .

وحبست ناتاليا أنفاسها ، وقالت أخيراً بعد جهد : « إنك لترى أننى قد أتيت » .

« أجل ولكن خبرينى . . أتحبيننى ؟ »

فهمست : « أعتقد . . أننى أحبك » .

وضغط رودين على يديها أكثر وأكثر ، وحاول أن يجذبها إليه .

ونظرت ناتاليا حولها بسرعة وقالت : « دعنى ؛ إننى مرتاعة ، وأظن أن بعضهم ينصت إلينا ، بالله عليك كن أكثر حرصاً ؛ فإن فولينتسف يرتاب فى أمرنا » .

« دعك منه ! وقد رأيت أننى لم أكلف نفسى مشقة الرد عليه عصر اليوم ؛ آه

ياناتاليا . ماأعظم سعادتى ! لن يفرق بيننا شىء الآن » .

ونظرت ناتاليا فى عينيه وهمست تقول : « دعنى فإنه يجب على أن أذهب » .

وأنشأ رودين يقول : « لحظة واحدة . . »

« كلا . دعنى . أرجوك ! »

« أتخافيننى ؟ »

« كلا . ولكن يجب أن أنصرف الآن »

وسألته ناتاليا : « أتقول إنك سعيد ؟ »

« أنا ؟ إننى أسعد رجل فى العالم ! أيخامرك شك فى هذا ؟ » ورفعت ناتاليا رأسها . وكان وجهها جميلا ينطق بالنبل والشباب والعاطفة فى ظلال الخميلة الخفية وفى الضوء الخافت الهابط من السماء فى تلك الأمسية .

ثم قالت : « ألا تعلم أننى سأكون لك ؟ »

وصاح رودين : « ياإلهى ! »

وانفلتت ناتاليا من بين يديه وتوارت عن الأنظار . ووقف رودين لحظة ساكناً . ثم خرج من الخميلة متمهلا . وكشف ضوء القمر عن وجهه فى الظلام . وكانت تداعب شفتيه ابتسامة . وغمغم : « إنى سعيد » ثم ردد هذا القول : « أجل إنى لسعيد » كأنما أراد أن يقنع نفسه بذلك . وشد قامته . وطرح بخصلات شعره المجعد إلى الوراء . وراح يهز ذراعيه طرباً وسروراً . ثم دخل الحديقة مسرعاً .

وعندئذ انفرجت شجيرات خميلة الليلق فى سكون وظهر منها بندالفسكى . ثم نظر حوله فى حرص وحذر . وهز رأسه . وزم شفتيه . ثم تمتم فى لهجة لها مغزاها « أهكذا ؟ ليبلغن الأمر سيدة البيت » واختفى عن الأنظار .

الفصل الثامن

وعاد فوليتتسف إلى المنزل كسير الخاطر تفيض نفسه بالغم والكآبة . وراح يرد على أخته فى تبرم وإحجام . وما لبث أن اعتكف فى مكتبه مما جعل السيدة ليبينا تصمم على أن ترسل فى طلب ليزنيف . ذلك أنها ألفت أن تعتمد عليه كلما ألمت بها ملمة . وبعث إليها ليزنيف يقول إنه سيوافيها فى اليوم التالى .

ولم تتغير حال فوليتتسف فى صبيحة اليوم التالى . فقد كان يعتزم الخروج لبعض شأنه بعد تناول الشاى . ولكنه عدل عن ذلك . ولزم الدار . واستلقى على أريكة . وراح يقرأ فى كتاب . ولم يكن ذلك من وكده قط . فقد كان لا يتذوق الأدب . ولا يخشى شيئاً خشيته للشعر . ومن أقواله المأثورة : « هذا شيء مستغلق على الأفهام كالشعر » . وآية ذلك أنه كان يستشهد دائماً بالأبيات الآتية للشاعر أيبولات :

وهل يستطيع المرء مهما بلغ حظه من العقل والتوفيق
أن يقطف زهر البانسيه المخضب بدم الحياة

إلا إذا ذهبت أيام الحزن وولت؟ هيهات!

وكانت السيدة ليبينا تنظر إلى أخيها فى قلق وإشفاق. ولكنها تجنبت أن توجه إليه أى سؤال. ووقفت عربة بالباب. فحدثت نفسها قائلة: «شكراً لله. لاشك أنه ليزنيف». وجاء خادم وأعلن وصول رودين. فالقى فولينتسف بكتابه على الأرض ورفع رأسه. ثم سأل قائلا: «من؟».

وعاد الخادم يقول: «ديمترى نيقولايفتش رودين».

وهب فولينتسف واقفاً وأمر الخادم قائلا: «دعه يدخل»، ثم أردف وهو يلتفت إلى السيدة ليبينا. «وأنت ياأختاه. هلا تخلين بيننا».

فسألته: «ولكن لماذا..؟»

فقاطعها وقد تجلى غضبه قائلا: «لدى من الأسباب مايدعونى إلى ذلك. وأرجوك أن تفعلى ماقلته لك».

ودخل رودين. وكان فولينتسف يقف فى وسط الغرفة فانحنى له فى برود. ولم يقدم له يده لمصافحته. واستهل رودين كلامه قائلا وهو يضع قبعته على عتبة النافذة: «إنى لواثق من أنك لم تكن تنتظرنى». وكانت شفتاه تختلجان بعض الاختلاج، فقد كان قلقاً مضطرباً، ولكنه حاول جاهداً أن يخفى قلقه.

وأجاب فولينتسف: «لم أكن أنتظرك حقًّا. فقد كان أحرى بى. بعد ماحدث بيننا الليلة الماضية، أن أنتظر شخصاً يحمل رسالة منك».

فقال رودين وهو يجلس: «إنى لأدرك ماترمى إليه، وأقدر صراحتك حق قدرها، ولكن مافعلته أفضل من ذلك بكثير، فقد زرتك بنفسى كما أزور رجلا شريفاً».

وقال فوليتسف : « أفلا تتخلى عن هذه المجاملات ؟ »

« أريد أن أشرح غرضى من الزيارة » .

« لقد سبق أن تعارفنا . فما الذى يحول بينك وبين زيارتى ؟ ثم إن هذه ليست المرة الأولى التى تشرفنى فيها بزيارتك » .

فردد رودين قوله : « جئت لزيارتك كما يزور الرجل الشريف صاحبه . وأنا أريد أن أحتكم إليك . لأننى أثق فيك كل الثقة » .

فقال فوليتسف « أرجوك أن تدخل فى الموضوع » . وكان لايزال واقفاً فى وسط الغرفة ينظر شزراً إلى رودين . ويجذب طرف شاربه من حين إلى حين .

« عفواً . لقد جئت أتحدث إليك فى الأمر . مافى هذا من شك . ولكن المرء لايستطيع أن يبدأ حديثه فى الحال » .

« ولمَ لا ؟ » .

« إن ثمّ شخصاً ثالثاً له دخل فى الأمر . . » . . .

« ومن ذلك الشخص ؟ »

« أنت تعلم من أعنى ياسرجى بافلوفتش »

« لا أعلم ياديمترى نيقولايفتش » .

« إذن تريد . . . » .

فقاطعه فوليتسف قائلا : « تمنيت أن تكف عن اللف والدوران » . وكان مرجل غضبه يشتد سريعاً . وقطب رودين حاجبيه قائلا : « على رسلك إذن . فإننا على انفراد . ويجدر بى أن أقول لك . . ولو أنك ربما تكون قد (حذرت) الأمر فعلا » (وهز فوليتسف كتفيه مفصحاً عن نفاد صبره) . يجدر بى أن أقول لك إننى

أحب ناتاليا . وعندى من الأسباب مايحملنى على الاعتقاد بأنها تحبى » .

وشحب لون فوليتسف ولكنه لم ينبس ببنت شفة . بل ذهب إلى النافذة . وأدار ظهره إلى رودين ومضى رودين يقول : « ولعلك تدرك أنى لو لم أكن مقتنعاً . . » .

فقاطعه فولينتسف فى لهفة قائلا : « يا إلهى ! إننى لا أشك فى ذلك أبداً . . وأرجو لك التوفيق ! ولكنّ ثمّ شيئاً واحداً لاأستطيع أن أدركه . فقل لى بحق الشيطان : لم تحمل إلى هذه الأخبار ؟ وماجدواها بالنسبة لى ؟ وماذا يهمنى من أمر من تحب ومن يحبك ؟ هذا ما لا أستطيع أن أدركه ! » .

وظل فولينتسف يحملق من خلال النافذة . وكان يتحدث بصوت خاوى النبرات .

ونهض رودين . وقال : « سأقول لك السبب فى اعتزامى المجىء إليك . وما حدانى إلى الظن بأن ليس من حقى أن أخفى عنك . . شعورنا المتبادل ! إنى أحترمك غاية الاحترام ، ولذلك جئت إليك . ولم أشأ . بل لم يشأ أحدنا . أن يخدعك باصطناع أسباب العبث والمجون . لقد كنت أعرف شعورك نحو ناتاليا . . ولتعلمن أنى أعرف قدر نفسى حقًّا . أعرف أننى أقل من أن أستحق الحلول محلك فى قلبها . أما وقد قضت بذلك المقادير فهل ننزل إلى أساليب الخداع والمكر والدهاء والنفاق ؟ أيحق لنا أن نعرض أنفسنا للمواقف الناجمة عن سوء الفهم ، بل إلى مجرد احتمال وقوع مشهد كالذى وقع على مائدة الغداء بالأمس ؟ أيحق لنا هذا ياسرجى بافلوفتش ؟ » .

وشبك فولينتسف ذراعيه على صدره . كأنه يريد أن يعقل ماتضطرم به نفسه .

ومضى رودين يقول : « أى سرجى بافلوفتش ! لقد آذيت شعورك ، وإنى لمدرك ذلك . . ولكن حاول أن تفهمنا . لم تكن أمامنا وسيلة أخرى نستطيع أن نثبت بها مانكنه لك من احترام . ونذلل على أننا نستطيع أيضاً أن نقدر حق التقدير ماجبلت عليه من سلامة الفطرة وشرف الطبع . ولو كنت أخاطب أى رجل آخر ما كان للصراحة . الصراحة الكاملة . محل . أما معك فالصراحة تصبح واجباً . ونحن سعيدان إذ ندرك أننا وضعنا سرنا بين يديك » .

وأطلق فولينتسف ضحكة مغتصبة . وهتف يقول : « شكراً لك على ثقتك ! ولو أننى أحب أن تعلم أننى ماكنت أود أن أشاركك فى أسرارك أو أفضى إليك بأسرارى . على أنك تتصرف فى أسرارى كأنها ملكك . وقد فهمت من حديثك أنك لاتتكلم عن نفسك فحسب . فهل لى أن أخرج من ذلك بأن الآنسة لاسونسكايا تعلم بأمر زيارتك والغرض منها ؟ » .

فأخذ رودين بعض الشيء وقال : « كلا . لم أخبر ناتاليا بنواياى ، ولكنى واثق من أنها تشاركنى فى رأيى » .

وعاد فولينتسف إلى الكلام بعد سكون قصير . وهو ينقر زجاج النافذة بأصابعه : « كل هذا جميل . بل جميل جداً . والحق أنك لو قللت من احترامك لى هوناً ما لكان ذلك أفضل . ولتعلم . إن شئت أن تعلم . أن احترامك هذا لايغنينى فى قليل أو كثير . ولكن ، ماذا تريد منى الآن ؟ » .

« لا أريد شيئاً . . أو قل إنى أريد شيئاً واحداً : أريد أن تعلم أننى لست رجلا ماكراً أدبر المكايد . أريد منك أن تفهمنى . وأرجو ألا تعود إلى الشك فى إخلاصى . أريد أن نفترق . . . صديقين وأن نتصافح كما كنا نفعل من قبل » .

ودنا رودين من فولينتسف .

وقال فولينتسف مواجهاً رودين ومتراجعاً إلى الوراء : « عفواً ياسيدى . إنى لمستعد أن أقر بحسن مقاصدك إقراراً لاتشوبه شائبة . فإنها مقاصد رفيعة جداً . بل هي إن شئت الحق سامية جليلة . إلا أن أمثالى من السذج يؤثرون البساطة فى الأمور بلا تزويق ولاخيال . وهم عاجزون عن أن يتابعوا وثبات عقل كبير كعقلك . فإن المخلص فى نظرك يبدو لأعيننا لجوجاً مغروراً . والشيء الواضح البسيط عندك نراه نحن مهوشاً غامضاً . إنك تفخر بأشياء نخفيها نحن ، فكيف نفهمك ؟ سألتك المعذرة . فإنى لا أستطيع أن أعدك صديقاً . ولن أمد لك يدى . قد يكون هذا صغاراً ولكنى أنا نفسى رجل صغير » .

والتقط رودين قبعته من عتبة النافذة . وقال فى لهجة يشوبها الحزن : « وداع يا سرجى بافلوفتش ! لقد أخطأت فى تقديرى . وإنى لأسلم بأن زيارتى كانت عجيبة شيئاً ما . ولكن كنت آمل . . » (وأتى فولينتسف بحركة تنم عن نفاد صبره) . « لاتؤاخذنى . فإنى لن أتحدث فى الأمر بعد . وقد تبينت من الظروف مجتمعة أنك على حق . ولعمرى أنه لم يكن أمامك طريق آخر تسلكه . وداعاً . واسمح لى مرة أخرى على الأقل . بل اسمح لى للمرة الأخيرة . أن أؤكد لك صدق نواياى . إننى أثق كل الثقة فى حصافتك . . » .

فصاح فولينتسف وهو يهتز غضباً : « عجباً . كأن الأمر يحتمل المزيد ! إننى لم أفعل شيئاً لحملك على الثقة بى . وليس لك حق أو شبه حق فى أن تعتمد على حصافتى ! » .

وكان رودين على وشك أن يقول شيئاً . إلا أنه أمسك . وأتى بحركة من يده

تنطوى على الاستسلام ، وانحنى ثم خرج . وألقى فوليتسف بنفسه على الأريكة . ولفت وجهه صوب الحائط ، وسمع أخته تقول بالباب : « أو تأذن لى بالدخول ؟ » .

ولم يجب فوليتسف لتوه بل مر بيده خلسة على وجهه . وقال فى صوت يختلف كل الاختلاف عن صوته المعهود : « كلا ياألكسندره ، دعينى وحدى لحظة » .

وجاءت بعد نصف ساعة ووقفت بالباب .

وقالت : « لقد جاء ليزنيف ، هل تحب أن تراه ؟ » .

فأجابها : « نعم دعيه يدخل » .

ودخل ليزنيف ، وسأله وهو يجلس فى كرسى مريح قرب الأريكة : « مابالك ؟ أمريض أنت ؟ » .

ورفع فوليتسف نفسه مستنداً على مرفقه . وحملق طويلا فى وجه صاحبه . ثم أعاد على مسامعه ماجرى بينه وبين رودين بالحرف الواحد ، ولم يكن قد لَمَّحَ لليزنيف من قبل قطّ بما يكنه من شعور نحو ناتاليا ، ولو أنه كان يوجس أن الأمر لم يكن خافياً عليه .

وانتهى فوليتسف من سرد قصته فقال ليزنيف : « لا شك أن ذلك كان مفاجأة ياصديقى ؛ لقد كنت أنتظر منه كثيراً من الأمور العجيبة . أما هذا . . ولكنه حتى فى هذا منطقى مع نفسه » .

وصاح فوليتسف وقد ثارت ثائرته : « قسماً إنها لوقاحة مابعدها وقاحة ! لقد كدت ألقى بالرجل من النافذة ! أكان يريد التفاخر أمامى ، أم أن الجبن هو الذى

حمله على ذلك؟ وما الدافع له؟ وكيف واتته الشجاعة على أن يقصد رجلا . . . »

وطوح فولينتسف بيد خلف مؤخر رأسه والتزم الصمت .

وقال ليزنيف فى هدوء : «كلا يا صديق . ليس الأمر كما تظن . ولن تصدقنى إذا قلت لك إنه فعل ما فعل بدافع حسن . والحق . . أنك لحرى بأن تعلم أن ذلك كان فرصة نبيلة شريفة واتته للحديث . أو قل لإظهار فصاحته . وهذا هو الشيء الذى كان يبغى ولاشيء سواه . الشيء الذى لايستطيع أن يعيش بدونه . أجل . إن لسانه عدوه . . ولكنه خادمه أيضا . . » .

« هيهات أن تتصور ماتحلى به من وقار عندما أقبل على وراح يتحدث ! » .

« لا جرم ! بل قل إنه ليزرر سترته كأنه يؤدى فريضة مقدسة . تمنيت أن أنبذه فى جزيرة قاحلة وأرقبه من خلف ركن لأرى كيف يدبر شأنه فيها . ومع ذلك فهو يستمسك بالبساطة ! »

فقال فولينتسف : « قل لى بربك : مامعنى هذا كله ؟ أفلسفة هو أم ماذا ؟ » .

« أعتقد أنه حقًّا فلسفة من وجه . وشيء يختلف تماماً عن الفلسفة من وجه آخر . فإنك لاتستطيع أن تتحاشى فى براعة كل أنواع الهراء بتفسيره على ضوء الفلسفة » .

ونظر فولينتسف إليه وقال : « ألاتظن أن الأمر كله كان كذبة ؟ » .

«كلا يا بنى . وكفانا حديث فى الموضوع . ولنشعل غليوننا ولندع أختك . فالحديث وهى معنا أعذب والسكوت أيسر . وستقدم لنا الشاى » .

وقال فوليتسف : « أى والله » ، ونادى قائلا : « أدخلى ياألكسندره » .
ودخلت السيدة ليبينا ، فأمسك يدها وطبع عليها قبلة حارة .

* * *

وعاد رودين إلى الدار فى حالة نفسية عجيبة مضطربة ، فقد كان غاضباً من نفسه ، وأخذ ينحى عليها باللائمة لما كان من تهوره الصبيانى الذى لايغتفر ، وقد صدق عليه ذلك القول الحق : « مامن شيء أشد إيلاماً للمرء من اكتشافه أمر حماقة وقع فيها لتوه » .

وكان رودين نادماً . وراح يفح من خلال أسنانه المطبقة قائلا : « أى شيطان حملنى على الذهاب إلى ذلك السيد ؟ يالها من فكرة جنونية ! أأعرض نفسى للوقاحة جهاراً نهاراً ؟ » .

وكانت تجرى فى الوقت نفسه حوادث عجيبة فى بيت السيدة لاسونسكايا ؛ ذلك أن ربة الدار لم تظهر طوال الصباح . ولم تدخل غرفة المائدة لتناول طعام الغداء . وقال بندالفسكى . وهو الوحيد الذى سمح له بدخول غرفتها . إنها مصابة بصداع . ولم ير رودين أيضاً ناتاليا كثيراً . فقد بقيت فى غرفتها مع الآنسة بونكور . فلما قابلته فى غرفة المائدة نظرت إليه نظرة تفيض بالحزن غاص لها قلبه بين ضلوعه . إذ كان وجهها قد علته سمة من التغير كأنما حلت بها مصيبة منذ اليوم السابق . فانتابت رودين هواجس مبهمة . ونشد التسلية فى صحبة باسستوف . واتصل الحديث بينه وبينه . فألفاه غلاماً ممتلئاً حمية . مرحاً نشيطاً يعمر قلبه الأمل السامى والإيمان الطاهر . ثم ظهرت السيدة لاسونسكايا ساعة أو ساعتين مساء فى غرفة الاستقبال . وكانت لطيفة مع رودين . إلا أنها كانت مترفعة بعض الشىء .

تبتسم حيناً ، وتعبس حيناً ، وتتحدث من أنفها فى بطء وتمهل ، وكان جل حديثها تلميحات مبهمة ، وصفوة القول أنها كانت مثالا لسيدة المجتمع المهذبة الكاملة !
ويبدو أن علاقتها برودين قد شابها شيء من البرود ، وحدث رودين نفسه وهو ينظر خلسة إلى رأسها الشامخ قائلا : « ترى ما حل هذا اللغز ؟ » .

ولم تشأ المقادير أن يصبر طويلا حتى يجد حل اللغز ، فبينما كان عائداً إلى غرفته ماراً بالدهليز المظلم وقد انتصف الليل أو كاد إذا ببعضهم يدس فى يده رسالة على حين غرة ، فالتفت فرأى فتاة تبتعد عنه ، وقد خيل إليه أنه لمح فيها وجه خادم ناتاليا ، ودخل غرفته ، وصرف الخادم ، ثم فتح الرسالة وقرأ السطور التالية بخط ناتاليا :

« وافنى فى منتصف السابعة من صباح الغد ، وليس بعد ذلك ، إلى بركة أفديوخين خلف حرجة السنديان ، ولاتفكر فى أى موعد آخر ، وسيكون هذا لقاءنا الأخير ، وفيه النهاية مالم . . تعال ، فإنه ينبغى لنا أن نصل إلى قرار . .

حاشية : إن لم آت فلن يرى أحدنا الآخر مرة أخرى ، وفى تلك الحالة سأكتب لك . . » .

واستغرق رودين فى التفكير ، وأخذ يقلب الرسالة بين يديه ، ثم وضعها تحت وسادته ، وخلع ملابسه واستلقى على فراشه ، ولكنه لم ينم إلا بعد وقت طويل ، نام نوماً خفيفاً ، ثم استيقظ ولما تبلغ الساعة الخامسة .

الفصل التاسع

كانت بركة أفديوخين التى واعدت ناتاليه رودين على اللقاء عندها . قد زالت عنها هذه الصفة منذ وقت طويل . ذلك أن القنطرة التى توصل إليها الماء كانت قد تصدعت . ومضى على تصدعها ثلاثون سنة كاملة . ثم أهملت من بعد . ولا يستطيع المرء الآن أن يتكهن بأن ثم بركة كانت فى هذا الموضع إلا من قاع تلك الوهدة المنبسط الناعم الذى كان يغطيه يوماً الغرين الزلق ، ومن بقايا القنطرة . وكان يقوم على ضفة البركة فى وقت من الأوقات منزل لأحد الملاك ، وقد اختفى هذا المنزل أيضاً منذ وقت طويل . وكانت تدل عليه شجرتا صنوبر ضخمتان ، لم تنقطع الريح قطّ عن الزفيف والدمدمة فى كآبة وحزن وهى تمر خلال غصونهما العالية النحيلة الدائمة الاخضرار . وكانت الشائعات الخفية لاتزال حية بين أهل الريف يتناقلون خبر جريمة بشعة تخيلوا أنها وقعت عند جذورهما . وقيل أيضاً إنه ما من شجرة تسقط من هاتين الشجرتين إلا يموت بسقوطها أحد من الناس . وإن شجرة صنوبر ثالثة كانت تقوم فى ذلك الموضع أطاحت بها عاصفة فقتلت فتاة

صغيرة ، وكان القوم يعتقدون أن أكناف البركة جميعاً مسكونة . كانت البقعة مقفرة موحشة ، كئيبة مظلمة حتى لو واتاها يوم مشمس . وقد زاد فى كآبتها ووحشتها حرجة السنديان الهرمة التى كانت تقوم فى جوارها وقد ذوت أشجارها وماتت منذ وقت طويل . وارتفعت الهياكل السمراء المتناثرة لشجر السنديان الضخم كأنها الأشباح تنقبض لها النفس وهى تطل على ماتحتها من نبات . لقد كانت هذه الهياكل المشئومة أشبه بعصبة من العجائز الأشرار اجتمعوا لتدبير مكيدة خبيثة ؛ وكان يحف بها طريق ضيق لايطرقه الناس إلا لماماً . ولم يكن أحد يمر ببركة أفديوخين إلا إذا ألجأته حاجة ملحة . وقد تعمدت ناتاليا اختيار هذه البقعة المهجورة التى كانت تبعد نصف ميل أو نحو ذلك من منزل السيدة لاسونسكايا .

وبلغ رودين بركة أفديوخين وقد علت الشمس السماء . إلا أن الصباح كان كئيباً تنقبض له النفس ، فقد غشيت السماء كلها غيوم كثيفة يشوبها بياض مغبر . وكانت الريح تدفعها فى طريقها بسرعة ، وهى تصفر وتعوى ، وشرع رودين يروح ويغدو على القنطرة التى كان عالقاً بها نبات رأس الحمام وحشائش القريض الضاربة إلى السواد ، وانتابه قلق واضطراب . فقد كانت تلك المقابلات ، وتلك المشاعر الجديدة تنعش نفسه ، إلا أنها كانت فى الوقت نفسه تشغل باله وخاصة بعد رسالة الليلة الماضية . وأحس بأن النهاية قريبة ، وشعر فى قرارة نفسه بأن عزيمته تخور ؛ وما كان لأحد أن يتبين ذلك وهو يراه يشبك ذراعيه على صدره فى عزم صارم ويتلفت حوله . لقد صدق بيجاسوف عندما قال مرة : إن رودين صنم من أصنام الصين رأسه دائماً أثقل من جسمه . وليس يسهل على المرء إذا استعان برأسه وحده مهما بلغ من قوته ، أن يتبين مايجرى فى طوايا نفسه . ولم يكن رودين ، وهو الثاقب

الفكر النافذ البصيرة ، بمستطيع أن يقول فى يقين جازم : أيحب ناتاليا حقًّا ؟ وهل مايعانيه فى حبها يصدر عن شعور صادق ؟ وهب أنه افترق عنها فهل يقاسى من ذلك ويشق ؟ وإلا فما الذى حمله على أن يدير رأس الفتاة المسكينة . فى حين أن واجب الإنصاف يقتضينا على الأقل أن نقول : إنه لم يتعمد أن يمثل معها دور العاشق الولهان ؟ ولم كان ينتظرها وقد تملكته رعدة خفيفة ؟ ليس لهذا السؤال إلا جواب واحد ، وهو : ما من أحد يجوز عليه الافتتان بقدر مايجوز على من لا قلب له .

وبينما كان رودين يروح ويغدو على القنطرة ، كانت ناتاليا تسرع الخطى إليه مجتازة الحقول وهى تضرب فى العشب الندى .

وظلت خادمتها ماشا تقول لها ، وهى تلاحقها بصعوبة « يا آنسة ! ياآنسة ! ستبتل قدماك ! » .

ولم تأبه ناتاليا لها ، ومضت فى طريقها مسرعة .

واسترسلت ماشا تقول : « آه لو كشفوا أمرنا ! إنها لأعجوبة أننا استطعنا التسلل من المنزل ، فماذا يكون من أمرنا إذا استيقظت الآنسة بونكور ؟ أحمد الله على أن المكان ليس بعيداً غاية البعد . . » ثم أردفت تقول ، وقد أبصرت رودين على حين غرة يقف كالتمثال على القنطرة : « عجباً ! هذا هو السيد . فما باله يقف هكذا فى العراء ، لقد كان أجدر به أن يهبط إلى الوهدة » .

وتوقفت ناتاليا ، وقالت لها : انتظرى هنا ياماشا بجوار شجرتى الصنوبر ، ثم هبطت إلى البركة ، وصعد رودين للقائها ، ولكنه توقف وقد غلبه الذهول ، ذلك

أنه لم ير وجهها من قبل قطّ على هذه الحال . فقد قطبت جبينها وزمت شفتيها . وكانت نظراتها صارمة قاطعة .

وشرعت تقول : « إن وقتنا أضيق من أن نضيعه ياديمترى نيقولايفتش . فقد جئت لأقضى معك خمس دقائق . ويجدر بى أن أنبئك بأن أمى تعرف كل شىء . فقد تجسس علينا السيد بندالفسكى أول أمس . ونقل إليها خبر مقابلتنا . ذلك أنه جرى دائماً على أن يكون جاسوساً لأمى . وقد استدعتنى البارحة إلى غرفتها . . » .

وهتف رودين : « يا إلهى ! إنه لأمر فظيع ! وماذا قالت أمك ؟ »

« لم تغضب منى ولم تنهرنى ، وإنما أخذت علىّ تصرفى الأخرق على حد قولها » .

« وهل اكتفت بذلك ؟ »

« أجل ، ثم قالت : إنه لأهون عليها أن يدركنى الموت سريعاً من أن ترانى زوجة لك » .

« أوقالت ذلك ؟ » .

« أجل . وأردفت تقول : إنه ليس فى نيتك أبداً أن تتزوجنى ، وغاية مافى الأمر أنك تغازلنى لشعورك بالملل ؛ وإنها لم تكن تنتظر منك هذا ، وإنها الملومة لسماحها لى بمقابلتك كثيراً . . وإنها كانت تعتمد على حسن إدراكى . . وإنى قد أدهشتها كثيراً . . وأقوال أخرى كثيرة لا أذكرها » .

وكانت ناتاليا تقول هذا كله فى صوت عجيب فى هدوئه واتزانه .

« وأنت ياناتاليا . . ماذا قلت لها ؟ » .

ورددت ناتاليا قوله : « ماذا قلت لها ؟ وما الذى عولت عليه الآن ؟ » .

وهتف رودين : « ياإلهى ! ياإلهى ! ياللقسوة ! أهكذا بسرعة . وبمثل

هذه الضربة المفاجئة . . ؟ أتقولين إن أمك كانت غاضبة أشد الغضب

« أجل . . أجل ، وهى تأبى أن يذكر أمامها اسمك ! »

« إنه لأمر فظيع ! إذن ، فليس ثم أمل يرجى ! »

« أبداً » .

« لماذا ينال منا سوء الطالع هذا المنال ؟ بندالفسكى – ياله من وغد بـ

تسألينى يا ناتاليا ما عسى أن أصنع ؟ إن رأسى يدور . . ولا أستطيع التفكير

أشعر بمبلغ ماأنا فيه من تعس ، ومن عجب أن تتلقى الأمر بمثل هذا الهدو

وأجابت ناتاليا : « أتظن أن الأمر هين على ؟ »

وأخذ رودين يذرع القنطرة ، وظلت ناتاليا ترمقه بنظراتها لاتريم

وسألها آخر الأمر : « أوَلم توجه إليك أمك أية أسئلة ؟ »

« سألتنى : هل كنت أحبك ؟ » .

« حسنا ، وبماذا أجبتها ؟ »

وسكتت ناتاليا ، ثم قالت : « لم أكذب » .

وتناول رودين يدها وقال : « إنك نبيلة كريمة – دائماً ، وفى كل أمر ،

إن قلوب العذارى قد صيغت من الذهب الخالص ! أو جاهرت أمك ـ

تقف بشدة فى طريق زواجنا ؟ »

« أجل ، لقد قلت لك : إنها مقتنعة بأنه ليس فى نيتك أن تتزو

« إذن فهى تحسبنى محتالا ؛ ماذا فعلت حتى أستحق هذا ؟ » . وأمسك

برأسه بين يديه ، وأخذت ناتاليا تستحثه قائلة : « إننا نضيع الوقت .

نيقولايفتش ، ألا فلتذكر أننى لن أقابلك مرة أخرى ، ولم آت هنا لأ

أشكر ، وأنت ترى أننى لا أبكى . وإنما جئت أطلب منك النصح » .

« ولكن أى نصح يمكننى أن أسديه إليك ياناتاليا ؟ » .

« أى نصح ؟ إنك رجل ، لقد جئت لألقى فى قلبى الإيمان بك وسأومن بك حتى النهاية ، فأفصح عن نواياك » .

« نواياى ! أغلب الظن أن أمك ستحول بينى وبين دخول المنزل » .

« قد يكون هذا ، ذلك أنها قالت لى البارحة إنها ستضطر إلى قطع علاقتها بك . . ولكنك لم تجب على سؤالى » .

« أى سؤال ؟ » .

« ماذا نحن فاعلان الآن فيما تظن ؟ »

وردد رودين قولها : « ماذا نحن فاعلان ؟ يجب أن نستسلم طبعاً » .

ورددت ناتاليا عبارته فى بطء وقد ابيضت شفتاها : « نستسلم ! »

ومضى رودين يقول : « نستسلم للمقادير ، وماعسانا نستطيع غير هذا . إنى لأعلم حق العلم مبلغ ما فى ذلك من مرارة وألم وشقاء لايحتمل ، ولكن احكمى أنت ياناتاليا — إنى فقير . . صحيح أنى أستطيع أن أعمل ، ولكن هب أنى كنت غنياً فكيف تواجهين غضب أمك وانقطاع صلتك بأسرتك على هذا النحو العنيف ؟ كلا ياناتاليا ! هذا أمر لايصح التفكير فيه ، والظاهر أننا لم نخلق لنعيش معاً ، والسعادة التى كنت أحلم بها ليست من نصيبى ! » .

وأخفت ناتاليا وجهها فجأة بين يديها ، وانفجرت باكية فخف إليها رودين .

وصاح فى حرارة : « ناتاليا » ! عزيزتى ناتاليا ! بربك لاتبكى ، ولاتعذبى فؤادى ، وهدئى من روعك . . »

ورفعت ناتاليا رأسها وقالت ، وعيناها تقدحان شرراً من خلال عبراتها : تقول لى هدئى من روعك ، إننى لا أبكى لما توهمت . . إنه ليس ذلك . بل ـتى يؤلمنى أننى كنت مخدوعة فيك ، وى ! لقد جئت أطلب منك النصيحة فى مثل هذه الظروف . فماذا وجدت منك ؟ وجدت أن أول مابادرتنى به هو أن ستسلم ! وإذن . فهذا هو أسلوبك فى تطبيق جميع آرائك عن الحرية والتضحية التى . . . » .

وأخذ صوتها يخفت رويداً رويداً حتى تلاشى .

وراح رودين يقول فى لهجة تنم عن الحيرة والارتباك : « ولكن اذكرى يا ناتاليا . . أننى لا أنكث بوعد أقطعه على نفسى . . وإنما . . » .

ومضت ناتاليا تقول وقد تزودت بزاد من القوة جديد : « لقد سألتنى بماذا أجبت أمى عندما قالت لى إنه لأهون عليها أن يدركنى الموت سريعاً من أن توافق على زواجنا . لقد قلت لها : إنه لأهون على أن يدركنى الموت سريعاً من أن أتزوج أحداً سواك . وأنت تقول . . استسلمى ! إذن فقد كانت على حق . . وغاية مافى الأمر أنك توددت إلى لأن السأم كان قد نال منك . . »

وقال رودين : « أقسم لك ياناتاليا . أؤكد لك . . » ، بيد أنها لم تستمع إليه .

« لماذا لم تصدقنى ؟ ولماذا أنت نفسك . . أم أنك قدرت أنه لن تكون ثم عقبات ؟ إننى لأخجل أن أتحدث فى هذا الأمر . . ولكن كل شىء قد انتهى الآن » .

فقال رودين : « يجب أن تهدئى من روعك ياناتاليا . يجب أن نضع رأسينا معاً

ونتدبر مانستطيع أن نفعله . . » .

وقاطعته ناتاليا قائلة : « ما أكثر ماتحدثت عن تضحية المرء بنفسه ، ولكن هلا علمت أنك لو قلت لى اليوم ، بل فى هذه اللحظة « إنى أحبك ، ولكنى لاأستطيع الزواج منك فإننى لاأعلم مايخفيه الغد . أعطنى يدك واتبعينى » ، لكنت تبعتك ، لقد كنت مستعدة لكل شىء ! ولكن شتان بين الأقوال والأفعال ، وأنت الآن تلوح بغصن الزيتون كما فعلت تماماً أول أمس فى أثناء العشاء فى حضرة فولينتسف ! » .

واندفع الدم إلى وجه رودين . فقد أثر جيشان عاطفتها فى نفسه تأثيراً عظيماً ، إلا أن كلماتها الأخيرة جرحت كبرياءه .

وأنشأ يقول : « إنك منهوكة القوى الآن ياناتاليا ، وأنت لاتدركين مبلغ قسوتك فى إيلامى . وأرجو أن تنصفينى فى الوقت المناسب . وستفهمين عندئذ كم تحملت فى سبيل التخلى عن سعادة لم تكن لتفرض على فيما قلت أى التزام ؛ إن هدوء نفسك لأغلى عندى من أى شىء فى هذه الدنيا . وماأحرانى أن أكون أحط الناس طرًّا لو أننى انتهزت الفرصة . . » .

وقاطعته ناتاليا قائلة : « لعلك . . لعلك على صواب . أما أنا فأهذى بما لا أعرف ، ولكننى كنت أومن بك حتى اليوم ، أومن بكل كلمة تقولها ، فأرجوك أن تزن كلماتك فى المستقبل . ولا تلق الكلام على علاته . فإنى حين قلت لك إنى أحبك كنت أعرف معنى هذه العبارة ، لقد كنت مستعدة لأى شىء . . ولم يبق لى الآن إلا أن أشكرك على الدرس الذى ألقيته علىّ . وأن أستودعك الله » .

« كفى بالله ياناتاليا . أتوسل إليك . إنى لم أفعل شيئاً أستحق من أجله

ازدراءك . وأقسم لك على هذا . ولتحاولى أن تضعى نفسك فى موضعى . فإنى مسئول عنك وعن نفسى . ولو أننى لم أكن أحبك أخلص الحب وأعمقه– رباه ! – لكنت قد عرضت عليك أن تهربى معى . أما أمك فإنها كانت خليقة أن تصفح عنك إن عاجلا أو آجلا . . ثم . . ولكن قبل أن أفكر فى سعادتى . . » .

وكبح جماح نفسه . فقد أزعجته نظرة ناتاليا وهى تتفرس فيه دون أن يهتز لها جفن .

وقالت : « إنك تبذل قصارى جهدك لتثبت لى أنك رجل شريف . وأنا لا أشك فى هذا . فإنك لست من طراز أولئك الذين يدبرون الخطط . ولكن أهذا الذى كنت أريد أن أقنع به نفسى ؟ ألهذا جئت إلى هنا ؟ » .

« لم أتخيل قطّ يا ناتاليا . . » .

« آه ! لقد كشفت الآن عن خبيئة نفسك . أجل . إنك لم تتخيل قط أن ينتهى الأمر إلى ما انتهى إليه ؛ ذلك أنك لم تكن تعرفنى . ولكن لا تنزعج . إنك لا تحبنى . وأنا لا أفرض نفسى على أحد » .

وهتف رودين : « إنى أحبك ! » .

وشدت ناتاليا قامتها وقالت : « ربما . ولكن كيف يكون هذا الحب ؟ إنى لأذكر جميع كلماتك يا ديمترى نيقولايفتش . ألا تذكر أنك قلت لى : لا يقوم الحب إلا إذا تساوى الطرفان فى كل شىء ؟ إنك لأرفع منى كثيراً . ولست مثلك . . لقد حق على العقاب . ولسوف تقبل على أمور أجدر بك منى بكثير . ولن أنسى هذا اليوم . أستودعك الله . . » .

« ناتاليا . أذاهبة أنت ؟ أوحق علينا أن نفترق على هذا النحو ؟ » .

ومد يديه إليها . فتوقفت . وبدا أن صوته المبتّهل قد أوهن من عزيمتها .

وتكلمت آخر الأمر فقالت : « كلا . فإنى أشعر بأن شيئاً قد انتزع من أعماق نفسى . لقد جئت وتحدثت إليك كالمحمومة . ويجدر بى أن أثوب إلى رشدى . إن ذلك لايمكن أن يكون . وهذا هو ماقلته أنت . ياإلهى . لقد ودعت فى مخيلتى وأنا مقبلة فى طريقى إليك . بيتى وماضى كله . ثم ماذا حدث ؟ ومن لقيت هنا ؟ لقيت قلباً ضعيفاً . وما الذى جعلك تحسب أننى لن أقوى على احتمال الفرقة بقطع مابينى وبين أسرتى ؟ « إن أمك تأبى زواجنا . . إنه لأمر فظيع ! » . وهذا هو كل ماسمعته منك . فهل أنت صادق مع نفسك ؟ هل هذا هو شأنك يا ديمترى نيقولايفتش ؟ كلا وداعاً . . أواه . لوكنت تحبنى لشعرت بحبك الآن . وفى هذه اللحظة . . كلا . كلا . وداعاً ! » .

ودارت على عقبيها وانطلقت صوب ماشا التى كانت بدافع من قلقها قد دأبت منذ وقت طويل على أن تبدى لها من الإشارات مايفصح عن هذا القلق .

وصاح رودين من وراء ناتاليا : « إنك أنت الجبانة ولست أنا ! » .

ولم تعره ناتاليا من بعد التفاتاً . ومضت إلى المنزل لاتلوى على شىء مجتازة الحقول . وعادت إلى مخدعها دون أن يقع لها حادث . ولكنها ما إن اجتازت عتبة الباب حتى خارت قواها وغشى عليها بين ذراعى ماشا .

وتلكأ رودين عند القنطرة طويلا . واستيقظ آخر الأمر من سباته . وشق طريقه فى بطء إلى الممر . واجتازه فى غير عجلة . لقد كان يشعر بذلّ وقلق عظيمين . وحدث نفسه قائلا : « يالها من فتاة ! ثم هى لم تجاوز الثامنة عشرة ! كلا لم أكن أعرفها . ما أعجبها من فتاة ! ويالقوة إرادتها ! إنها على حق . فهى

خليقة بحب أفضل من الحب الذى كنت أشعر به نحوها » ، ثم ساءل نفسه : « أشعر به ؟ ألا أشعر به بعد ؟ وهكذا انتهى كل شىء إلى زوال ! ياالضآلتى فى عينيها ! » .

وطرق أذنى رودين جلجلة خفيفة صادرة من عربة سباق . فرفع عينيه ورأى ليزنيف يسوق جواده الأثير خبباً مقبلا نحوه . وانحنى كل منهما للآخر فى سكون . ومالبث رودين أن هجر الطريق الذى كان يسير فيه كأنما طرأت عليه فكرة مفاجئة . وغذّ السير ميمماً صوب منزل السيدة لاسونسكايا .

وتركه ليزنيف يمر ، ثم شيعه بنظراته . وأعمل الفكر لحظة . ثم لوى عنان جواده . وانطلق إلى منزل فولينتسف . حيث كان قد قضى ليلته بالأمس . فوجد فولينتسف نائماً . وأمر الخدم بألا يوقظوه . وجلس فى الشرفة ، وأشعل غليوناً فى انتظار الشاى .



الفصل العاشر

استيقظ فولينتسف فى الساعة العاشرة أو نحوها . واشتدت دهشته إذ علم أن ليزنيف يجلس فى الشرفة . فأرسل إليه يقول إنه سيلقاه فى غرفته .

وسأله : « ما الخبر؟ لقد كنت تنوى أن تعود إلى دارك » .

« لقد كان ذلك فى نيتى . ولكننى صادفت رودين فى طريقى . وكان يجتاز الحقول وحده . وقد بدا مضطرباً غاية الاضطراب حتى إننى قررت العودة » .

« أتريد أن تقول إنك عدت لأنك صادفت رودين ؟ » .

« لست أعرف وايم الحق لم عدت ؟ . ولعلنى ذكرتك فأحببت أن ألقاك مرة أخرى . ولم يكن ثمة مايحملنى على العودة سريعاً إلى دارى » .

وابتسم فولينتسف ابتسامة مريرة وقال : « أجل . فإنك تستطيع أن تفكر الآن فى رودين دون أن تفكر فى » . ثم نادى بصوت مرتفع : « أنتم يامن هناك . إلينا بشىء من الشاى ! » .

وأخذ الصديقان يشربان الشاى . وشرع ليزنيف يتحدث فى أمور تتصل

بالعمل ، أو قل فى طريقة جديدة لتغطية أسقف الأنبار بالورق . . .

وقفز فولينتسف بغتة من كرسيه المريح ، وضرب المائدة بقوة جلجلت الأقداح والصحاف .

وهتف : « كلا ! لم أعد أحتمل هذا ! سأتحدى ذلك الرجل الماهر وأتركه يقتلنى ، أو أودع رأسه المليء بالعلم رصاصة ! »

وتمتم ليزنيف : « وى ، على رسلك ، على رسلك ! كيف ترفع عقيرتك هكذا ؟ لقد جعلت الغليون يسقط من فمى ، ماذا دهاك ؟ » .

« لا أطيق سماع اسمه ، فإن سماعى له يجعل دمى يغلى فى عروقى » .

فعنفه ليزنيف ، وهو يلتقط غليونه من الأرض ، قائلا : « مهلا ، مهلا يا صديقى ، يجب أن تخجل من نفسك ، كفى ! وليذهب إلى الجحيم » .

ومضى فولينتسف يقول ، وهو يذرع الغرفة : « لقد أهاننى ذلك الرجل ، أجل لقد أهاننى ، وإنك لتسلم بهذا ! كنت أول الأمر فى حيرة من أمرى ، فقد أخذنى على غرة ولم أك أتوقع قط ماحدث ! ولكننى سأثبت له أننى لست ممن يعبث بهم ، سأقتل ذلك الفيلسوف الملعون كما لو كنت أقتل حجلا » .

« لشد مايعود عليك هذا بالخير ! ، ناهيك بوقع ذلك فى نفس أختك ! لاشك أنك واقع تحت رحمة آلام نفسية عنيفة أعجزتك عن التفكير فى أختك ، ولكن ما رأيك فى الطرف الآخر ؟ أتظن أنك تصلح الأمور بقتل غريمك الفيلسوف ؟ » .

وألقى فولينتسف بنفسه فى كرسى مريح ، قائلا : « إذن سأرحل إلى مكان ما ، إن قلبى ليذوب هنا ، ولست أدرى ماذا أفعل بنفسى ؟ » .

« تقول إنك سترحل ، إذن فهذا شيء آخر . بل هو الشيء الذى يجب أن تفعله . أتدرى ماأعنيه ؟ لنرحل معاً . . إلى القوقاز . أو نكتفى بالسفر إلى أوكرانيا ، ونأكل « الجالوشكى » الذى اشتهر القوم به هناك . لقد وفقت كثيراً فى فكرتك هذه ! » .

« وأترك أختى وحيدة لايؤنس وحشتها أحد ؟ ».

« ولم لاتأتى السيدة ليبينا معنا ؟ لعمرى ليكونن هذا خير ما نفعل ! ولو جاءت لسهرت عليها ، وجعلت العناية بها شغلى الشاغل ، ولن ينقصها من ثم شيء ؛ وحسبى كلمة تفصح عن موافقتها فأرتب لها كل ليلة من يشدو بأناشيد الحب تحت نافذتها . وأنضح الحوذى بالعطر . وأغرس الزهور على طول الطريق . أما أنت وأنا يا صديقى – فسنكون كمن ولد من جديد ، ولسوف ننعم بالكثير . ونثوب وقد سمن كرشانا فلا نعود نصلح للحب أبدا » .

« كل همك أن تمزح » .

« أنا لا أمزح بحال ، وإنما كانت فكرتك هذه شيئاً رائعاً ».

« كلا ! فإنها ليست إلا عبثاً وهراء ! سأناضل ، أريد أن أناضله ! » .

« تعود إلى الشطط مرة أخرى ! إنك اليوم فى حالة من الحنق لم أعهدها فيك من قبل إلا نادراً ! » .

ودخل خادم وفى يده خطاب .

وسأله ليزنيف : « ممن الخطاب ؟ » .

« من ديمترى نيقولايفتش رودين ، أتى به خادم من خدم السيدة لاسونسكايا » .

وردد فوليتتسف القول : « من رودين ؟ ولمن ؟ » .

« لك يا سيدى »

« لى ؟ على به ! » .

وأمسك فوليتتسف الخطاب وفضه على عجل ، ومر مروراً سريعاً على محتوياته . وكان ليزنيف يرقبه عن كثب . وغشى ملامح فوليتتسف ذهول عجيب يكاد يبلغ مبلغ الفرح ، وأرخى يديه .

وسأله ليزنيف : « وماالذى جاء فى الخطاب ؟ » .

فقال فوليتتسف فى صوت أجش : « اقرأه » ، وناوله الخطاب .

وأخذ ليزنيف يقرؤه ، وهذا ماكتبه رودين :

عزيزى سرجى بافلوفتش :

. إنى لراحل اليوم عن منزل السيدة لاسونسكايا ، راحل فى ضوء ماحدث بالأمس ، ولا أستطيع أن أشرح لك بالدقة الأسباب التى تحملنى على ذلك ، إلا أننى أشعر بأنه ينبغى على أن أنبئك برحيلى ، إنك تبغضنى ، بل تعدنى رجلا سيئ السمعة ، وليس فى نيتى أن أبرئ نفسى ، فالزمن كفيل بهذا ، وعندى أنه ليس خليقاً بالمرء ولاهو بمجديه أن يحاول أن يثبت لشخص من أصحاب الهوى بطلان أهوائه ، ذلك أن من يفهمنى يعذرنى ، ومن لا يفهمنى أو لا يستطيع أن يفهمنى — لن يحرك لومه منى ساكناً ؛ لقد كنت مخدوعاً فيك ، ولسوف تظل فى نظرى الرجل النبيل الشريف ، ولكنى حسبتك قادراً على الارتفاع عن البيئة التى تنتمى إليها ، وكنت فى ذلك مخطئاً ، واأسفاه . فإن هذه ليست هى المرة الأولى ، ولن تكون الأخيرة ، أجل ، إنى راحل ، وأتمنى لك السعادة والهناء ، وأرجو أن تعلم أن

رغبتى تلك كانت بريئة كل البراءة من الهوى ، وأرجو أيضاً أن تكون ناعم البال الآن ، ولعلك تغير رأيك فى عندما يأتى الأوان . لست أدرى : أنلتقى مرة أخرى ؟ ، ولكنى سأظل دائماً .

المخلص الذى يكن لك الاحترام

د . ر .

حاشية : سأرد لك مائتى الروبل التى اقترضتها منك عندما أصل إلى قريتى فى ناحية « ت – آيا » وأرجوك ألا تذكر شيئاً من أمر هذا الخطاب للسيدة لاسونسكايا .

حاشية أخرى : لى مطلب آخر لامطلب لى بعده . لكنه من الأهمية بمكان : « أما وإنى راحل الآن فرجائى إليك ألا تذكر أبداً لناتاليا لاسونسكايا خبر زيارتى لك » .

وما إن فرغ ليزنيف من تلاوة الخطاب حتى سأله فولينتسف : « والآن . ما رأيك فى هذا ؟ » .

وهتف ليزنيف : « وماعسى المرء أن يقول ؟ حسبه أن يصيح قائلا : « الله . الله ! » كما يفعل المشارقة ويضع إصبعه فى فمه كالمشدوه ، إنه راحل ، وأنا أقول إلى غير رجعة ؛ ولكن الشىء العجيب أنه ظن أن الواجب يقتضيه أن يكتب هذا الخطاب إليك ، وأن الواجب يقتضيه أيضاً أن يأتى ليراك . . إن كل خطوة يخطوها هؤلاء السادة لواجب من الواجبات » ثم أضاف ليزنيف وهو يشير إلى الحاشية بابتسامة ساخرة : « إن عليهم دائماً واجباً يقضونه . . أو ديناً يوفون به » .

وصاح فولينتسف : « ياللعبارات التى يسوقها سوقاً ! لقد كان مخدوعاً فى .

فقد حسب أننى سأرتفع عن بيئة من البيئات أو شيئاً من هذا القبيل ! يا إلهى ! ياللهراء ! إنه لأقبح من الشعر ؛ »

ولم يجب ليزنيف ، ولكن كان فى عينيه بريق .

وانتصب فولينتسف واقفاً وقال : « أريد أن أزور السيدة لاسونسكايا ، يجب أن أتبين معنى هذا كله » .

« مهلا يا صديقى ، أفسح له الوقت حتى يرحل ؛ ما بالك تريد أن تسرع إليه مرة أخرى ؟ إنه على وشك الرحيل ، فماذا تود أكثر من هذا ؟ لخير لك أن تأوى إلى فراشك وتنال قسطاً من النوم ، فإنك بلا شك قد تقلبت فى فراشك طول الليل ، ولكن أمورك أخذت تتكشف الآن » .

« ما الذى حملك على هذا الظن ؟ » .

« وى ! هذا مايبدو لى ، ويحسن بك حقًّا أن تغفو قليلا . أما أنا فسأذهب لأجلس مع أختك » .

فقال فولينتسف وهو يجذب أطراف سترته : « ليست لى أقل رغبة فى النوم ! ولماذا أنام ؟ سأسرع إلى الحقول أتفقدها » .

« فكرة لابأس بها ؛ اركب جوادك ياصديقى ، اركب جوادك واخرج ، وألق نظرة فاحصة على تلك الحقول » .

ومضى ليزنيف إلى جناح السيدة ليبينا .

ووجدها ليزنيف فى غرفة الاستقبال ، فحيته مرحبة ، فقد كان يسرها دائماً أن تراه ، إلا أن القلق ظل مرتسماً على وجهها ، فقد أزعجتها زيارة رودين بالأمس .

وسألت ليزنيف : « هل رأيت أخى ؟ كيف حاله اليوم ؟ »

« إنه بخير ، وقد خرج ليلقى نظرة على الحقول » .

والتزمت السيدة ليبينا الصمت لحظة . ثم شرعت تقول وهى تحدق ملياً فى أطراف منديلها : « هلا أخبرتنى ! أو تعلم الغرض من . . ؟ » .

وقاطعها ليزنيف قائلا : « من زيارة رودين ؟ أجل . لقد جاء مودعاً » .

ورفعت السيدة ليبينا رأسها وقالت : « ماذا تقول ؟ مودعاً ؟ »

« أجل . ألم يبلغك الخبر ؟ إنه سيترك السيدة لاسونسكايا » .

« أراحل هو ؟ » .

« إلى غير رجعة ، وهذا على الأقل مايزعمه هو » .

« ولكنى لاأفهم بعد كل هذا . . » .

« وى . ذلك شىء آخر ! إنه لأمر غير مفهوم . ولكنه الواقع فعلا ، وما من ريب فى أن شيئاً حدث بينهما . لقد أفرط فى شد الوتر . . فانقطع ! » .

وأنشأت تقول : « إننى لاأفهمك يا ميخائيل ميخائيلوفتش . ويبدو لى أنك تسخر منى » .

« لا والله ! أقول لك إنه راحل . بل إنه ليخطر معارفه برحيله كتابة . وليس هذا فى رأى بعضهم بالأمر السيئ ، إلا أن رحيله قلب رأساً على عقب خطة رائعة كنت أناقش فيها أخاك » .

« خطة . أى خطة ؟ » .

« هى هذه . لقد اقترحت على أخيك أن نسافر فى رحلة نسرى بها عن أنفسنا . ونأخذك معنا . وقد تعهدت بأن أسهر على راحتك . . » .

وقالت السيدة ليبينا فى سخرية وتهكم : « ما أبدع هذا ! فى مقدورى أن

أتخيل كيف يكون سهرك على راحتى ، وى ، لسوف تضيق على الأنفاس حتى أقضى » .

« تقولين هذا لأنك لاتعرفينى . وتحسبينى دمية ، دمية من الخشب ، أفلا تعلمين أننى أستطيع أن أذوب كما يذوب السكر ، وأن أقضى أياماً بطولها جاثياً على ركبتى ؟ » . « أسلم لك بأن هذا المشهد لا أحب أن يفوتنى » .

وانتصب ليزنيف واقفاً على حين غرة وقال : « إذن فما عليك إلا أن تتزوجينى ، فلا يفوتك هذا المشهد » .

وصبغ دم الخجل وجه السيدة ليبينا حتى بلغ منابت شعرها وتمتمت فى حيرة وارتباك : « ماذا قلت ؟ » .

وأجاب ليزنيف : « لقد قلت ماتردد على أطراف لسانى منذ أمد بعيد ، بل ماعجزت عن أن أقوله ألف مرة ؛ لقد انطلق لسانى أخيراً ، ولك أن تفعلى بهذا الأمر ما شئت ، ولكننى لا أريد إحراجك ولأتركك الآن ، وإذا شئت أن تكونى زوجتى . . إنى لذاهب ! فإن كنت لاتشمئزين من هذه الفكرة فما عليك إلا أن ترسلى فى طلبى ، وسأفهم . . » .

وهمت السيدة ليبينا كأنها تريد أن تحول بين ليزنيف والرحيل ، إلا أنه انصرف على عجل ، ودخل الحديقة عارى الرأس ، ومال على بابها وحملق فى الفضاء .

وطرق سمعه صوت خادم تقول من خلفه : « سيدى ليزنيف ، إن سيدتى تريد أن تراك ، أرجوك ، إنها تريد أن تراك » .

ودار ليزنيف على عقبيه ، وأخذ رأس الخادم بين يديه وطبع قبلة على جبينها ، دهشت لها كثيراً ، ثم صعد للقاء السيدة ليبينا .

الفصل الحادى عشر

وعاد رودين إلى الدار بعد لقائه ليزنيف مباشرة . واعتكف فى غرفته ، ثم كتب خطابين : أحدهما إلى فولينتسف (وقد مر بالقارئ) والآخر إلى ناتاليا ، وقد استغرق فى كتابة الخطاب الأخير وقتاً طويلا جداً يحذف ويبدل كثيراً من عباراته ، ثم بذل عناية فى نسخه على ورقة من كراسة الخطابات الأنيقة ، وطواه فى أقل حجم ممكن ووضعه فى جيبه ، وشرع يروح ويغدو فى الغرفة وقد غشيت وجهه مسحة من الحزن ، ثم جلس فى كرسى مريح بجوار النافذة ، وأسند ذقنه بيده ، وسالت دمعة فى هدوء من رموش عينيه . . . ثم نهض وزرر أزرار سترته ، ونادى الخادم وطلب منه أن يسأل السيدة لا سونسكايا هل يستطيع أن يلقاها ؟ وسرعان ما عاد الخادم ينقل إليه أن سيدته فى انتظاره ، فمضى رودين إليها .

واستقبلته فى مكتبها ، كما فعلت فى المرة الأولى منذ شهرين ، إلا أنها لم تكن وحدها هذه المرة ، فقد كان بندالفسكى يجلس معها كما ألفناه متواضعاً متألقاً أنيقاً متكلفاً .

ورحبت السيدة لاسونسكايا برودين فى أدب ، وانحنى لها رودين متأدباً ، إلا أن نظرة واحدة إلى وجهيهما الباسمين كانت تكفى أى دارس للطبيعة البشرية أن يعلم بأن شيئاً مكدراً يعز على الإفصاح قد وقع بينهما ؛ وكان رودين يعلم أن السيدة لاسونسكايا غاضبة منه ، وكانت السيدة لاسونسكايا تشتبه فى أنه على علم بما حدث فعلا .

لقد أزعجتها كثيراً وشاية بندالفسكى ، وأحيت فى صدرها شعور السيدة العظيمة ، إذ كيف اجترأ رودين ، ذلك الرجل الفقير الذى لا لقب له ولا حسب والذى لم ينبه صيته بين الناس بعد على مواعدة ابنتها . . . ابنة داريا ميخائيلوفنا لاسونسكايا .

وقالت تناقش هذا الأمر : « هب أنه رجل بارع بل عبقرى ! فما قيمة ذلك ؟ أمعناه أن كل إنسان يستطيع أن يأمل أن يصبح زوجاً لا بنتى ؟ »

ووافقها بندالفسكى وقتئذ بقوله : « لم أصدق عينى وقتاً طويلا ، ألا ما أقبح أن يجهل المرء قدره ! »

وصبت السيدة لاسونسكايا فى سورة غيظها جام غضبها على ناتاليا .

وطلبت من رودين أن يجلس ، فلبى الأمر ، ولم يكن رودين كعهدنا به - رب ندار أو يكاد ، أو حتى ذلك الصاحب القديم ، بل أصبح ضعيفاً ، ضعيفاً لا يستأهل الترحيب أبداً ، حدث كل هذا فى مثل وميض البرق ، كالماء يستحيل بغتة إلى ثلج صلد .

وأنشأ رودين يقول : « لقد جئت أشكرك يا سيدتى على كرم ضيافتك ، فقد تلقيت أنباء من قريتى الصغيرة تحتم على الرحيل اليوم بلا إبطاء »

وحدقت السيدة لا سونسكايا مليًّا فى رودين ، وقالت تحدث نفسها : « لقد سبقنى ، وإنى لأحسب أنه قد تكهن بكل شىء ، وهذا يكفينى مئونة شرح الأمر على ما فيه من إيلام وخيراً فعل ، بارك الله فى القوم البارعين » .

ثم جاهرت بالقول : « حقاً ؟ واأسفاه ! ولكن لابد مما ليس منه بد ، وسأتطلع إلى لقائك فى موسكو هذا الشتاء ، فإننا لا نلبث أن نعود إلى المدينة » .

« لست واثقاً يا سيدتى من أنى أستطيع الذهاب إلى موسكو ، ولكن إذا تهيأت لى الوسيلة فستكون زيارتك فرضاً على »

وأخذ بندالفسكى يحدث نفسه أيضاً قائلا : « ها يا صديقى ! لقد كنت منذ برهة السيد المتحكم هنا ، فما بالك تتحدث الآن هكذا ؟ »

وقال بندالفسكى فى صوته المتزن المعهود : « لا شك أنك تلقيت أنباء سيئة من قريتك ! »

فأجاب رودين فى جفاء : « أجل »

« ربما كان المحصول رديئاً ؟ »

« كلا – ليس الأمر كما تقول » ، ثم أردف : « صدقينى يا سيدتى ، لن أنسى الوقت الذى قضيته فى دارك »

« وأنا أيضاً سأذكر تعارفنا دائما بالابتهاج والسرور . . . ومتى ترحل ؟ . »

« اليوم ، بعد الغداء »

« بهذه السرعة ! على رسلك ، وإنى لأتمنى لك رحلة سعيدة ، أجل ، وإذا لم تعقك أعمالك كثيراً فربما أدركتنا هنا »

فقال رودين وهو ينهض : « لسوف يتعذر على أن أعود » ثم أردف يقول :

« عفواً ، ولكنني لست فى مركز يسمح لى بأن أفيك فى هذه اللحظة ما على من دين ، ولكنني ما إن أبلغ قريتى . . . »

فقاطعته قائلة : « وى ! وى يا ديمترى نيقولايفتش ، لا تذكر ذلك ، وبهذه المناسبة ما الساعة ؟ »

وأخرج بندالفسكى من جيب صداره ساعة ذهبية صغيرة طليت بالميناء ونظر فيها . وهو يميل فى عناية خده المتورد على بنيقته البيضاء الجامدة .

وقال : « الساعة الثانية والدقيقة الثالثة والثلاثون »

فهتفت السيدة لا سونسكايا : « يجب أن أبدل ملابسى ، إلى اللقاء يا ديمترى نيقولايفتش ! »

وغادر رودين الغرفة ، وكان الحديث كله الذى دار بينه وبين السيدة لا سونسكايا يتسم بطابع خاص أشبه بمرانة الممثلين على أداء أدوارهم . وبتبادل الساسة فى المؤتمرات عبارات معدة من قبل .

لقد تعلم الآن بالتجربة كيف أن علية القوم لا يلفظون المرء فحسب ، بل يتركونه يسقط إذا انتهت حاجتهم إليه ، كما يفعلون بالقفاز بعد الرقص . أو بالورق الذى يغلف قطعة من الحلوى ، أو بتذكرة « يا نصيب » لم تربح .

وحزم متاعه على عجل ، وأخذ ينتظر ساعة رحيله بصبر نافد ، وقد استبدت الدهشة بكل من فى المنزل عندما علموا بنيته ، وكان الخدم أنفسهم ينظرون إليه نظرات الحيرة والارتباك ؛ ولم يحاول باسستوف أن يخفى ألمه . وكان من الجلى أن ناتاليا تتحاشاه ، فقد أمسكت عن أن تقابل نظراتها نظراته ، إلا أنه أفلح فى دس خطابه فى يدها ؛ وكررت السيدة لا سونسكايا فى أثناء الغداء رجاءها فى أن

تراه قبل أن يرحل إلى موسكو ، إلا أن رودين لم يجب ؛ وحاول بندالفسكى أن يجره إلى الحديث معه ، وتملكت رودين أكثر من مرة رغبة قوية فى أن ينقض عليه ويلكم وجهه المتورد الذى يفيض صحة وعافية ؛ وظلت الآنسة بونكور تصوب إلى رودين نظرات تنطق بالمكر والخبث ، نظرات يستطيع المرء أحياناً أن يلمح لها شبيهاً فى عينى كلب الصيد العجوز الخبير ، وقد بدا أنها تحدث نفسها قائلة : « أف ! لقد دارت عليك الدوائر الآن . »

ودقت الساعة السادسة آخر الأمر ، ودرجت إلى الباب عربة السفر التى سيستقلها رودين ، وراح يودع الموجودين على عجل ، وكان حزيناً مغموماً ، فما كان يتوقع قط أن يبرح الدار على هذا النحو الذى كان كالطرد أو هو أشبه ، وأخذ يحدث نفسه قائلا : « ياللموقف البديع ! ما الذى جعلنى أدفع الأمور إلى غايتها ؟ إيه ! لابد مما ليس منه بد ! » كان هذا ما يجول بفكره عندما شرع ينحنى فى كل ناحية محيياً المجتمعين وعلى شفتيه ابتسامة مغتصبة ، ثم نظر إلى ناتاليا نظرة أخيرة حارت لها عزيمته ؛ فقد شاع اللوم فى نظرة الوداع الحزينة التى لاحت فى عينيها .

وهبط الدرج مسرعاً ، وقفز إلى عربة السفر ، وتطوع باسستوف بمرافقته إلى أول محطة ، وركب العربة معه . وقال رودين عندما غادرت العربة فناء البيت وخرجت إلى الطريق الواسع يحف به شجر الشربين : « أتذكر ما قاله دون كيخوته لتابعه وهو يغادر بلاط الدوقة ؟ قال : (الحرية نعمة من أغلى النعم التى أفاءها الله على الإنسان ؛ سعيد من يعطيه الله كسرة خبز لا يدين بالفضل فيها لأحد إلا الله وحده) ، وإنى لأشعر الآن بما كان يشعر به دون كيخوته وقتئذٍ ، وأرجو الله يا عزيزى باسستوف أن تنعم أنت أيضاً بهذا الشعور فى يوم من الأيام » .

وتأثر باسستوف ، فضغط على يد رودين ، وأخذ قلب الشاب الأمين ينبض بقوة فى صدره المتأجج ، وظل رودين يتحدث طوال الطريق إلى المحطة عن كرامة الإنسان وعن معنى الحرية الحق ، وقد شاعت الحرارة فى حديثه كما شاع النبل والصدق ، وحانت ساعة الفراق ، فأطلق باسستوف لعواطفه العنان ، وألقى بنفسه على رودين وراح ينتحب ، وانهمرت الدموع من عينى رودين أيضاً ، على أنه لم يكن يندب فراقه لباسستوف ، بل كانت دموعه دموع الغرور والخيلاء .

وأوت ناتاليا إلى غرفتها ، وقرأت خطاب رودين .

وقد كتب إليها يقول :

« عزيزتى ناتاليا : لقد عزمت على الرحيل ، ولم يكن لى حيلة فى ذلك . عزمت على الرحيل قبل أن يطلب منى أن أغادر الدار ، وسيضع رحيلى كل شىء فى نصابه ، ولن يفتقدنى أحد . فما الذى يدعوه إلى ذلك ؟ وهذه هى الحقيقة ، ولكن ، ما الذى يدفعنى إلى الكتابة إليك.؟

« إنى أفارقك . وقد يكون ذلك إلى الأبد ، ولسوف يحز فى نفسى أن تظنى بى من السوء فوق ما أستحق ، وهذا هو ما حملنى على الكتابة إليك . ولست أريد أن أبرر موقفى . أو ألوم أحداً إلا نفسى ، وأود أن أبين لك مسلكى بأحسن ما أستطيع ، لقد كانت حوادث الأيام القليلة الماضية أشد ما يكون مباغتة وأبعد ما تكون توقعاً . ولاشك أن لقاءنا اليوم سيكون درساً لن أنساه . لقد كنت على حق ، وكنت أنا واهماً عندما ظننت أننى عرفتك ! لقد بلوت صنوف الناس جميعاً طوال حياتى ، وصادقت الكثير من النساء والفتيات ، ولكنك كنت أول من صادفت فى حياتى كلها شرف نفس وطهارة قلب ، فأذهلتنى صفاتك عن أن أفيك

حقك . لقد انجذب إليك قلبي من أول لقاء – ولعلك لا حظت ذلك . وقضيت ساعات معك – على أنني لم أعرفك ، ولست بمستطيع أن أقول حقاً إنني حاولت أن أعرفك . . . ومع ذلك فقد خيل إلى أنني وقعت فى حبائل حبك ! وأنا الآن ألقى الجزاء على ما أجرمت .

« لقد أحببت امرأة من قبل وبادلتني الحب ، وكان شعوري نحوها معقداً ، وكذلك كان شعورها نحوى ؛ ولم يكن ذلك عن افتعال بل كان طبيعياً . لأن طبيعتها كانت بعيدة عن البساطة ، ولم أتبين حقيقة الأمر وقتئذ . ولم أتبينه عندما واجهته ، وأنا الآن على بينة منه ، ولكن بعد فوات الوقت ، ولأترك الماضي فلا أعود إليه . لقد كان من الممكن أن يلتئم شمل حياتنا . وهيهات أن يكون ذلك الآن ؛ كيف أثبت لك أنني كنت خليقاً بأن أحبك حباً صادقاً . حباً ينبع من القلب لا من الخيال ، فى حين أنني أنا نفسي لا أستطيع أن أتبين : هل كان فى مقدوري أن أحبك مثل هذا الحب ؟

« لقد سخت على الطبيعة بالنعم ، وأجزلت لى العطاء ، وأنا أعلم ذلك ، ولن أحاول أن أتكلف معك تكلف من يصطنع الحياء الكاذب وخاصة الآن . فى لحظة يفيض فيها قلبي بالمرارة والذلة ، أجل ، لقد سخت على الطبيعة بالنعم ، ولكنني سأقضي دون أن أحقق شيئاً جديراً بمواهبي ، أو أترك أى أثر ينفع الناس . وستذهب جميع كنوزي بدداً ، ولن أرى ثمرة ما أزرع ، وإنه لينقصني . . . ولست أدرى تماماً ما ينقصني . . لعل ما ينقصني هو ذلك الشيء الذى يستحيل على المرء بدونه أن يحرك قلوب الرجال أو يفوز بقلب امرأة ، أما السيطرة على العقل وحده فأمر مشكوك فيه ولاجدوى منه ؛ إن مصيري مصير عجيب بل هو مضحك

أو يكاد ، أحاول أن أبذل نفسى قلباً وروحاً ، أبذل نفسى جميعاً صادقاً مخلصاً . . . فأجدنى عاجزاً عن ذلك ، وسينتهى بى الأمر إلى أن أبذل نفسى فى سبيل قضية سخيفة ربما لا أكون مؤمناً بها . يا إلهى ! ما أعجب أن يكون المرء دائباً على التأهب لتحقيق شىء وقد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره !

« لم أتحدث قط بهذا الحديث إلى أحد من قبل ، وهذا هو اعترافى

« حسبى ما تحدثت به عن نفسى ، فإنى أحب أن أتحدث عنك وأن أسدى إليك بعض النصح . فلست أصلح لشىء غير هذا . . . إنك مازلت شابة ، فلا تلبى إلا نداء قلبك مهما بلغ بك العمر ، ولاتدعى لعقلك أو أى شخص آخر سلطاناً عليك ، وصدقينى أنه كلما ضاقت دائرة حياتك وزاد حظها من البساطة ، كان ذلك خيراً لك ، وليس الأمر أمر التماس نواح جديدة فى الحياة ، بل إنه لأحرى بك أن تدعيها تجرى فى مجراها رخية ميسرة على مراحل معلومة . (طوبى لمن يظل شاباً فى شبابه . . .) ولكننى أرى أن نصيحتى تصدق على أكثر مما تصدق عليك بكثير .

« والحق يا ناتاليا أننى فى أسوأ حال ، فما خدعت نفسى قط عن طبيعة الشعور الذى أثرته فى أمك ، ولكننى كنت أرجو أن أجد على الأقل مأوى إلى حين . . . أما الآن فلا مناص لى من أن أهيم على وجهى مرة أخرى شريداً بلا مأوى ، ومن لى بمن يعوضنى عن حديثك ومحضرك ونظراتك الحكيمة المتوقدة ؟ إن اللوم فى ذلك على وحدى ، ولكنك تسلمين بلا شك أن الزمن قد تعمد أن يسخر منا . . . لقد كنت منذ أسبوع واحد لا يكاد يخامرنى شك فى أننى أحبك ، وحدث فى أول من أمس عندما كنا فى الحديقة أن قلت لى . . . ولكن أى فائدة ترجى من تذكيرك بما

قلت ؟ . . . واليوم أرحل . أرحل والعار يكسونى . بعد أن أفصحت لك عن حقيقة أمرى إفصاحاً حزَّ فى نفسى حزًّا ، أرحل ولا أمل لى فى المستقبل . . . وأنت غير مدركة لمقدار ما أجرمت فى حقك . إنه ليعترينى أحياناً نوبات من الصراحة الحمقاء ، والثرثرة المطلقة . . . ولكن ما الذى يجعلنى أثير ذلك ؟ إننى راحل . راحل إلى الأبد .

(وكان رودين قد وصف لناتاليا فى هذا المقام زيارته لفولينتسف . إلا أنه محا هذه الفقرة بعد روية وتدبر وأضاف الحاشية الثانية على خطابه إلى فولينتسف) .

« سأظل وحيداً فى هذه الدنيا مكرساً نفسى لأمور أجدر بى كثيراً من ذلك . كما قلت هذا الصباح فى تهكمك اللاذع ، واأسفاه ! لو أننى استطعت أن أكرس حياتى حقًّا لهذه الأمور وأتغلب على كسلى فى النهاية . . . . ولكن لا ! سأظل ذلك المخلوق الفاتر الهمة الذى كنته دائماً . . . ما إن تصادفنى أول عقبة حتى أصاب بخيبة مرة . . . وهذا الحادث الذى وقع لى معك قد أثبت لى ذلك بأجلى بيان ، لو أننى كنت على الأقل قد ضحيت بحبى فى سبيل عملى المقبل ، بل فى سبيل تحقيق رسالتى ! ولكن كلا ! إنما كنت أخشى المسئولية تلقى على كتفى . وأنا غير جدير بك حقًّا لهذا السبب وحده . إننى لا أستحق أن تنتزعى نفسك من بيئتك فى سبيلى . ولكن ، لعل ذلك كان أفضل . وأخيرا . ربما خرجت من هذه المحنة أطهر مما كنت وأشد عزماً .

« وإنى لأ تمنى لك السعادة كاملة ، وأستودعك الله ! اذكرينى أحياناً . . . وأرجو أن تسمعى عنى مرة أخرى » .

رودين

وتركت ناتاليا يدها التى أمسكت بها خطاب رودين تسقط فى حجرها . وجلست ساكنة وقتاً طويلا . وعيناها مثبتتان إلى الأرض ؛ وقد كان هذا الخطاب أفصح لديها من أى برهان ؛ فقد تبين لها منه كم كانت محقة عندما هتفت على البديهة وهى تفترق عنه ذلك الصباح قائلة إنه لا يحبها ؛ ولكن هيهات أن يكون فى هذا عزاء لنفسها ؛ لقد كانت تجلس ساكنة بلا حراك . وقد خيل إليها أن أمواجاً حالكة قد غمرتها فى هدوء . فأخذت تغرق وقد ذهب منها الحس وفارقتها الحياة .

إن المرء ليألم دائماً متى تكشفت له الأوهام أول مرة . فإذا كان صادق الشعور لا يلتمس العزاء فى التمويه على نفسه ولا يعرف التغافل ولا التهويل . عجز عن احتمال ذلك أو كاد .

وذكرت ناتاليا طفولتها . وكيف كانت تخرج فى نزهة مساء . فتنثنى دائماً صوب الجانب المضىء من السماء حيث كانت الشمس الغاربة تزهو بلونها الوردى ، وتتنكب الظلام وتشيح بوجهها عنه . لقد بدت الحياة الآن مظلمة فى عينيها وأدارت ظهرها للضوء .

واغرورقت عينا ناتاليا بالدموع . والدموع لا تأتى دائماً بالفرج . بل هى تروح عن النفس وتشفيها مما بها إذا واتت بعد طول احتباس ، واستعصت أول الأمر على الجهد . ثم راحت تنهمر فى تكاثر رخية عذبة ، وهكذا يخف الألم المبرح الصامت . على أن ثم عبرات باردة ، عبرات تند من العين فى حنق وضغينة . ويعتصرها من القلب قطرة قطرة ما ناء به من حزن شديد مقيم ؛ وهذه العبرات لا تأتى بعزاء ولا تفرج كرباً . والحاجة الملحة هى التى تستدر هذه الدموع . ومن لم يذرفها لا يكن قد عرف الشقاء حقًّا ؛ وقد عرفت ناتاليا تلك الدموع فى يومها

هذا ، وانقضى على ذلك ساعتان . ثم تمالكت ناتاليا نفسها ونهضت . وكفكفت عبراتها وأشعلت شمعة أحرقت على لهبها خطاب رودين . ثم فتحت مجلداً لبوشكين حيثما اتفق . وقرأت السطور الأولى التى وقعت عليها عينها (وكانت كثيراً ما تفزع إلى بوشكين على هذا النحو كلما شاءت أن تستطلع ما تخبئه لها المقادير) . وهذا هو ما قرأته :

إن من ذاق طعم الحب

تلازمه أشباح الأيام الخوالى

فلا يجد الهناء فى شىء

وتصبح ذكرياته كلدغ الأفاعى

وينهش الندم قلبه

ووقفت ساكنة لحظة تتأمل خيالها فى المرآة وقد افتر ثغرها عن ابتسامة باردة . ثم أومأت برأسها وهبطت إلى غرفة الاستقبال .

وما إن لمحت السيدة لاسونسكايا ناتاليا حتى أخذتها إلى مكتبها وأجلستها بجانبها . وربتت برفق خد ابنتها ، وراحت تتفرس فى وجه الفتاة . بنظرات غلب عليها حب الاستطلاع ، فقد كانت السيدة لاسونسكايا تشعر بالحيرة فى قرارة نفسها ، وخيل إليها فجأة أنها لم تكن تعرف ابنتها حق المعرفة . فلما أخبرها بندالفسكى بلقاء ناتاليا لرودين ، لم يرعها أن ترتكب ابنتها ناتاليا العاقلة الحكيمة مثل هذا الفعل بقدر ما دهشت له . واستدعت السيدة لاسونسكايا ابنتها . وأخذت تنهرها بصوت مولول لا يصدر عن سيدة مهذبة بل لا يليق بسيدة تثقفت

بالثقافة الأوربية ، فتملكتها الحيرة بل انتابها الفزع من إجابات ناتاليا الحازمة ونظراتها الثابتة وإيماءاتها المستقيمة .

وقد أزاح رحيل رودين المفاجئ بل المحير ، حملا ثقيلا عن صدرها ، وكانت تتوقع أن تجد من ابنتها دموعاً تفيض ونوبات عصبية حادة . . . إلا أن ظهور ناتاليا بمظهر المتمالكة لنفسها قد بلبل أفكارها مرة أخرى .

فأنشأت تقول : « حسناً يا بنيتى ، كيف حالك اليوم ؟ »

ونظرت ناتاليا إلى أمها

« لقد رحل . . . حبيبك ، أتعلمين لماذا عجل بالرحيل ؟ »

فقالت ناتاليا فى صوت خافت : « أماه ! أعدك بأنك إن أمسكت ولم تعرضى له بالحديث فلن تسمعى منى كلمة عنه »

« إذن فأنت تسلمين بجرمك فى حقى ؟ »

وحنت ناتاليا رأسها ورددت قائلة : « لن تسمعى منى كلمة عنه »

فقالت أمها وهى تبتسم : « سآخذك بكلمتك فإنى أثق فيك ؛ واذكرى ماذا كان من أمرك أول أمس . . . ولكن فلأمسك ولا أزد ، فقد انتهى الأمر ودفن وانقضى ، أليس كذلك ؟ وهاأنتذى قد ثبت إلى رشدك ، لقد كنت بلبلت أفكارى وحيرتنى أشد الحيرة ، تعالى ، أعطنى قبلة يا فتاتى الأريبة ! »

ورفعت ناتاليا يد أمها إلى شفتيها ، وقبلت السيدة لاسونسكايا رأس ابنتها الحانية .

« انتصحى بنصحى دائماً » ، ثم أردفت تقول : « ولا تنسى أبداً أنك من أسرة لاسونسكايا ، وأنك ابنتى ، وستواتيك السعادة ؛ ولأتركك لشأنك الآن» .

وانصرفت ناتاليا فى سكون . وشيعتها المرأة الكهلة بنظراتها ثم حدثت نفسها قائلة : « إنها تنزع منزعى . وسيكون من اليسير التأثير عليها هى أيضاً . ولكن لن يهجرها الكثيرون كما هجرونى » واستغرقت السيدة لا سونسكايا فى ذكريات الماضى البعيد الذى عفى عليه الزمن .

ثم أرسلت فى طلب الآنسة بونكور . واعتكفت معها وقتاً طويلا . ثم صرفتها واستدعت بندالفسكى ، ذلك أنها كانت قد عقدت العزم على أن تكشف عن السبب الحقيقى الذى حمل رودين على الرحيل . وطيب بندالفسكى نفسها تماماً . فقد كان لا يخيب فى ذلك أبداً .

وجاء فولينتسف هو وأخته فى اليوم التالى لتناول الغداء . وكانت السيدة لاسونسكايا تلقاه بالبشر دائماً . إلا أنها هشت له هذه المرة وبشت أكثر مما كانت تفعل . وكانت ناتاليا تشعر بشقاء ناءت عن حمله . ولكن فولينتسف كان كثير الاحترام لها . وكان يحادثها فى حياء شديد . حتى إنها لم تملك نفسها من الشعور بعرفان الجميل .

وانقضى اليوم فى هدوء أقرب إلى الملالة والسأم . إلا أن القوم شعروا عندما انفرط عقدهم بأنهم عادوا إلى نهجهم القديم الذى ألفوه . وهذا قول فيه مبالغة .

أجل . لقد عادوا جميعاً إلى نهجهم القديم . اللهم إلا ناتاليا فقد جرت نفسها جرًّا إلى فراشها . بعد لأى وطول عناء . وحيدة . متعبة . شقية . وألقت بنفسها ووجهها على الوسائد . فقد بدت الحياة فى عينها مريرة كل المرارة . قبيحة أعظم القبح . خسيسة كأشد ما تكون الخسة . وبدا لها حبها وشقاؤها . بل كيانها كله مجللا بالخزى حتى لقد هان عليها الموت فى تلك اللحظة . . . وكان الغد لا يزال

يحمل لها فى طياته كثيراً من ليالى الحزن . وكثيرا من ليالى السهاد . بل يحمل لها الألم الممض تشقى به نفس معذبة ، ولكنها كانت فى مقتبل العمر . لم تكد حياتها تبدأ . وما أحرى الحياة أن تعود عاجلا أو آجلا إلى سابق عهدها . ومهما يكن من أمر المصائب التى تحل بالمرء . فإنه لا مناص له من أن يأكل – وليغفر لى القارئ ما فى هذا التعبير من ابتذال – يأكل فى يومه أو فى غده على الأكثر. وهذا هو العزاء الاول .

لقد كانت ناتاليا تتألم كثيراً ، تتألم للمرة الأولى . . . إلا أن الآلام الأولى كالحب الأول ، لا تتكرر. ولنحمد الله على ذلك .



الفصل الثانى عشر

ومضت سنتان أو نحوهما . وفى باكورة شهر مايو . كانت السيدة ليزنيفا – ولم يعد اسمها السيدة ليبينا – جالسة فى شرفة منزلها . وقد انقضى على زواجها أكثر من سنة . كانت لا تزال كعهدنا بها فاتنة ساحرة ، ولو أن جسمها كان قد ازداد امتلاء فى الأيام الأخيرة . وكانت تتمشى أمام الشرفة التى يؤدى درجها إلى الحديقة مرضع حملت بين ذراعيها طفلا متورد الوجنات ارتدى عباءة بيضاء ، وقلنسوة عليها كرة من زغب أبيض ، وكانت أمه تنظر إليه فى لهفة ، ولم يكن الطفل يبكى ، بل كان يمص إبهامه فى جد ورصانة ، ويتطلع حوله فى هدوء ، وقد ظهرت عليه أمارات تبشر بأنه سيكون ابناً جديراً بأبيه ميخائيل ميخائيلوفتش ليزنيف .

وكان صديقنا القديم بيجاسوف يجلس فى الشرفة بجوار السيدة ليزنيفا ، وقد علا رأسه المشيب بشكل ملحوظ مذ رأيناه آخر مرة ، وازداد ظهره انحناء . واشتد هزاله ، وكان إذا تحدث هس هسيساً ، ذلك أنه قد فقد سِنًّا من أسنانه الأمامية ، وكان الهسيس يزيد أحاديثه غلا وحفيظة . ولم يستطع الزمن أن يكسر من حدة

فظاظته . إلا أن مُلَحَه كانت باردة ، كما كان يردد ما يقوله فى أكثر الأحيان فلا يأتى بجديد .

وكان ليزنيف غائباً عن الدار ترتقب عودته فى موعد تناول الشاى . وكانت الشمس قد غربت ، وامتد على طول الأفق خط امتزج فيه اللون الذهبى الشاحب باللون الأصفر الليمونى . وكان ثمّ خطان فى الجانب المقابل له ، أسفلها أزرق باهت وأعلاهما أرجوانى ضارب إلى الحمرة . وكانت الغيوم الصغيرة الخفيفة تذوب فى كبد السماء ، وكل شىء يبشر بحلول فترة يهدأ فيها الجو ويستقر .

وشرع بيجاسوف يضحك فجأة .

فسألته السيدة ليزنيفا : « ماذا دهاك ؟ »

« لاشىء . . . لقد سمعت بالأمس فلاحاً ينهى زوجته عن الثرثرة قائلا لها : « كُفِّى عن الصّرير ! » ولشد ما أعجبنى هذا منه . وإنى لأتساءل حقًّا فيم تستطيع المرأة أن تتحدث ؟ وإنك لتعلمين أننى أستثنى دائماً من يكنّ حاضرات . لقد كان أجدادنا أبرع منا وأمهر . ذلك أن الغادة الجميلة فى حكاياتهم الخرافية تجلس دائما بجوار النافذة وقد علا جبينها نجم وضّاء . ولكنها لم تكن تنطق بحرف واحد . وهذا ما يجب أن يكون عليه حالها ، والآن أترك الحكم لك ! لقد حدث منذ أيام أن قالت زوجة كبير الأعيان فى ناحيتنا إن نزعتى لا تروقها ! فكان قولها هذا أشبه برصاصة انطلقت من مسدس فأصابتنى فى مقتل ! لعمرى . نزعتى ! ألم يكن من الخير لها ولغيرها لو أن الطبيعة كانت كريمة فحرمتها استعمال لسانها ! »

« مازلت على عهدى بك يا أفريكان سميونوفتش . تحمل علينا نحن النساء المسكينات . ألا تعلم أن ذلك حقًّا هو بليتك ؟ إنى لأرثى لك »

« بليّتى ؟ لعمرى ماذا تقصدين ؟ إنى لأقول لك أولا إنما البلايا فى هذه الدنيا ثلاث : الإقامة فى غرف باردة شتاء . وارتداء الأحذية الضيقة صيفاً . وقضاء الليل فى غرفة واحدة مع رضيع يصرخ ولاتستطيعين أن تستخدمى معه المسحوق القاتل للحشرات ، وأقول لك ثانياً . إذا سمحت . إننى الآن أرق الرجال حاشية بل إننى لفريد فى الحسن . وتلك هى شيمتى فى الوقت الحاضر . »

« يالها من شيمة غراء حقًّا ! عجباً . لقد شكت لى منك بالأمس فقط إلينا أنطونوفنا »

« أوقد بدر منها هذا ؟ وهل لى أن أسألك : ماذا قالت لك عنى ؟ »

« قالت لى : إنك قضيت الصباح كله تجيب على أسئلتها بقولك : ماذا ؟ ماذا ؟ فى صوت أشبه بالصراخ والعويل »

وضحك بيجاسوف وقال : « ألا فلتعترفى بأن ذلك كان فكرة مليحة »

« فكرة مدهشة جداً . أيصح لك أن تكون فظًّا مع امرأة ؟ »

« ماذا ! أتحسبين إيلينا أنطونوفنا امرأة ؟ »

« فماذا تكون إذن ؟ » .

« طبلة بلاشك ، طبلة عادية كتلك التى تقرعينها بالعصا . . »

فقاطعته راغبة فى الانتقال إلى موضوع آخر وقالت « أى نعم ! علمت أنك خليق بالتهنئة »

« علام ؟ »

« على كسبك قضيتك . وستظل مروج جلينوف ملك يدك »

فأجاب بيجاسوف مكتئباً : « أجل . ستظل ملك يدى »

« لقد ظل اهتمامك معلقاً بها سنين . ومع ذلك تبدو الآن غير راض »

فقال بيجاسوف متمهلا : « لا أخفى عليك أنه ما من شيء أكثر سوءاً وأشد إقلاقاً للبال من فرحة تتأخر عن أوانها كثيراً فإن ذلك يقلل نصيبك من المتعة . ويحرمك تلك الميزة الحلوة . . . ميزة الشكوى وصب اللعنات على حظك السيئ »

واكتفت السيدة ليزنيفا بأن هزت كتفيها ثم نادت : « أيتها المرضع . أظن أن الوقت قد حان لكى يأوى ميشا إلى فراشه فعلى به »

شغلت بابنها . ودلف بيجاسوف إلى الركن الآخر من الشرفة وهو يتمتم .

وظهر ليزنيف بغتة يسوق عربة سباقه على بعد يسير من الشرفة . فى الطريق الذى يحف بالحديقة . وكان ثم كلبان ضخمان من كلاب البيت يركضان أمام حصانه . أحدهما أصفر والآخر أشهب . وكان رب الدار قد اقتناهما حديثاً . وكانا يتعاركان دائماً . ولكنهما كانا صديقين حميمين . وجاء كلب هجين أشعث عجوز من خلال الباب وفتح فمه كأنما يريد أن ينبح ولكنه تثاءب . وقفل راجعاً وهو يهز ديله فى تودد .

وصاح ليزنيف من بعيد يقول لزوجته : « انظرى يا ألكسندرة بمن جئتك ؟ »

ولم تتبين السيدة ليزنيفا للوهلة الأولى الرجل الجالس خلف زوجها

ثم هتفت آخر الأمر : « آه ! السيد باسستوف ! »

وأجابها ليزنيف : « هو بعينه وفى جعبته أخبار عجيبة غاية العجب ستسمعينها بعد لحظة »

ودخل بعربته الفناء .

وبعد لحظات ظهر فى الشرفة ومعه باسستوف

وصاح وهو يضم زوجته إلى صدره : « وافرحتاه إن سرجى سيتزوج ! »

« من ؟ »

« ناتاليا طبعاً . لقد جاء صديقنا هذا بتلك الأنباء من موسكو . وثمّ خطاب لك أيضاً » . ثم أردف وهو يختطف ابنه : « أتسمع هذا يا ميشا ؟ إن خالك سيتزوج . ياله من فاتر الهمة فتوراً لا صلاح له ! ألا تقدر على شيء إلا أن تقطب ما بين حاجبيك ! »

وتجاسرت المرضع فقالت : « إنه نعسان »

وقال باسستوف وهو يمضى إلى السيدة ليزنيفا : « أجل لقد جئت اليوم من موسكو نزولا على رغبة السيدة لاسونسكايا لأراجع حساب الضيعة ، وهاك الخطاب »

وفتحت السيدة ليزنيفا فى عجلة خطاب أخيها . ولم يكن يشتمل إلا على بضعة أسطر . أنبأ بها أخته فى نشوة الفرح الأولى التى تملكته أنه خطب ناتاليا . وحصل على موافقتها وموافقة أمها ، ثم وعدها بأن يكتب فى إسهاب أكثر بالبريد القادم ، وأرسل تحياته وقبلاته إلى الجميع . وكان من الجلى أنه كتب خطابه فى شيء من الذهول .

وقدم الشاى ، وأجلس باسستوف فى مقعده . وانهالت عليه الأسئلة ، وقد استخف الفرح الجميع ، حتى بيجاسوف . لسماع الأخبار التى حملها باسستوف .

وسأله ليزنيف عرضاً : « أفلا تخبرنى عن الشائعات التى بلغتنا عن رجل اسمه السيد كورشاجين ، فإنى أظن أنها كاذبة ؟ »

(وكان كورشاجين شاباً وسيماً . وفارساً من فرسان الطبقة العليا ، ممعناً فى

الغطرسة والزهو . وكان يسير فى مهابة وجلال ، حتى بدا أنه ليس من طينة البشر قط ، وإنما هو أقرب إلى تمثال يصور شخصه هو . وقد اكتب الناس فأقاموه)

وأجاب باسستوف وعلى شفتيه ابتسامة : « ليس الأمر كما تقول على وجه الدقة ، ولكن السيدة لا سونسكايا كانت تعطف عليه أشد العطف ، إلا أن الآنسة ناتاليا لم تكن لتحتمل رؤيته . »

وقاطعه بيجاسوف : « وى ! إننى أعرف الرجل . يا إلهى ! إنه لغبى ، بل هو مثال الغباوة ! ولو كان الناس جميعاً على شاكلته ما رضيت أن أحيا إلا إذا أعطيت كوماً من الذهب ! »

وقال باسستوف : « ربما كان القول ما قلت ، ولكنه مع ذلك شخص بارز فى المجتمع »

وصاحت السيدة ليزنيفا : « لا عليك ، دع الرجل وشأنه . آه ، ما أسعدنى يا أخى ! وهل ناتاليا سعيدة مستبشرة ؟ »

« أجل ، إنها هادئة كشأنها دائماً ، وأنت بها عليمة ، ولكن يلوح أنها راضية »

وانقضى المساء فى حديث ممتع ينعش النفس ، ثم جلس القوم لتناول العشاء .

وقال ليزنيف لباسستوف ، وهو يصب له شيئاً من الخمر :

« ألا قل لى : هل سمعت شيئاً عن رودين ؟ »

« لم أسمع عنه شيئاً منذ زمن طويل ، وكان قد جاء إلى موسكو فى الشتاء الماضى وقضى مدة قصيرة فيها ، ثم ذهب إلى سمبرسك فى صحبة أسرة من الأسر ، وظللنا نتراسل زمناً ، وقد أخبرنى فى خطابه الأخير أنه سيغادر سمبرسك ، ولم يفصح عن وجهته ، ولم أسمع منذ ذلك الحين شيئاً عنه » .

وقال بيجاسوف : « إنه لقادر على أن يعى بأمر نفسه . وإنى لأ تصور أنه جالس يعظ فى مكان ما . فإن ذلك السيد يستطيع دائماً أن يجد اثنين أو ثلاثة من المعجبين ينصتون إليه فاغرين أفواههم ويقرضونه بعض المال ، ولتذكر كلمتى هذه ! إن الأمر سينتهى به إلى الموت فى جحر مهجور مثل تساريفو كوكشايسك أوشوخلوما بين ذراعى عانس عجوز مستطارة اللب تظن أنه أعظم عباقرة هذا العالم »

وقال باسستوف فى صوت خافت نم عن استنكاره : « إنك تقسو غاية القسوة فى حديثك عنه » .

فأجاب بيجاسوف : « كلا ثم كلا . فإنى أتوخى فى حديثى غاية الإنصاف . ومن رأيى أنه لا يعدو أن يكون طفيلياً »

ثم التفت إلى ليزنيف ومضى يقول : « لقد نسيت أن أخبرك بأننى تعرفت بتارلاخوف الذى كان رودين فى صحبته عندما كان فى الخارج ، وى ، وى ! إن ما رواه لى عنه من أخبار لأبعد من أن يتصورها خيالك . بل هى أغرب من أن توصف ! ما أعجب أن ينقلب جميع أصدقاء رودين وأشياعه أعداء له بمرور الزمن »

وقاطعه باسستوف فى حرارة : « أخرجنى من هذه الزمرة »

« أنت ؟ إنك تختلف عنهم . ولم أكن أتحدث عنك »

وسألته السيدة ليزنيفا : « وماالذى أنبأك تارلاخوف من أمره ؟ »

قال لى الكثير . ولا أستطيع أن أذكره كله ، ولكن أحسن ما سمعت عنه هذه النادرة : كان رودين ينضج دائماً – وهذا شأن جميع السادة الذين على غراره .

أما غيرهم فحسبهم أن يأكلوا ويناموا . وهم حين يأكلون أو ينامون ينضجون . أليس الأمر كذلك يا سيد باسستوف ؟ : (ولم يحر باسستوف جواباً) . وهكذا ظل رودين ينضج حتى انتهى فلسفيًا إلى نتيجة هى أن الوقت غدا ملائماً للحب ، فأخذ يتطلع إلى هدف جدير بالنتيجة المدهشة التى انتهى إليها . وابتسم له الحظ فتعرف بصانعة أزياء فرنسية غاية فى الحسن . ولأذكر بهذه المناسبة أن وقائع هذه القصة حدثت فى بلدة ألمانية على نهر الراين وشرع رودين يزورها ويعيرها الكتب على اختلافها ويحدثها عن الطبيعة وعن هيجل ، ولكن ما جدوى هذا فى نظر صانعة أزياء ؟ وظنته الفتاة من أرباب الفلك ؛ على أنك تعلم أنه ليس بالفتى الدميم . وقد نال الحظوة عندها بحكم أنه أجنبى روسى . ودبر آخر الأمر موعداً معها ، موعداً توافرت له جميع أسباب الخيال فى جندول على صفحة الراين . ووافقت الفرنسية ، وارتدت أفخر ما ترتديه أيام الأحد من ثياب ، وخرجت معه فى الجندول ، ولبثا فيه ساعتين كاملتين . فكيف قضى كل هذا الوقت فيما تظن ؟ لقد كان يربت رأس المرأة ويحدق حالماً فى السماء . وردد على مسامعها عدة مرات أنه يشعر نحوها بحنان الأب ، وعادت الفرنسية إلى دارها حانقة غاضبة . ثم قصت القصة بحذافيرها على تارلاخوف من بعد ، وهذا هو طراز ذلك السيد ! » ، وضحك بيجاسوف .

وانتهرته السيدة ليزنيفا قائلة : « يالك من رجل جبلت على الاستهانة بكل شىء ! وإنى لأزداد على الأيام اقتناعاً بأن شانئى رودين أنفسهم لا يجدون فيه شيئاً قبيحاً »

« لا يجدون شيئاً قبيحاً ! يا إلهى ! وماقولك فى تطفله على الناس ، ومادرج

لميه من اقتراض المال ؟ لاشك أنه لم يعفك أنت أيضاً من ذلك يا ميخائيل يخائيلوفتش ؟ »

وأنشأ ليزنيف يقول وقد علت وجهه سيماء الجد : « إنك لتعلم يا أفريكان عيونو فتش ، كما تعلم زوجتى ، أننى كنت بصفة خاصة لا أميل إلى رودين فى لأيام الأخيرة . بل الحق أننى كثيراً ما أخذت عليه أشياء . ولهذا كله . . . » وهنا لأ ليزنيف الأقداح بالشمبانيا ومضى يقول « . . . إنى أقترح بعد أن شربنا نخب خينا العزيز وخطيبته أن نشرب الآن نخب ديمترى رودين »

وحملق فيه كل من السيدة ليزنيفا وبيجاسوف وقد أخذتهما الدهشة ، واعتدل اسستوف فى جلسته ، وقد جحظت عيناه وطفح وجهه فرحاً وبشراً .

ومضى ليزنيف يقول : « إننى أعرفه حق المعرفة ، وأنا لا أغمض عينى عن عيوبه . فهى تتجلى وتتجسم لأنه هو نفسه ليس رجلا تافهاً » .

وهتف باسستوف : « إن رودين رجل عبقرى ! »

ووافقه ليزنيف قائلا : « قد يكون فيه قبس من عبقرية ، أما الرجل فى ذاته فإن حنته أنه ليس مكتمل الرجولة . . . ولكن هذا يخرج بنا عن موضوعنا ، ذلك أننى حب أن أتحدث عن صفاته الطيبة النادرة ، فهو من أهل الحماسة والغيرة . وخذ عنى أنا الرجل البارد الطبع ، أن هذه الصفة لا تُقوِّم بمال فى أيامنا هذه ، فقد غدونا جميعاً من المفكرين الأحرار لا نبالى شيئاً ولايحركنا شيء ، وهذا أمر لا يطاق ، لقد أخذتنا سنة من النوم فتحجرنا ، وأخلق بنا أن نعترف بفضل كل من يحركنا ويبعث الحرارة فينا ولو لحظة فحسب ! لقد آن أوان ذلك وحل ! وإنك لتذكرين يا ألكسندرة أننى كنت أناقشه مرة وإياك فاتهمته بالبرود وكنت فى ذلك

مصيباً ومخطئاً فى وقت معاً ، فالبرود فى دمه ، وليس هذا خطأه هو . ولكنه ليس فى رأسه ، وليس رودين بممثل ، كما ألفت أن أدعوه ، ولاهو بالدجّال أو الوغد . فهو يعيش على حساب الناس لا لأنه رجل ماكر داهية بل لأنه طفل . . . أجل وأغلب الظن أنه سيموت فى مكان ما شقيًّا فقيراً ، ولكن أيحق لنا من أجل هذا أن نرجمه بالحجارة ؟ إنه لن يحقق عملا بيديه هو لا لشىء إلا أنه رجل بارد الدم لا قوام له ، ولكن من ذا الذى يحق له القول بأنه لا يرجى منه نفع ، أو أنه لم يكن نافعاً فعلا ، أو أن كلماته لم تلق كثيراً من البذور الصالحة فى نفوس الشباب الذين لم تحرمهم الطبيعة ، كما حرمته ، القدرة على العمل . والقدرة على تنفيذ نواياهم ؟ وى ! إننى أنا نفسى مدين له بهذا ، وألكسندرة نفسها تعلم ماكان لرودين عندى من شأن فى أيام شبابى وإنى لأذكر أيضاً أننى قلت إن كلمات رودين لا يمكن أن تؤثر فى نفوس الرجال ولكننى كنت أتحدث عن رجال من طرازى وفى السن التى أنا عليها الآن . رجال عركوا الحياة وعرفوا حلوها ومرها . فإن نغمة نابية واحدة تشوب حديث رجل لكافية أن تفسد فى نظرنا مجرى الحديث واتساقه . إلا أن أذن الشباب ، وما أسعدهم بهذا . ليست مرهفة إلى هذا الحد ، ولاهى سريعة التأثر بهذا المقدار . فإذا راق لهم الحديث فى جوهره فما الذى يعنيهم من نغمته ؟ ذلك أنهم يجدونها بلاشك فى أعماقهم » .

وصاح باسستوف قائلا : « مرحى ، مرحى ! ما أصوب قولك ! أما عن أثر رودين فى النفوس فإنى أقسم لك أن الرجل لا يعلم كيف يثيرك فحسب ، بل يعلم أيضاً كيف يطلقك من عقالك ويظل هذا حالك ، إنه يقتلعك من جذورك ويشعل النار فيك ! »

ومضى ليزنيف يقول وهو يلتفت إلى بيجاسوف : « أو قد سمعت ؟ وأى دليل بعد هذا تريد ؟ إنك تهاجم الفلسفة ، ولاتجد فى حديثك عنها من الكلمات المعيبة ما يشفى الغليل منها ، وأنا شخصيًا لا أحفل بها كثيراً ، وفهمى لها أقل من اهتمامى بأمرها ، ولكن الفلسفة ليست هى السبب فى متاعبنا الكبرى ، فالشعوذة الفلسفية والهذيان الفلسفى لا يجوزان على الروسى ، فهو أوسع إدراكاً من أن يتأثر بهما ، ولكن لا يمكننا أن نسمح بوصم كل شوق صادق إلى الحق والمنطق أنه من الفلسفة ، ومصيبة رودين أنه لا يعرف روسيا ، ولاشك أنها مصيبة عظيمة ، إن روسيا يمكن أن تستغنى عن أى واحد فينا ، ولكن ليس منا من هو فى غنى عنها ، والويل لمن يظن أنه يستطيع ذلك ، والويل كل الويل لمن يعمل بدونها ! ؛ فمذهب من يتخذ العالم كله وطناً له هراء فى هراء ، والآخذ بهذا المذهب رجل تافه ، بل هو أتفه من التفاهة ، ولا وجود لفن ، ولاحق ، ولاحياة ، بل لا وجود لشىء خارج الوطنية ، ومالنا نذهب بعيداً ووجه الإنسان فى خير صوره له سيماء خاصة به ، وإنما الوجه المسيخ هو الذى لا سيماء له تعرف ، ولكنى أعود فأقول إن هذا ليس خطأ يحاسب عليه رودين ، بل هو حظه ، حظه العاثر الشقى ، وليس لنا أن نلومه على ذلك . وإنا لنبعد عن جوهر الموضوع كثيراً لو أننا سعينا إلى معرفة الأسباب التى جعلت رودين يظهر بيننا . وأحرى بنا أن نقر له بالفضل على الخير الذى نلمسه فيه ، وذلك أيسر من أن نظلمه ، وقد كنا له من الظالمين ، وليس من شأننا أن نقتص منه ، ومامن حاجة تدعونا إلى هذا ، لقد اقتص هو من نفسه قصاصاً أشد كثيراً مما يستحق . نسأل الله أن تذهب المصيبة بما فيه من شر وتبقى على ما فيه من خير ! إنى لأشرب نخب رودين ؛ أشرب نخب رفيق أجمل سنين مرت

بحياتى ، أشرب نخب الشباب ، وآماله وجهاده وإيمانه وصدقه ، نخب كل ما كان يجعل قلوبنا تنبض ونحن فى العشرين بأسرع مما تنبض الآن . . نخب « ماهو إلى ذلك خير من أى شىء تعلمناه أو نتعلمه فى هذه الحياة . . . أشرب نخب تلك الأيام الغر ، وأشرب نخب رودين ! »

وقرع الجميع كئوسهم بكأس ليزنيف ، وأوشك باسستوف أن يحطم كأسه من فرط حماسته ، ثم شربه جرعة واحدة ، وضغطت السيدة ليزنيفا على يد زوجها .

وقال بيجاسوف : « ماكنت أحسب قط أنك قادر على كل هذه الفصاحة ، عجباً إنك لتبلغ فى ذلك مبلغ رودين ، وحتى أنا قد هيجت أشجانى ! »

وأجاب ليزنيف فى لهجة تشوبها خشونة : « لست من الفصاحة فى شىء ، وإنى لأظن أنه يكاد يكون فى حكم المستحيل أن أستطيع تهييج أشجانك ، ولكن كفانا الحديث عن رودين ، ولننتقل إلى موضوع آخر » ثم أردف وهو يلتفت إلى باسستوف « أما زال . . ما اسمه؟ . . بندالفسكى يقيم مع السيدة لاسونسكايا؟ »

« أى نعم لقد حصلت له على منصب مرتبه كبير جداً »

وابتسم ليزنيف فى تهكم وسخرية قائلا : « ها كم رجلا لن يموت فقيراً ، وإنى أراهن على ذلك »

وانتهى العشاء وانصرف الضيفان ، وأصبحت السيدة ليزنيفا وحدها مع زوجها ، فنظرت إليه والابتسامة تداعب شفتيه ، وتمتمت تقول وهي تربت جبينه فى محبة وود :

« لقد كنت رائعاً اليوم يا حبيبى ؛ لشد ماكنت بارعاً نبيلا فى حديثك عن رودين ؛ ولكن لا تنكر أنك بالغت قليلا فى تحمسك فى الدفاع عنه ، كما كنت

تبالغ من قبل فى تحمسك للنيل منه »

« لا أستطيع النيل من رجل نبا به الدهر ، وقد كنت فى تلك الأيام أخشى أن يدير رأسك » .

وقالت له زوجه بأسلوبها الساذج : « كلا ، فقد كان يبدو لى دائما أكثر علماً مما أطيق ، وكنت أخشاه ولا أدرى ما أقول فى حضوره ، نعم ، ثم ألم يكن قبيحاً من بيجاسوف أن يسخر اليوم من رودين ؟ » .

فقال ليزنيف : « بيجاسوف ! إنما انسقت فى الدفاع عن رودين لأن بيجاسوف كان موجوداً ، لقد اجترأ فوصم رودين بأنه طفيلى ؛ وعندى أن بيجاسوف أسوأ منه مائة مرة ، إنه رجل أوتى ما يكفيه من أسباب المعاش ، ويسخر من كل إنسان ، ولكن انظرى كيف يصانع علية القوم وذوى البأس منهم ! أتعلمين أن بيجاسوف ، ذلك الذى يسىء إلى كل شىء وكل إنسان بخبث بالغ ، ويحمل على الفلسفة وعلى النساء ، كانت تمتد يده للرشوة وهو فى خدمة الحكومة . . . وعلى أى صورة ؟ أجل ، هذه حقيقة » .

وهتفت زوجه : « ما كنت أظن فيه ذلك قطّ ! ما كنت أتوقع هذا منه ! » ، ثم سكتت لحظة ومضت تقول : « هناك أمر كنت أريد أن أسألك عنه . . . »

« وماهو »

« أتظن أن أخى سيحظى بالسعادة مع ناتاليا ؟ »

« حسناً . . . أغلب الظن أن يتم له ذلك . . . لعمرى ولتكونن هى صاحبة الكلمة العليا ، وليس ثمّ ما يدعونا إلى تجاهل هذه الحقيقة ، فهى أمهر منه وأبرع ،

بيد أنه رجل ولا كالرجال ، وهو يحبها من صميم قلبه ، وماذا يطلب المرء أكثر من هذا ؟ . . .

وما لنا نذهب بعيداً ، ألسنا متحابين ترفرف علينا السعادة ؟ » فابتسمت وضغطت على يده .

وفى اليوم الذى كانت الحوادث التى قصصناها عليك تجرى فى منزل السيدة ليزنيفا ، كانت عربة حقيرة غطيت بالحصير ، يجرها ثلاثة جياد من جياد الفلاحين تضرب متثاقلة فى قيظ الظهيرة مصعدة تجتاز طريقاً بناحية روسية نائية ، وقد جلس فلاح أشيب الشعر محنى الظهر يرتدى معطفاً مهلهلا فى مقعد الحوذى ووضع ساقيه جانباً على « سوءاس » العربة ، ولم ينقطع قط عن لطم الجياد بالعنان المصنوع من الحبال ولف سوطه الصغير القصير ؛ وجلس تحت سقف العربة رجل طويل القامة يرتدى قبعة مستدقة الطرف وعباءة قديمة مغبرة ، وقد استوى على حقيبته الصغيرة المهزيلة ، كان الرجل هو رودين ، وقد جلس منكس الرأس ، وشد قمة قبعته على عينه ، وبدا أنه لا يحس إطلاقاً بتأرجح العربة تأرجحاً عجيباً راح يقذف به من جانب إلى آخر كأنما كان فى غفوة ثم اعتدل فى جلسته آخر الأمر .

وسأل الفلاح الذى كان يعتلى مقعد الحوذى : « ترى هل نصل إلى المحطة فى يوم من الأيام ؟ »

وقال الفلاح متظاهراً بشد العنان : « حسناً يا صديقى ، متى بلغنا قمة التل الذى هناك لا يبقى لنا إلا فيرستان » ، ثم صاح يقول وهو يضرب الجواد الأيمن بسوطه « اصح ، أتراك تفكر ؟ سأعلمك كيف تفكر ! »

وقال رودين : « أخشى أن تكون سائقاً لا تحسن مهنتك فما زلنا منذ الصباح

نجر أنفسنا جرًّا ولم نبلغ بعد بغيتنا ، ولعلك تغنينا على الأقل شيئاً »

« لا حيلة لى فى الأمر يا صديقى . فالجياد على ما ترى منهوكة القوى ، وما أنا بمستطيع أن أغنى ، فلست من عمال المحطات الذين يغنون » ، ثم صاح فجأة فى عابر طريق يرتدى سترة قذرة وحذاء من ليف النبات أكل الدهر عليه وشرب : « أنت يا هذا الحمل المسكين ، أفسح الطريق أيها الحمل المسكين ! »

ووقف الرجل ، وشيع الحوذى متمتماً : « يا له من حوذى ظريف ! » ، ثم مضى يقول فى صوت غلبت عليه الملامة : « أظن أنه من أهل موسكو ! » ، وهز رأسه ثم مضى يسير متقارب الخُطَى .

وصاح السائق وهو يشد عنان « السوءاس » : « الزم الطريق أنت أيها الشيطان الخبيث ! » .

ومضت الجياد المنهوكة القوى فى خُطى ثقيلة حتى انتهى بها المسير إلى المحطة ، وخرج رودين من العربة يجر نفسه جرًّا ودفع للفلاح أجره (ولم ينحن له الفلاح بل أخذ يقلب النقود فى يده برهة طويلة ، والظاهر أن النفحة التى نفحه بها كانت تافهة) ، ثم حمل حقيبته بنفسه إلى المنزل .

وقد قال لى مرة صديق أكثر من الطواف فى أنحاء روسيا : إن المرء سرعان ما يصيب طلبته من الجياد إذا وجد جدران المحطة مزدانة بصور تمثل مشاهد من « سجين القوقاز » أو صوراً لبعض القواد الروس ، أما إذا كانت الصور تمثل حياة جورج دى جرمانى المقامر المشهور فأخلق بالمسافر أن يتخلى عن كل أمل فى الرحيل سريعاً ، ذلك أنه سيجد الوقت للإعجاب بخصلات الشعر المنتصبة لذلك المقامر فى شبابه ، وبصداره الأبيض ، وسراويله العجيبة فى إحكامها والتصاقها بجسمه

وقصرها ، ووجهه المتقلص المربد ، وقد وقف عندما تقدمت به السن فى كوخ يعلوه سقف شديد الانحدار ، يلوح بكرسى ويقتل به ابنه . وكانت هذه الصور نفسها المأخوذة من قصة « ثلاثون عاماً أو حياة مقامر » ، معلقة على جدران الغرفة التى دخلها رودين ، ونادى رودين صاحب النزل فأجابه رجل يداعب الكرى أجفانه (وبهذه المناسبة هل اتفق لأحد منكم أن رأى صاحب نزل لا يداعب الكرى أجفانه ؟) وقال الرجل فى استهتار دون أن يكلف نفسه مشقة انتظار سؤال رودين : إنه ليس لديه جياد .

وسأله رودين : « ماذا تعنى بقولك : ليس لديك جياد وأنت لا تعلم من أمر المكان الذى أقصد إليه شيئاً ؟ لقد جئت إلى هنا مستعيناً بجياد بعض الفلاحين » .

فأجاب صاحب النزل : « ليس لدينا جياد تمضى إلى أى مكان ، ترى ماذا قلت عن مقصدك ؟ »

« أقصد – سك »

وأعاد صاحب النزل قوله : « ليس لدينا جياد » ، ثم خرج .

وشخص رودين إلى النافذة ، وألقى بقبعته على المائدة لما أصابه من غيظ وحنق ، وكانت السنتان اللتان مرتا به لم تنالا منه كثيراً ، إلا أن وجهه غدا شاحباً ووخط المشيب شعره الجعد ، وبدا أن عينيه اللتين ظلتا على جمالهما ، قد فقدتا بعض بريقهما ، وظهرت على شفتيه وعلى وجنتيه وصدغيه تجاعيد دقيقة من فرط ما انتابه من انفعالات مضطربة مريرة ؛ وكانت ملابسه قديمة رثة ، لا يشاهد فيها أثراً لقميص ، ولاح للعين أنه قد ودع ربيع العمر ، أو أن عوده قد ذوى كما يقول البستانية .

وأخذ رودين يقرأ النقوش التى على الجدران . وهى عادة محببة إلى قلوب المسافرين الذين تدركهم الملالة والسأم ، وإذا بالباب يصر ويدخل صاحب النزل .

وقال الرجل : « ليس ثم جياد تمضى إلى . . . سك . ولن تتيسر قبل مضى مدة طويلة . ولكن ثم جوادين سيعودان إلى . . . أوف »

وهتف رودين : « إلى . . . أوف ؟ ، ولكنها تبعد كل البعد عن طريقى . فإنى ذاهب إلى بنزا ، ولكن . . . أوف فيما أحسب على طريق تمبوف !

« وأى ضير فى ذلك ؟ تستطيع أن تبلغ . . . سك عن طريق تمبوف أو تختصر الطريق إليها بوسيلة ما من . . . أوف »

وتدبر رودين الأمر . ثم قال أخيراً : « حسناً ! قل لهم يسرجون الجياد فالأمر يستوى عندى . وسأذهب إلى تمبوف »

وسرعان ما جهزت الجياد . وحمل رودين حقيبته الصغيرة ، وتسلق العربة . ثم جلس وقد ران عليه اليأس والقنوط كما كان حاله من قبل . وأفصح ظهره المحنى عما يساوره من بؤس العاجز واستسلام الحزين المفجوع . ومضت العربة ثقيلة الخُطَى . تنتفض وتهتز وأجراسها تصلصل وتجلجل .

خاتمة

ومرت عدة سنوات أخرى .

وكان ذلك فى يوم بارد من أيام الخريف ، وقد وقفت عربة من عربات السفر عند درج الفندق الكبير فى بلدة س . . . من أعمال الريف ، وهبط منها سيد ، ثم تمطى وهو يتنهد ويتثاءب ، ولم يك هذا السيد متقدماً فى السن ، إلا أنه كان قد أوتى تلك البسطة فى الجسم التى ألف الناس أن يعدوها سمة من سمات الاحترام والمهابة ، وارتقى الدرج إلى الطبقة الأولى ، ووقف فى مدخل دهليز واسع ، وتلفت حوله فلم يجد أحداً ، فهتف يطلب غرفة بصوت مرتفع ، وانصفق الباب من مكان ما ، وقفز نُدُل هزيل من خلف دريئة منخفضة وقاد النزيل مسرع الخُطَى يظلع ، وكان ظهره الأملس وكماه المرفوعان تتألق فى ضوء الممشى الخافت ، وما إن دخل المسافر غرفته ، حتى خلع معطفه ووشاحه ، وجلس على أريكة وأسند يديه المثنيتين على ركبتيه ، ثم نظر حوله نظرة وسنانة ، ونادى خادمه ، فانصرف النُدُل يظلع كشأنه ، ولم يكن المسافر إلا ليزنيف ، وقد جاءت به الحملة السنوية للتجنيد إلى س . . .

ودخل خادم ليزنيف ، وكان شاباً مجعد الشعر مورد الخد يرتدى معطفاً أشهب وحزاماً أزرق وحذاء طويلا من اللباد ، فقال ليزنيف : « إيه يا غلام ، ها نحن أولاء قد بلغنا بغيتنا ، ولم تنخلع العجلة التى كنت شديد القلق عليها »

وأجاب الخادم وقد أخفت ابتسامته بنيقة معطفه المرفوعة : « ها نحن أولاء قد بلغنا بغيتنا ، أما السبب فى أن العجلة لم تنخلع . . . »

وارتفع صوت من الممشى يقول : « هل من أحد هنا ؟ »

واعتدل ليزنيف فى جلسته وأرهف السمع .

وصاح الصوت مرة أخرى يقول : « أنتم يا من هناك ! »

ونهض ليزنيف ، ومضى إلى الباب ، ودفعه فانفتح .

وألفى أمامه رجلا منتصباً طويل القامة محدودب الظهر أتى المشيب على شعره كله أو كاد ، وقد ارتدى سترة قديمة من المخمل لها أزرار من نحاس ، وعرفه ليزنيف فى الحال

فهتف : « رودين ! » ، والتفت رودين ، ولم يستطع أن يميز ملامح ليزنيف ، لأن ليزنيف كان يقف وظهره إلى الضوء ، فأخذ ينظر إليه متعجباً .

وسأله ليزنيف : « ألا تعرفنى ؟ »

فصاح رودين : « ميخائيل ميخائيلوفتش ! » ، ومد إليه يده ، ثم تردد ، وسحبها مرة أخرى ، وأسرع ليزنيف وأمسك بها بكلتا يديه .

وقال رودين : « تعال ، تعال إلى غرفتى » ، وأدخله غرفته ثم قال ليزنيف بعد سكون دام برهة قصيرة وهو يخفض صوته كرها عنه : « لقد تغيرت كثيرا ! »

فأجاب رودين ، وعيناه تجولان فى الغرفة : « نعم ، هكذا يقولون ، والسنوات

تغير ، ولكنك لم تتغير قط ، كيف حال ألكسندرة . . . زوجتك ؟ »

« إنها بخير وشكرا لك ، ولكن ماذا تفعل هنا ؟ »

« أنا ؟ إنها قصة طويلة ، ولعمرى لقد هبطت هذا المكان مصادفة . كنت أبحث عن رجل أعرفه ، ومع ذلك فإنى سعيد كل السعادة . . . »

« أين تتناول غداءك ؟ »

« أنا ؟ لست أدرى ، فى أى مطعم ، فإنى مضطر أن أغادر البلدة اليوم »

« مضطر ؟ »

وابتسم رودين ابتسامة ذات مغزى : « أجل ، مضطر . فإنهم سيحملوننى إلى قريتى لأقيم فيها .

« فلتتناول الغداء معى »

والتقت نظرات رودين ونظرات ليزنيف للمرة الأولى ، وقال له : « أوتدعونى لتناول الغداء معك ؟ »

« أجل يا رودين ، كشأننا فى الأيام الخوالى ، وكخير الأصدقاء . أو قد اتفقنا ؟ ما كنت أتوقع أن أراك ، ويعلم الله متى يقيض لى أن ألقاك مرة أخرى ، ولا يمكن أن نفترق على هذا النحو ! »

« لا بأس ، وإنى لأوافق »

وضغط ليزنيف على يد رودين ، ونادى خادمه وأمره بإعداد الغداء ، وأن يثلج زجاجة من الشمبانيا .

وراح ليزنيف ورودين يتحدثان فى أثناء الغداء ، كأنهما قد اتفقا على ذلك ضمناً : يتحدثان عن أيام الدراسة ، ويذكران كثيراً من الأحداث ، والناس أحياء

وأمواتا ، والتزم رودين جانب التحفظ أول الأمر ، إلا أن الدم جرى فى عروقه بعد أن تناول كئوساً قليلة من الخمر . وجاء النُدُل بالطبق الأخير . ونهض ليزنيف وأغلق الباب واتخذ مجلسه أمام رودين وجهاً لوجه ، ثم أسند ذقنه على يديه فى هدوء . وأنشأ يقول : « وبعد ، فلتحدثنى بكل ما وقع لك مذ التقينا آخر مرة » .

ونظر رودين إلى ليزنيف

وعاد ليزنيف يحدث نفسه قائلا : « يا إلهى ! لشد ما تغير هذا البائس المسكين ! »

ولم تتغير ملامح رودين إلا قليلا مذ افترقنا عنه فى المحطة ، بالرغم من أن الكبر المحيق به كان قد ألقى عليها ظلاله ، ومع ذلك فإنها كانت تفصح عن شىء آخر لم نعهده فيه ، لقد تبدلت نظرات عينيه ، بل إن كيانه كله . والطريقة التى كان يتحرك بها متكاسلا تارة ومتنفضاً تارة أخرى ، ثم حديثه الذى فقد حميته وغشيه الانكسار والفتور — كل أولئك كان ينم عن ملل مضن وحزن دفين صامت لا يشبه فى شىء أبداً تلك الكآبة المشوبة بالانفعال التى كان يتظاهر بها من قبل ، شأنه فى ذلك شأن جميع الشبان الذين يملأ صدورهم الأمل والاعتزاز بالنفس فى براءة وسذاجة .

وقال رودين : « أحدثك بكل ما وقع لى ، لا أستطيع أن أقص عليك كل شىء ، ولست أرى ضرورة لهذا . . . لقد شقيت كثيراً ، وأبعدت فى الرحلة والتجول ، لا بالجسم فحسب بل بالروح أيضاً — رباه ! لشد ما خاب منى الرجاء فى الناس وفى الأشياء ! ويا للصلات التى لا آخر لها ! » ، ثم ردد قوله (وقد لاحظ أن ليزنيف ينظر فى عينيه بعطف عجيب) « أجل ، لا آخر لها ! وما أكثر

ما عصتنى كلماتى ، فلم تجمد على شفتى فحسب ، بل جمدت على شفاه قوم كانوا يشاركوننى فى آرائى ! وما أكثر ما استحالت شكاسة الطفل عندى إلى بلادة فى الحس أشبه ببلادة الجواد يضرب بالسوط فلا يهتز له ذيل ! وما أكثر ما هزنى الفرح وداعبنى الأمل ، وشهرت الحرب على الناس ، وأذللت نفسى ، فما عاد ذلك على بشىء ! وما أكثر ما كنت أنقض كالنسر الجسور وأرتد متخاذلا كالقوقعة تحطمت صدفتها ! فأين أين الآفاق التى لم أجبها ؟ وأين أين الطريق الذى لم أسلكه ؟ » ، ثم أردف رودين مشيحاً بنظراته : « فهل تعلم أيها السيد . . . »

وقاطعه ليزنيف قائلا : « أفصح ، فما كنا نصطنع فيما بيننا هذا التكلف فى الأيام الخالية . . . فلنستعد تلك الأيام ، ولنشرب نخب الأخوة ! »

وتشدد رودين ، وانتصب واقفاً ، وكانت النظرة العابرة إلى عينيه أفصح من كل كلام .

وأجاب رودين : « أجل ، شكراً يا أخى ، ولنشرب نخب الأخوة ! »

وأفرغ ليزنيف ورودين كأسيهما .

واسترسل رودين يقول مبتسماً وقد أسقط لفظ « يا سيد » ، « ألا تعلم أن بين جوانحى ناراً لا تنفك تنهشنى نهشاً وتأكل لحمى أكلا ، فلا أشعر بالهدوء أبداً ، وتحملنى على النيل ممن يقعون فى أول الأمر تحت سلطانى ثم . . . » ، وأومأ رودين بيده إيماءة قطع بها حديثه ، ثم أردف : « مذ لقيتك آخر مرة يا سيد . . . ، بل مذ افترقنا وأنا ماضٍ أضرب فى خضم الحياة وأجرب أموراً كثيرة . . . فقد كنت بين الفينة والفينة أبدأ الحياة من جديد ، وأخطو خطوة جديدة ، وإنك لتستطيع أن ترى بعينيك إلى أين انتهى بى المطاف ! »

وقال ليزنيف كمن يفكر بصوت عال : « إنما كانت تنقصك قوة الاحتمال »

« لقد كنت على ما قلت مفتقراً إلى قوة الاحتمال ، ولم أخلق قطّ بناءً ، وكيف يتاح للمرء ، بربك ، أن يبنى ويشيد والأرض من تحت قدميه هشة لا صلابة فيها ؟ بل كيف يتأتى له ذلك وهو مضطر أن يضع الأساس لنفسه أولا ؟ لن أحاول أن أصف لك كل ما خضته من مغامرات ، أوكل ما أصابنى من خذلان ، بل سأحدثك عن حادثين أو ثلاثة ، وأعنى بها تلك الوقائع من حياتى التى بدا لى منها أن الزمن قد أخذ يبتسم لى آخر الأمر ، أو أن النجاح فيها كان يراود نفسى بتعبير أدق ، وبين الأمرين فارق ملحوظ »

وأصلح رودين من شعره الأشيب ، الذى كان قد نحل ، على نحو ما عهدتاه فيه عندما كان يدفع خصلات شعره الأسود الكثيفة إلى الوراء .

وأنشأ يقول : « حسناً ، أنصت إلى ، لقد وقعت فى موسكو على سيد فيه من غرابة الأطوار شىء كثير ، ولم يك هذا السيد يعمل فى خدمة الحكومة ، بل كان رجلا واسع الثراء يمتلك ضياعاً واسعة ، وقد شغف قلبه وملك عليه حياته شىء واحد هو حب العلم ، حب العلم عامة ، ولست أفهم حتّى اليوم كيف نما فى قلبه هذا الحب ؟ هذا الحب الذى اختلط بدمه واحتواه احتواء السرج للبقرة ، وما بى شك أن عقله لم يبلغ المستوى الذى كانت تصبو إليه نفسه ، لقد كان يعجز عن الكلام أو يكاد ، وكل ما كان يستطيعه هو أن يدير عينيه دوراناً معبراً ، ويهز رأسه فى رزانة ووقار ، ولم أصادف قطّ يا صديقى رجلا أقل منه ذكاء ولا أغبى منه عقلا . . . ، وفى ناحية سمولنسك أماكن لا تجد فيها إلا رمالا وبعض العشب متناثراً هنا وهناك يأنف أى حيوان أن يصيب منها شيئاً ، وكان كل شىء يحاوله

الرجل يخيب فيه خيبة ذريعة . كان كل شيء يروغ منه ويفلت من قبضته . وخاصة أنه كانت تتملكه نزوة تحمله على أن يجعل من الشيء اليسير عسيراً ، وصدقني أن الأمر لو كان بيده لجعل الناس يأكلون بكعوب أقدامهم لا بأفواههم ؛ كان يكدح ويكتب ويقرأ بهمة لا تعرف الكلل ، وكان يخطب ود العلم فى شيء من الإصرار العنيد والمثابرة التى لا هوادة فيها ، ولم يكن لغروره حد ، وكانت إرادته من حديد ، وقد عاش فى عزلة وعرف بغرابة الأطوار .

« عرفته ، ومن عجب أنه مال إلى . ولا أخفى عنك أننى سرعان ما أدركت تفاهته ، ولكن تعصبه لرأيه أثر فى نفسى . ثم إن موارده كانت من الجسامة والوفرة حتى كان من المستطاع تحقيق الخير الكثير على يديه ، وأقمت معه ، ثم صحبته آخر الأمر إلى ضيعته فى الريف . لقد كانت خططى يا صديقى عظيمة ، رحت أتخيل ضروباً شتى من الإصلاح والتجديد . . . »

وقال ليزنيف وهو يبتسم ابتسامة تنم عن سلامة الطوية « كما فعلت فى منزل السيدة لاسونسكايا »

« كلا ، كلا فقد كنت عندها أحس فى قرارة نفسى أن كلماتى تذهب سدى ، أما فى هذه المرة . . . أما فى هذه المرة فقد تهيأت لى فرصة عظيمة . . . وحملت معى عدداً كبيراً من الكتب التى تبحث فى الزراعة ، ولا أخفيك أننى لم أقرأ واحداً منها حتى نهايته ، ثم شرعت فى العمل ، ولم تجر الأمور بادئ ذى بدء على ما أشتهى ، ولكنها استقامت فيما يظهر من بعد ، وكان صديقى الذى اكتشفته حديثاً يرقب ما أفعل ولا يقول شيئاً ، لم يكن يدس أنفه فى أمورى بالقدر الذى ينجم عنه ضرر ، وكان يأخذ باقتراحاتى ، ولكنه كان يفعل ذلك فى نفور بالغ .

ويلازمه شك ملح خفى . ثم يعود دائماً أبداً إلى سابق عهده ، ذلك أنه كان يعتز أيما اعتزاز بكل فكرة من أفكاره ، ويكابدها مكابدة تقتضيه أشد الجهد وأعنفه . مثله كمثل أنثى الطير تعتلى نصل عشبة من العشب تقبع عليه وتسوى جناحيها بمنقارها متهيئة للطيران . ثم لا تلبث أن تسقط . وتبدأ كل ذلك من جديد . . . ولا يأخذنك العجب من هذه المقارنات . فقد ظلت تساور نفسى منذ ذلك الحين . وهكذا كافحت سنتين ، وسار العمل سيراً سيئاً بالرغم من كل ما بذلت من جهود . وبدأت أضيق بهذا كله . فقد أضجرنى صديقى وبعث فى نفسى الملالة والسأم . فجنحت إلى التهكم . كان يضيق على الأنفاس كأننى أرقد فى فراش من ريش ، واستحال عدم ثقته فى إلى تبرم صامت ، وطغى على نفس كل منا شعور من الحقد المتبادل فلم نعد نستطيع أن نناقش أمراً من الأمور بهدوء . وكان لا ينفك يحاول بطريقة خفية أن يبين لى أنه قد برم بنفوذى إما بتشويه خططى أو بإلغائها إلغاء . وتجلى لى آخر الأمر أننى إنما كنت طفيلياً يوفر لى المأكل والمسكن نظير ما أكفله للسيد المالك من رياضة عقلية ، وكان يحز فى نفسى ما اتضح لى من أننى أضيع وقتى وجهدى سدى . وأن آمالى قد انهارت مرة أخرى . والشىء الوحيد الذى كنت أعلمه حق العلم هو مقدار ما يصيبنى من خسارة بالتخلى عن عملى . بيد أننى لم أعد أحتمل السكوت على هذه الحال . وقد حدث ذات يوم أن شاهدت منظراً أليماً تشمئز منه النفس أظهر صاحبى فى صورة كريهة جداً . فتشاجرنا مشاجرة كانت هى الأولى والأخيرة ، ورحلت تاركاً ذلك السيد المتحذلق الذى صنع من عجينة اختلط فيها الدقيق الروسى والعسل الأسود الألمانى . . . »

وتمتم ليزنيف وقد وضع كلتا يديه على كتفى رودين : « أى أنك تركت

ما يكفل لك أسباب القوت »

« أجل ، ووجدت نفسي مرة أخرى خالى الوفاض جائعاً أضرب فى الفراغ حرًّا أنطلق حيث أشاء . . . إيه ، فلنشرب ! »

وقال ليزنيف وهو ينهض ويطّبع قبلة على جبين رودين « فى صحتك ، فى صحتك وفى ذكرى بوكورسكى ، فقد أوتى هو أيضاً الشجاعة على احتمال الفقر » .

وسكت رودين برهة وجيزة ثم قال : « كانت هذه إذن هى المغامرة « رقم واحد » أو أمضى فى الحديث ؟ »

« أرجوك أن تفعل »

« تالله إن نفسى قد عافت الكلام ، وسئمت الحديث يا صديقى ! ولكن ليكن ما تريد ، لقد انطلقت من بعد أضرب فى أماكن أخرى مختلفة ، وقد يجمل بى أن أنبئك فى معرض هذا الحديث كيف أصبحت كاتب سر موظف إمبراطورى سليم الطويّة ، وما انتهى إليه أمرى معه ، إلا أن ذلك يخرج بنا عن الموضوع كثيراً ، . . . أقول إننى اضطلعت بأمور عدة ثم عقدت العزم على أن أصبح آخر الأمر – وأرجوك ألا تضحك – رجلا من رجال الأعمال ، رجلا ينظر إلى الأمور بمنظار الواقع ، وشاءت المقادير أن أتعرف برجل يسمى كوربييف ، ولعلك سمعت عنه ، ألا تستبين من الاسم شيئاً ؟ »

« كلا ، لم أسمع به قطّ ، ولكن بالله عليك يا رودين كيف فاتك ، وأنت الرجل الذكى الأريب ، أنه ليس من عملك أن تكون رجل أعمال ، وعفواً لهذا الجناس ؟ » .

« أعرف أن ذلك ليس من عملى ، ولكن ترى ما عملى ؟ » كنت أتمنى أن

ترى كوربييف ، وأرجو ألا يذهب بك الظن إلى أنه رجل ثرثار كالطبل الأجوف (يقولون : إننى كنت فصيحاً فى يوم من الأيام) ولكننى لو قورنت به ما كنت شيئاً ، فقد كان رجلا عجيباً فى عمله ، رجلا لَوْذعياً ، له عقل مبدع يا صديقى فى التجارة والصناعة . لقد كان رأسه حافلا بأعظم المشروعات جرأة وأشدها ابتعاثاً للدهشة والعجب ، فوضعت يدى فى يده وقررنا أن نكرس أنفسنا لعمل من الأعمال التى تعود على الجمهور بالخير . . . » .

« أفلا تحدثنى عن هذا العمل ؟ »

وخفض رودين بصره وأجاب بقوله : « سيحملك ذلك على الضحك »

« عجباً ! لن أضحك »

فقال رودين مبتسماً ابتسامة يغلب عليها الحياء :

« لقد قررنا أن نمهد نهراً فى ناحية ك — آيا ونجعله صالحاً للملاحة »

« بئس ما فعلت ! إذن فقد كان كوربييف هذا رأسمالياً ؟ »

فأجاب رودين وهو يحنى رأسه الأشيب خائر العزم مكتئباً : « لقد كان أشد فقراً منى » .

وانفجر ليزنيف ضاحكاً ، ولكنه أمسك بغتة ، وأخذ بيد رودين ثم قال :

« أرجوك أن تصفح عنى يا صديقى ، فقد أخذت على غرة ، حسناً ، ولا شك أن مشروعك قد ظل حبراً على الورق »

« لم يكن الأمر كما تقول بالضبط ، فقد شرعنا نضع خطتنا موضع التنفيذ ؛ فاستأجرنا العمال ثم بدأنا العمل ، وسرعان ما صادفتنا عقبات شتى ، ذلك أن أصحاب المطاحن لم يكونوا راضين عن المشروع . وأشد من هذا وأنكى أننا كنا

عاجزين عن تسوية النهر للملاحة وقد خلا وفاضنا من الآلات ، وما كنا لنستطيع شراء الآلات بالمال القليل الذى تيسر لنا . فعشنا ستة أشهر فى أكواخ من الطين . وكان كوربييف يعيش على الخبز دون سواه ، أما أنا فلم يكن لدىّ من الزاد إلا القليل ، على أنى لست نادماً على ما فعلت ؛ فقد كانت مناظر تلك الناحية رائعة ، ومضينا فى كفاحنا وحاولنا أن نثير فى التجار الاهتمام بمشروعنا ، وكتبنا الخطابات والمنشورات . وانتهى الأمر بإنفاق آخر كوبك فى جيبى على المشروع » .

وقال ليزنيف : « لم يكن هذا بالأمر العسير فيما أحسب ! »

« لم يك حقا بالأمر العسير ! »

ونظر رودين من خلال النافذة : « ولكننى أقسم أن المشروع لم يك سيئاً ، ولعله كان حرياً بأن يسفر عن خير عميم »

وسأله ليزنيف : « وما الذى حدث لكوربييف ؟ »

« إنه فى سيبريا الآن يبحث عن الذهب ، وسترى أنه سيواتيه حظه من بعد ، ولن يصاب بالخذلان »

« ربما واتاه حظه . أما أنت فلن يواتيك حظك أبداً » .

« أنا ؟ واعجباً ! . ولكن لا غرو فقد كنت تحسبنى دائماً لا أصلح لشىء » .

« أنت — لا تصلح لشىء ! على رسلك يا صديقى ؛ صحيح أنه قد مر بى زمن لم أتبين فيه إلا نواحى الضعف فيك . ولكنى أؤكد لك أننى قد عرفت مقدارك حقًّا . إنك لن تصيب حظك . . . ومن أجل ذلك أحبك . أحبك حقاً ؛ . » .

وابتسم رودين ابتسامة فاترة ثم قال : « حقاً ؟ »

وردد ليزنيف : « إنى أحترمك من أجل ذلك . ولا شك أنك تدرك ما أعنى » .

ولاذ الرجلان بالصمت برهة

« حسناً . هل لى أن أنتقل إلى المغامرة « رقم ثلاثة ؟ »

« افعل ولك الفضل . »

« حسناً جداً . إذن . أما المغامرة الثالثة والأخيرة فقد خرجت منها منذ عهد قريب . ولكن ألست أبعث فى نفسك الملالة والسأم ؟ »

« امض فى حديثك . »

فاسترسل رودين يقول : « لقد طرأ لى فى لحظة من لحظات الخمول والكسل . وما أكثر ما تحلّ بى هذه اللحظات ، أننى تدبرت أمر نفسى كما يقولون ، ووجدت أننى رجل واسع العلم أسعى لخير الناس . . . أتراك تنكر على هذا ؟ »

« كلا وايم الحق »

« لقد حلت بى الخيبة فى كل ما عدا ذلك من أمور . . . فلمَ لا أغدو معلم أحداث ، أو مدرساً إذا شئت الوضوح ؟ ومالى أضيع حياتى هباء ؟ . . . » وخفت صوت رودين رويداً رويداً وانتهى بزفرة ، ثم مضى يقول : « ومالى أضيع حياتى هباء على حين أنه يجدر بى أن أسعى إلى تلقين غيرى ما أصبت من علم ، لعلهم يفيدون منه بعض الفائدة ؟ ودار فى نفسى أن كفاياتى فوق المستوى العادى ، ثم إننى أوتيت فوق ذلك لساناً ذلقاً يضطرب فى رأسى ، فصح عزمى على أن أكرس نفسى لهذا العمل الجديد ، ووجدت مشقة كبيرة فى الحصول على وظيفة ، ذلك أننى لم أشأ أن أعطى دروساً خاصة ، ولم يكن فى مقدورى أن أصنع شيئاً فى

المدارس الأولية ، وأفلحت آخر الأمر فى الحصول على وظيفة مدرس فى المدرسة الثانوية هنا » .

وسأله ليزنيف : « وأى مادة كنت تدرسها ؟ »

« الأدب الروسى ، ولا أكتمك أنى ما أقبلت على عمل بمثل هذه الغيرة والحماسة ؛ فقد كانت صياغة عقول الشباب من الأفكار التى تلهمنى ، وقضيت ثلاثة أسابيع أكتب المحاضرة التى أستهل بها دروسى »

وقاطعه ليزنيف قائلا : « ألديك نسخة منها ؟ »

« كلا لقد فقدتها فى مكان ما ، وكانت محاضرة جيدة نجحت نجاحاً كاملا ، . إنى لأستطيع الآن أن أتمثل وجوه الحاضرين – وجوهاً شابة لطيفة تضيئها أمارات لانتباه الجاد ، ويشوبها العطف ، بل التعجب ، وارتقيت المنصة وألقيت محاضرتى وأنا كالمحموم ، وحسبت أنها ستستغرق أكثر من ساعة ، إلا أننى قرأتها فى عشرين دقيقة ، وكان المفتش حاضراً ، وكان شيخاً نحيلا يضع على عينيه عوينات ذات إطار من الفضة ويرتدى شعراً مستعاراً قصيراً ، وكان يجهد نفسه من حين إلى حين فيميل إلى الأمام ليسمعنى فى جلاء ووضوح ، وفرغت من إلقاء محاضرتى ، وقفزت من كرسى فقال لى : « أحسنت ، ولكن المحاضرة أقرب إلى التهويل والمبالغة والغموض ، ولم تتناول الموضوع إلا لماماً » ، إلا أننى أؤكد لك أن الطلبة كانوا يتتبعوننى بنظرات تنم عن الاحترام ، وهذا هو الشىء الرائع حقاً فى الشباب ؛ وكتبت محاضرتى الثانية ، والثالثة . . . ثم أخذت أرتجل الكلام من بعد » .

« وهل نجحت ؟ »

« نجحت نجاحاً باهراً ، ورحت ألقنهم كل ماكان فى جعبتى من علم ، وكان

ثلاثة فتيان أو أربعة منهم مدهشين حقاً . أما بقيتهم فقد تعذر عليهم أوكاد أن يفهموا عنى شيئاً قط ، على أنى لا أنكر عليك أن أولئك الذين فهموا عنى كانوا فى بعض الأحيان يثيرون فى نفسى الحيرة والاضطراب بما يوجهون إلىّ من أسئلة . إلا أن ذلك لم يفتّ فى عضدى ، لقد كانوا جميعاً يحبوننى ، وكنت أمنحهم جميعاً الدرجات النهائية فى الامتحانات ، ولكن لاحت فى الجو دسيسة دبرت لى : كلا . لقد أخطأت التعبير ، فلم يكن ذلك دسيسة ، وغاية ما فى الأمر أننى لم أكن فى حالتى الطبيعية ، لقد أوقعت غيرى فى حيرة ، ووقعت أنا فيها . كنت أحاضر طلبة المدرسة الثانوية على نحو لم يعهده طلبة الجامعة إلا نادراً ، ولم يفد المستمعون من محاضرتى إلا القليل ، وكنت أنا نفسى أعرف الحقائق ، ولكن معرفتى بها كانت ناقصة ، ثم إننى لم أك راضياً عن المنهج الذى كلفت أن أنهض بالتدريس فى حدوده ، وهذا فيما تعلم من نواحى الضعف فىّ ، لقد كنت متعطشاً إلى استحداث إصلاحات جوهرية ، وأقسم أنها كانت إصلاحات عملية ممكنة التحقيق ، وكنت أرجو أن أضعها موضع التنفيذ بمعاونة ناظر المدرسة ، وهو رجل فاضل أمين كان لى عليه أول الأمر شىء من السلطان ، وعاونتنى زوجه ، ولم أصادف فى حياتى يا صديقى إلا القليل من هذا الطراز من النساء ، كانت قد تجاوزت الثلاثين بكثير ، إلا أنها كانت تؤمن بالخير والصلاح ، وتحب كل ما هو جميل حباً حاراً لا تجده إلا فى ابنة الخامسة عشرة ، وكانت لا تهاب التصريح بما تعتقد أمام أى إنسان مهما كان شأنه ، وإن أنس فلا أنس غيرتها الخالصة ونفسها الطاهرة . ورسمت خطة بناء على مشورتها ... إلا أنهم نصبوا لى شركاً بالحط من شأنى أمامها ؛ فقد كان مدرس الرياضيات رجلا حقيراً حاد الطبع غَضُوباً ، لا يؤمن بشىء . مثله مثل

بيجاسوف ، إلا أنه كان أقدر منه بكثير . وألحق بي هذا الرجل أبلغ الضرر... وبهذه المناسبة كيف حال بيجاسوف ؟ . هل هو على قيد الحياة ؟ .

« أجل ، ولكن أيدور بخلدك أنه تزوج امرأة من أهل المدينة تضربه على ما تقول الشائعات ؟ »

« إنه يستحق ما يلقى . حسناً . وهل تنعم ناتاليا لاسونسكايا بصحبة جيدة ؟ »

« أجل »

« أسعيدة هى ؟ »

« أجل »

ولاذ رودين بالصمت لحظة قصيرة . ثم قال :

« إلى أين بلغ بى الحديث ؟ أى نعم . مدرس الرياضيات . لقد تولد فى نفسه الحقد على . وشبه محاضراتى بالصواريخ . وكان يقيم الدنيا ويقعدها إذا شاب عبارة واحدة من عباراتى أى غموض . وقد اكتشف مرة خطأ فى إشارة عن ملحمة من ملاحم القرن السادس عشر . وأسوأ ما رمانى به هو بذر بذور الشك فى نواياى . ودق آخر مسمار فى نعشى فقضى على . ذلك أن المفتش الذى عجزت عن التفاهم معه منذ البداية . قد أثار ناظر المدرسة علىّ . ووقعت الواقعة بينى وبينه . وأبيت أن أذعن له واستشطت غضباً . واتصل الأمر بذوى الشأن . فأكرهت على الاستقالة . ولم أترك الموضوع عند هذا الحد . بل أردت أن أبين للقوم أنه لا يمكن معاملتى على هذه الصورة . . . ولكن الأمر انتهى على هذه الصورة . . . وكان لابد لى حينئذ أن أغادر هذه البلدة »

ولزم رودين الصمت . وجلس الصديقان منكسى الرأس .

وكان رودين أول من تكلم وقال : . أجل يا صديقى . أستطيع الآن أن أردد قول كولتسوف[١] : « إيه يا شبابى . لقد أترعت قلبى بالألم حتى ضاقت بى سبل الخلاص جميعاً » . ولكن أترانى حقاً لا أصلح لشىء . ولا أستطيع أن أنهض بشىء فى هذا العالم؟ ألا ما أكثر ما سألت نفسى هذا السؤال ! ومهما بلغ من تحقيرى لنفسى فى نظر نفسى فإنى لا أملك إلا الشعور بأن فى أعماق قوًى لم توهب للناس جميعاً . فلماذا تظل هذه المواهب إذن عقيماً لا تثمر؟ ثم إنى لأذكر الأوقات التى قضيناها أنا وأنت فى خارج البلاد . لقد كنت حينئذٍ منافقاً ممتلئ النفس بالغرور . والحق أننى لم أكن أدرك وقتئذ ما أريد حق الإدراك ؛ كنت أطرب للألفاظ وأستعذبها وأجد فى أثر الأشباح والأوهام . ولكننى الآن والله على ما أقول شهيد . أستطيع أن أجاهر أى إنسان بما أريد ، وليس عندى قط ما أخفيه ، بل إنى الآن رجل حسن النية بأدق ما تحمل هذه الكلمة من معنًى ؛ وأنا على استعداد لإذلال نفسى والمواءمة بينها وبين الظروف ، ولست أبتغى إلا القليل . أريد أن أبلغ أقرب هدف إلىّ ، وأن أنفع الناس بعض النفع مهما كان حظه من التفاهة . ولكن ذلك يتأبى على فلا أستطيعه . فما السر فى ذلك؟ وما الذى يحول بينى وبين الحياة والعمل كغيرى من الناس . . . ؟ إن هذا هو كل ما يراودنى الآن . على أننى ما إن انتهى إلى وضع من الأوضاع واستقر عند نقطة بعينها حتى ينتزعنى القدر انتزاعاً . . . لقد بدأت أخشى مصيرى . . . فما حيلتى فى هذا؟ حل لى هذا اللغز ! » .

وردد ليزنيف قوله : « لغز حقا ! أجل ، إنك كنت دائماً لغزاً فى عينى حتى

---

(١) كولستوف (١٨٠٩ – ١٨٤٢) . شاعر ديمقراطى من فحول الشعراء . وقد أخذ هذا البيت من قصيدته « مفترق الطرق » (١٨٤٠) – المترجم .

فى شبابك ، فقد كنت إذا وقع أمر تافه تنطلق بغتة فى الحديث فتملك على شغاف قلبى ، ثم . . . وأنت تعلم ما أعنى . . . بل إننى كنت أعجز عن فهمك حينئذٍ ، ولهذا بدأت أكرهك ، إن مواهبك عظيمة جداً ، وسعيك فى سبيل المثل الأعلى لا يفل ولا يمل . . . »

وقاطعه رودين قائلا : « كلمات ، إن هى إلا كلمات ! كلمات لا يتحقق من ورائها شىء ! »

« يتحقق ؟ وأى شىء وراءها كان خليقاً بالتحقيق ؟ »

« أى شىء ؟ أن يعمل المرء ويعول امرأة عجوزاً كفيفة البصر هى وأسرتها جميعاً كما فعل بريازنتسوف على ما تذكر ، وهذا شىء تحقق »

« أجل . ولكن الكلمة الطيبة هى أيضاً عمل طيب »

ونظر رودين فى صمت إلى ليزنيف وهز رأسه فى بطء وتمهل ، وكان ليزنيف على وشك أن يقول شيئاً ، ولكنه مر بيده على وجهه . وسأله آخر الأمر : « والآن أذاهب أنت إلى قريتك ؟ »

« نعم »

« ولكن أتعنى القول بأنك ما زلت تملكها ؟ »

« مازال بعضها ملكى ، وعندى بعض العبيد وركن تثوى إليه عظامى ، ولعلك تحدث نفسك فى هذه اللحظة قائلا : « ها هو ذا لا يستطيع حتى الآن أن يستغنى عن اللفظ الحسن ! » ، صحيح أن الألفاظ كان فيها دمارى والقضاء على ، ومع ذلك فإنى لا أستطيع إلى اليوم الخلاص منها ، على أن ما قلته الآن لا يعد ألفاظاً فحسب ، وما هذا الشعر الأبيض وهذه التجعيدات وهذان

المرفقان الهزيلان بألفاظ تقال ، لقد كنت دائماً تقسو فى الحكم على ، إلا أنك كنت تصيب جادة الحق ، ولكن ما جدوى ذلك الآن ؟ وقد انتهى كل شىء ، وأقفر المصباح من الزيت ، وأخذت ذبالته تخبو وتخمد . . . ولابد يا صديقى أن يأتى الموت أخيراً فيصلح . . . »

وقفز ليزنيف من مقعده وصاح قائلا : « رودين ! ما بالك تقول لى هذا القول ؟ وهل أستحق ذلك منك ؟ فمن أكون بين القضاة حتى أجلس مجلس الحكم على الناس ؟ وماذا تكون صفتى بين الرجال إذ أرى الخدود الغائرة والتجاعيد الملمة فأفكر فى الألفاظ الحسان ؟ أتحب أن تعرف رأيى فيك ؟ إليك إذن قولى : ها كم رجلا قد كفلت له مواهبه كل مطلب لو أراد ، فأى شىء يمتنع عليه ؟ وأى كنز من كنوز الأرض يقف دونه ؟ ولكنى أراه جائعاً ، شريداً . . . »

وقال رودين فى صوت أجوف : « إنك ترثى لحالى »

« كلا ، إنك مخطئ فى ذلك ، وإنما أنا أحترمك ، وهذا كل ما فى الأمر ، فما الذى كان يحول بينك وبين الإقامة سنة بعد أخرى مع ذلك المالك صديقك ، الذى لا شك عندى فى أنه كان خليقاً بأن يعينك على التوفيق فى حياتك لو أنك تخليت عن طبيعتك لإرضائه ؟ ولماذا تعثرت خطواتك فى المدرسة الثانوية ؟ ولماذا أيها الرجل العجيب كنت تحتم دائماً كل مشروع تكرس له نفسك ، مهما كانت بواعثك إليه ، بتضحية مصالحك الخاصة ، ورفضك التمكين لنفسك فى تربة غريبة عليك مهما كان حظها من الخصب والنماء ؟ »

فقال رودين ، وعلى شفتيه ابتسامة حزينة : « لقد فطرت على أن أكون حجراً دواراً ، ولا أستطيع الكف عن الدوران »

« صحيح ، ولكن ليست علة ذلك هى النار التى ترعى بين جوانحك على حد قولك . . . إنها ليست ناراً خبيثة ولا هى بروح من القلق الخامل ، بل هى حب للحق ملتهب يضطرم بين جوانحك ، وإنى لأحسب على الرغم من جميع أوهامك أنه أشد اضطراماً فى نفسك منه فى نفوس كثير من أولئك الذين لا يرون ما هم فيه من « أنانية » ، وربما رموك بأنك أفاق ، ولو أننى كنت فى موضعك لأطفأت منذ زمن بعيد تلك النار الخبيثة التى تنهش قلبى ، ورضت نفسى على كل أمر ، أما وهذه النار لم تفسد عليك جوانب نفسك جميعاً ، فإنى لواثق أنك على استعداد حتى الآن للبدء فى مشروع جديد بكل ما أوتى الشباب من غيرة وحمية »

وغمغم رودين : « كلا ياصديقى ، لقد حل بى التعب الآن ، وحسبى ما لقيت »

« التعب ! لو أن أى شخص آخر لقى ما لقيت لطواه الموت منذ زمن بعيد ، وأنت القائل إن الموت يصلح الأمور . أفلا تظن أن هذا يصدق أيضاً على الحياة ؟ إن من عاش ولم تعلمه الحياة أن يكون سمحاً كريماً مع الناس فهو خليق ألا يلقى منهم سماحة ولا كرماً ، ومن ذا الذى يجرؤ على القول بأنه فى غنى عن سماحة الآخرين وكرمهم ؟ لقد بذلت كل ما فى وسعك وناضلت حتى النهاية . . . فأى شىء كنت مستطيعاً أن تفعله أكثر مما فعلت ؟ لقد اختلفت بنا السبل . . . »

فقاطعه رودين وهو يتنهد : « أنت يا صديقى شخص تختلف عنى كل الاختلاف »

واسترسل ليزنيف يقول : « لقد اختلفت سبلنا ، ولعل علة العلل فى ذلك أن حظى الموفق وفتور همتى وغير ذلك من الظروف السعيدة ، لم تمنعنى من أن

أضم يدىّ إحداهما إلى الأخرى ثم أضعهما فى حجرى وأنزوى فى مقعد المتفرجين . أما أنت فلم تجد بدًّا من أن تخرج إلى الميدان ، وتشمر عن ساعدك وتعمل ، لقد اختلفت سبلنا . . . ولكن انظر كيف أن كلينا وثيق الصلة بصاحبه ؛ فنحن نتكلم لغة واحدة أو نكاد . ويفهم كل منا صاحبه للوهلة الأولى . وقد شببنا ونحن نؤمن بمثل واحد ولم يبق منا إلا نفر قليل يا صديقى . والحق أننى أمثل أنا وأنت آخر سلالة من أهل البلاد الأقدمين الأصلاء ، وقد كنا فى الأيام الخالية نستطيع أن نختلف بل نتقاتل . لأن فسحة الحياة كانت ممتدة أمامنا . أما الآن . فإن صفوفنا ترق ، والأجيال الجديدة تمر بنا ، عاقدة العزم على بلوغ أهداف غير أهدافنا . وما أحرانا أن نتماسك كما لم نتماسك من قبل . ولنقرع كأسينا يا صديقى وننشد أنشودتنا القديمة « جواد يا موس أجيتور »

وقرع الصديقان كأسيهما ، وبلغ بهما التأثر كل مبلغ . فأخذا يغنيان فى نشاز أغنية الطلبة القديمة على خير ما يفعل الروس .

وقال ليزنيف : « إنك ذاهب إلى الريف الآن ، وأنا لا أومن لحظة بأنك ستظل هناك طويلا ، ولا أستطيع أن أتخيل أين وكيف ينتهى بك المطاف . فلتذكر مهما ألم بك من أحداث ، أن لك دائما مكاناً ، بل عشاً تستطيع أن تأوى إليه ، وأنا أتحدث بهذا عن منزلى . . . أو قد سمعت يا صديقى ؟ إن للفكر أيضاً مرضاه . وهؤلاء أيضاً يجب أن يكون لهم مأوى يلجئون إليه . »

وانتصب رودين واقفاً وقال : « شكراً لك يا صديقى العزيز . شكراً لك ؛ لن أنسى ذلك ، وكل ما فى الأمر أننى غير جدير به ، لقد بددت حياتى ولم أخدم الفكر كما كان ينبغى لى . . . »

وهتف ليزنيف : « أمسك ، فإن كل إنسان رهين بما أودعته الطبيعة إيّاه ، ولا يمكن أن يطلب منه أكثر من ذلك ، لقد اتخذت لنفسك اسم اليهودى التائه ؛ فمن أدراك ؟ لعله قد كتب عليك أن تظل فى تيهك إلى ما شاء الله ، ولعلك تؤدى بذلك رسالة رفيعة لا تعلم من أمرها شيئاً ، وليس بعجيب ما جاء على لسان العامة من حكمة تقول : « إننا جميعاً بين يدى الله » وسأله ليزنيف إذ رآه يهم بالتقاط قبعته : « أذاهب أنت ، وهلا تقضى الليلة هنا ؟ » .

« إنى لراحل ، إلى اللقاء ، وشكراً لك ، أجل ، ستكون نهايتى سيئة »

« هذا فى علم الله وحده ، أوقد صح عزمك على الرحيل الآن ؟ »

« أجل ، إلى اللقاء ، ولتذكرنى بالخير »

« ولتذكرنى أنت أيضاً بالخير . . . ولا تنس ما قلته لك ، وإلى اللقاء »

وتعانق الصديقان ، وخرج رودين مسرعاً

وراح ليزنيف يذرع الغرفة ، وظل على ذلك وقتاً طويلا ، ثم وقف بجوار النافذة مستغرقاً فى تأملاته وتمتم : « يا للبائس المسكين ! » ، ثم جلس إلى المنضدة وشرع يكتب خطاباً إلى زوجته »

وهبت ريح خارج الدار ، وأخذت تصفر صفيراً كئيباً وتضرب النوافذ المقعقعة ، وكان ليل الخريف الطويل قد بدأ يرخى سدوله ؛ ألا طوبى لأولئك الذين يقبعون فى مثل تلك الليالى تحت سقوف منازلهم ، ويجدون ركناً دفيئاً يهجعون إليه . . . وكان الله فى عون الضالين يهيمون على وجوههم بلا مأوى ولا نصير .

* * *

وفى السادس والعشرين من يونية سنة ١٨٤٨ ، وفى عصر هذا اليوم الذى

تميز بالحرارة والرطوبة ، كانت فتنة « المصانع الأهلية » فى باريس تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وقد راحت سرية من جنود المشاه النظاميين تهاجم دريئة أقامها المفتتنون فى شارع ضيق من شوارع ضاحية سانت أنطوان ، كانت القنابل قد دمرته ، وشرع من بقى على قيد الحياة من المدافعين عنه يهجرونه ، ولا هم لهم إلا النجاة بأنفسهم ، وعلى حين غرة ظهر فوق قمة الدريئة نفسها ، وعلى هيكل منبعج لسيارة عامة مقلوبة ، رجل طويل القامة يرتدى سترة رسمية عتيقة ويتمنطق بحزام أحمر ، ويضع على شعره الأشيب الأشعث قبعة من القش ، وقد أمسك بيده علماً أحمر وباليد الأخرى سيفاً مثلوماً ؛ كان يهتف بشىء فى صوت حاد مجهد متسلقاً القمة وملوحاً بعلمه وسيفه ، وصوب إليه جندى من مشاة أهل فانسين بندقيته ، وأطلق النار . فوقع العلم من يد الرجل الطويل ، وسقط الرجل ووجهه إلى الأرض كأنه يلقى بنفسه على قدمى شخص . . . واخترقت الرصاصة قلبه .

وقال أحد العصاة لزميل له : « انظر ؛ لقد قتلوا البولندى لتوهم ؛ »

وأجابه زميله قائلا : « وما شأننا ؟ » ، واندفع كلاهما إلى قبو منزل من المنازل أغلقت مصاريع نوافذه وشوه الرصاص وقنابل المدافع جدرانه .

وكان البولندى هو : ديمترى رودين !



رقم الإيداع		١٩٨٠/٤١٦٠
الترقيم الدولى	٩٧٧-٧٣٣٧-٢٤-٨	ISBN

١/٧٩/٢٨٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

